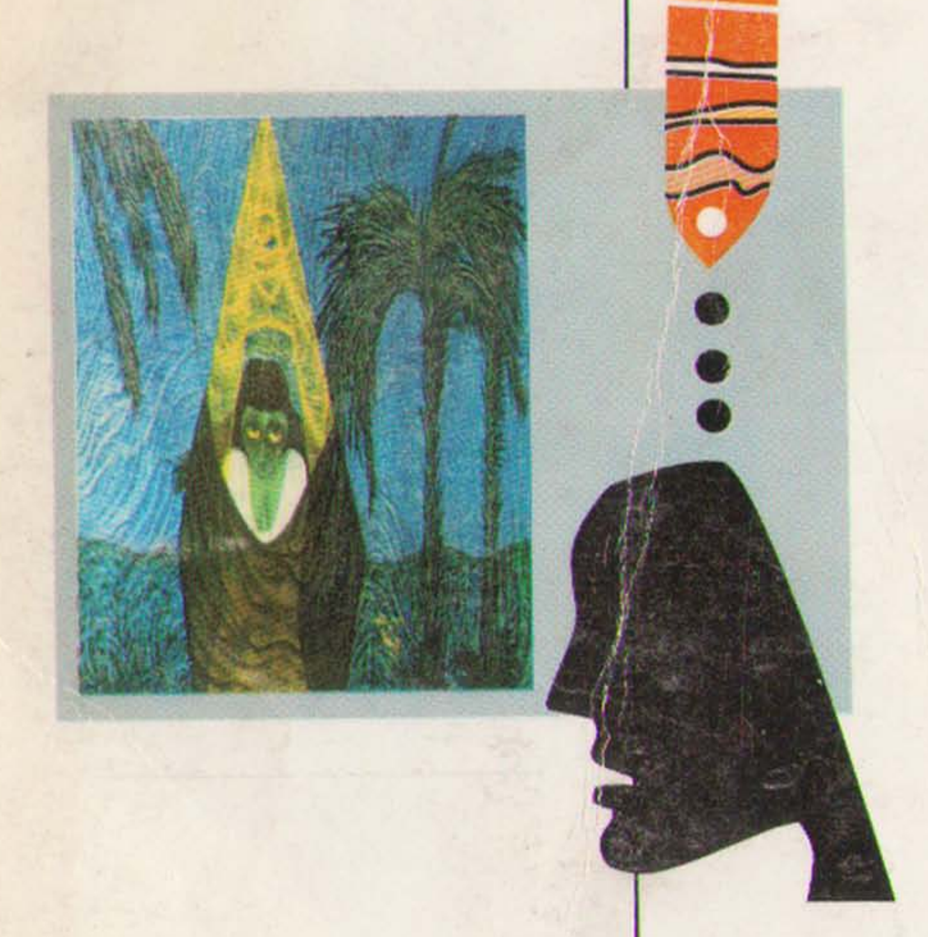




339

رواية من الأدب النيجيري

• كثبان النمل في السافانا



تأليف: تشنوا أشيبي

ترجمة: فرج الترهوني

مراجعة: عامر الزهير

سلسلة شهرية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ديسمبر 2002



• كثبان النمل في السافانا

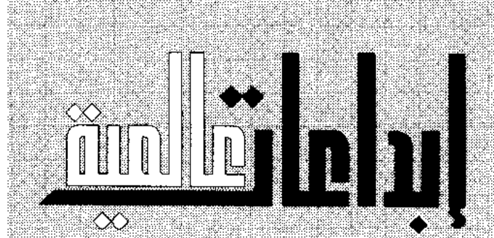
(رواية من الأدب النيجيري)

تأليـــف: تشنوا أشـــيـــبي

ترجمـــة : فـــرج التـــرهوني

مراجعـــة: عـــامـــر الزهيـــر

العدد 339 ديسمبر 2002 |11|



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

أ. بدر سيد عبد الوهاب الرفاعي

التنضيد والإخراج والتنفيذ:

وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

ردمك ٧ - ٠٩٣ - ٠ - ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 093 - 7

• كثبان النمل في السافانا

رواية من الأدب النيجيري

العنوان الأصلي :

Anthills of the Savannah.

Chinua Achebe (1987)

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2002م

إبداعات عالمية - العدد 339

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

اسم اللوحة : الغربة

الفنــان : محمد الشيخ - الكويت

المــادة : زيت على خشب

القياس : ٨٠ x ١٢٠ سم

مقدمة

(يمكن تعقب كلمات الفيلسوف أنتوني أبيا، من جامعة هارفارد، في وصفه لتشنوا أشيبي كأب مؤسس للأدب الأفريقي باللغة الإنجليزية إلى أول تماس لأشيبي، في خمسينيات القرن العشرين، مع رواية جويس كاري «السيد جونسون» التي تدور أحداثها في موطن أشيبي، نيجيريا. وكان قرأها عندما كان طالبا في جامعة إبادان في المرحلة الأخيرة من الحكم البريطاني للبلاد. ففي منهج يعج بشكسبير، وكولريدج، ووردزوورث. كانت الرواية من الأعمال القليلة عن أفريقيا، وقد أعلنتها مجلة تايم أخيرا بأنها تعتبر أفضل ما كتب عن أفريقيا، لكن أشيبي وزملاءه في الدراسة، في ذلك الوقت، كان لديهم رأي مختلف، فقد رأوا أن بطل الرواية النيجيري كان «أحمق بشكل مخجل» كما نوّه أشيبي في كتابه «الوطن والمنفى» ورأى كذلك كيف صوّر الكاتب الأيرلندي النيجيريين، أنهم مليئون من الداخل بالقسوة والكراهية والسخرية، ويضيف: «لقد فتحت رواية «السيد جونسون» عينيّ على حقيقة أن بيتي يتعرض للهجوم، وبيتي هنا لا يعني مقر سكناي أو مدينتي، ولكن بصورة أكثر أهمية يعني الحكاية اليافعة التي في طور الاستيقاظ»، أما جوابه على هذا الهجوم فكان «الأشياء تتداعى»(*).

عمّت شهرة أشيبي أنحاء العالم ككاتب وروائي أفريقي كبير، بعد صدور روايته ذائعة الصيت «الأشياء تتداعى» عام ١٩٥٨ التي تطرح قضية رجل بسيط يسيطر الخوف والغضب على حياته في فترة الاستعمار الأوروبي لنيجيريا، ليتطرق من خلالها إلى الصراع

(*) من مقابلة أجريت مع المؤلف في مجلة "Atlantic Unbound"، عدد أغسطس ٢٠٠٠.

بين الحضارتين الأوروبية والأفريقية، وكما أكد النقاد، أكثر من مرة، فإن روعة العمل تكمن في تحديه للرؤية النمطية لدى القارئ الغربي عن الأفارقة بصفتهم بدائيين ومتوحشين. يقدم أشيبي أيضا في أغلب أعماله تعقيدات المجتمعات الأفريقية بما لديها من بدائل للتقاليد والأمثلة والقيم، ويبين قلقه، وحتى فزعه، عندما يرى الأفارقة يندمجون في تلك الأنماط ويبتعدون عن ثقافتهم لمضاهاة ما يفترض أن حضارة الأوروبي الأبيض الأعلى منزلة، أي أن ما يقدمه الكاتب هو وصفة مشتركة للقراء الأوروبيين والأفريقيين لاستعادة حس الفخر في الثقافات الأفريقية، ويرى في مقالة له بعنوان «الراوي بصفته معلما» الواردة في كتاب «لم يبزغ الصبح بعد في يوم الخلق» أن «اعتناق مثل هذه الثورة يلائمني ويمكنني من مساعدة المجتمع على الإيمان بنفسه، وأن يتخلص من تعقيدات سنوات من تشويه السمعة والتحقير الذاتي، وهي بالأساس مسألة تعليم وتثقيف بأفضل تصور لهذه الكلمة. كما يرى أن المجتمعات الأفريقية قد تغيرت بفعل الحقبة الاستعمارية».

اختار أشيبي الكتابة باللغة الإنجليزية والاقتداء بالنموذج الغربي للتعبير الأدبي، خلافا لكتاب أفارقة آخرين يرفضون لغات المستعمر وآثار النفوذ الاستعماري، مثل الروائي الكيني «نقوقي وايثيونجو» الذي كتب بالإنجليزية في البداية، ثم قرر ألا يكتب إلا بلغته المحلية (الجيوكوبو)، من أجل بناء وتكوين ثقافة محلية كما قال. أما أشيبي فيقول في مقابلة معه: إنه قرر الكتابة بالإنجليزية الأفريقية «لأبين الصوت الجديد الذي يصدر عن أفريقيا وأتحدث عن التجارب الأفريقية بلغة منتشرة عالميا، وعليه فإن إجابتي عن

السؤال هل بإمكان الأفريقي أن يتقن الإنجليزية بدرجة جيدة، ليمكنه استعمالها بجدارة في الكتابة الخلاقة؟ هي بكل تأكيد نعم. وإذا كان السؤال، هل يمكنه استعمالها كمتحدث مثل أهلها سيكون جوابي، أرجو ألا يحدث ذلك، حيث يجب أن يكون هدف الكاتب الأفريقي هو استعمال اللغة الانجليزية لكي يعبر عن رسالته أفضل تعبير، دون إحداث تغيير في بنية اللغة يفقدها قيمتها كعامل للتبادل العالمي»(*).

يجرّنا موضوع اللغة هنا إلى نمط الكتابة عند أشيبي، فهو لا يلتزم بأسلوب روائي واحد، ويبدو بعض مقاطع من روايته مزيجا سرياليا غريبا، يحوي رؤى وأخيلة، وينحو في هذا العمل إلى الدخول في تأملات فلسفية، لها علاقة أكيدة بالموضوع ولكنها مليئة بالأساطير والحكايات الشعبية للوصول بها إلى المعنى الذي ينشده، ولا يخفي ولعه بالأمثال والحكم الأفريقية الشعبية، التي لا يأنف من ترديدها في كافة أعماله، بل قد يكررها في العمل نفسه أكثر من مرة في مواضع مختلفة، ويبين غرامه الشديد باستعمال المترادفات والتلاعب اللفظي لإحداث تأثير معين لدى المتلقي، وقد لا يكون من السهولة ترجمة جملة فيها مثل تلك المترادفات، لتحدث لدى قارئ العربية التأثير المنشود نفسه، الذي تحدثه لدى القارئ بلغة الأصل، وحيث لم يكن مناسبا وضع هوامش لتفسير بعضها فقد حاولنا إضافة التعبير باللغة الأجنبية أحيانا، واعتمدنا على حصافة القارئ في استشفاف المعنى أحيانا أخرى! وثمة أمر آخر تفرض مسألة اللغة المستعملة في هذا العمل الإشارة إليه، فقد دأب

(*) من مقالة لأشيبي بعنوان «الكاتب الأفريقي واللغة الإنجليزية»، نشرت في كتاب «آمال ومعوقات» ١٩٨٨.

أشيبي، مثل عديد الكتاب الأفارقة، على الإتيان بجمل وكلمات من اللغة الإنجليزية بالطريقة التي يتحدث بها الأفارقة بوجه عام، وفي أفريقيا الغربية على وجه الخصوص، وإذا ما عرفنا أن الطبقة المتعلمة والمثقفة تتحدث في الغالب بلغة إنجليزية سليمة «أفضل من الإنجليز أنفسهم»، كما ورد على لسان إحدى شخصيات هذه الرواية، يتضح لنا جليا أن من يتحدثون بهذه اللغة الجديدة هم من الطبقات الدنيا في المجتمع - وقد يجعل الروائي أفراد الفئة الأولى ينطقون ببعض الجمل منها- وهي إن تبدو للوهلة الأولى مثل الطلاسم، توقع أي مترجم في حيرة شديدة لأننا نتحدث هنا عن لغة، أو لهجة تُنطق بطريقة معينة تختلف من شخص إلى آخر، ولا يمكن تتبع أثرها وفك رموزها بواسطة قاموس ما، إلا أن الحل لم يكن بالغ الصعوبة حيث كان للعمال النيجيريين، ومن قبيلة الإيبو بالتحديد - وهي نفسها التي ينتمي إليها الكاتب، وتحرص على إدخال بعض مفردات لغتها في أعماله - كان لهؤلاء العمال الحرفيين الرحل، وأغلبهم ذوو تعليم جيد، الفضل في فك طلاسم تلك الجمل، وقد حرصت على تدقيق تفسيرها مع أكثر من شخص، بعد أن تبينت وجود تفسيرات متباينة أيضا! بعد تلك المرحلة كانت معضلة كيفية تدوين الترجمة، فقد حرص الكاتب - من خلال تلك الجمل على ألسنة شخصياته بتلك الركاكة في أسلوب الحديث، وانعدام الترابط بين الكلمات أحيانا - على تبيان شيء مهم، وهو الخلفية الاجتماعية لتلك الشخصيات، وربما أيضا عدم اهتمامهم بالتقيد باللغة الموروثة من الحقبة الاستعمارية. ولكن مسألة نقل هذه اللغة إلى العربية لا يمكن أن يتم إلا بلغة عربية سليمة ليستقيم المعنى

ولتصل معانيها إلى القارئ بالعربية، وإن حرصت أحيانا على الإبقاء على تلك الجُمل مفككة إلى حد ما، حتى لا تفقد الشخصية أهم سماتها، وكان من الضروري طباعتها بنمط كتابة مختلف ليسهل تمييزها.

غلبت ظاهرة توظيف الأعمال الروائية الأفريقية في خدمة القضايا السياسية المختلفة، لأن عكس ذلك كان يعد خيانة وتهربا من المسؤوليات القومية، ألا وهي تصحيح الأوضاع السائدة، مما قد يسم بعض تلك الأعمال بأنها نوع من الدعاية السياسية المحض، ولكن الكاتب هنا لا يجد مجالا إلا الوجود التلقائي في مكان المعارضة وممارسة النقد الشديد لأنظمة الحكم. وتتحدث الرواية عن الحياة في دولة غرب أفريقيا خلال فترة ما بعد الاستعمار، وقد ظهرت للمرة الأولى عام ١٩٨٧ ورشحت لنيل جائزة Booker McConel ذائعة الصيت. بصفة عامة، يتحدث أشيبي عن القضايا التي تشغل بال كل مواطن أفريقي وهي الصراع الإنساني والحب والكراهية، الصداقة والانتماء والمعتقدات والخيانة وانحلال القيم والأخلاق، وتقدم صورا من الجشع والطمع والانغماس في المتع وغيرها، وتتطرق بالتحديد إلى فترة ما بعد الاستعمار والانقلابات التي عمت القارة في الستينيات من القرن الماضي - ومازالت تحدث بين حين وآخر إلى يومنا هذا - وما يصحبها من صراعات إنسانية، وتحولات سياسية اجتماعية، تلقي بظلالها على البشر والأوطان، وتطرح قضية الديكتاتورية والديموقراطية الزائفة وما يقترن بهما من قمع وإهانة لكرامة الإنسان، وإهدار لثروات الأمة، وتكريس لتخلفها، بدلا من التقدم والازدهار الذي كان يجب أن تنعم به

بعد تخلصها من الاستعمار الأجنبي، مع ما توفره لها ثرواتها الطبيعية الهائلة.

يؤمن أشيبي أن على الكاتب النفاذ إلى أعماق النفس البشرية وأحوال المجتمع للموازنة بين النظرية والواقع، وللتعبير عن القيم والحضارات الأفريقية، كما تشتمل رواياته على كم هائل من التراث الشعبي، والحكم والأمثال التي يصفها بأنها «الزيت الذي تُغمسُ به الكلمات ليسهل هضمها وأكلها»، كما جاء في كلمة رئيس وفد مقاطعة أبازون في حفل العشاء في الفصل التاسع.

إن ما يحاول أشيبي القيام به هنا هو استعادة إرثه، وأن يبين في الوقت نفسه اتجاهات التغيير الإيجابي، وهو يمارس الكتابة في زمن تعتنق فيه البلدان الأفريقية نظريات الاقتصاد العالمي، وتحاول التكيف مع الضغوطات من أجل التغيير الداخلي في أنظمة حكمها ومن أجل التعاون الكوني، ولكنه في الوقت نفسه متفطن إلى الأشكال الرجعية من الوطنية والقومية، والرغبة في القوة المطلقة التي كان من نتائجها في نيجيريا، وفي بلدان أخرى، أن وقفت القوى الرجعية في وجه الإصلاح، وأعطت الفرصة لديكتاتورية الحكم المطلق، ففي مقابلة صحافية له، وفي معرض تعليقه على ما جاء على لسان الشاعر أيكم «إن الخطأ الرئيس لحكوماتنا... هو خطأ حكامنا في استعادة الصلات الحيوية الداخلية مع الفقراء والمعوزين في هذه البلاد، ومع القلب المحطم الذي ينبض بالألم في جوهر كيان هذه الأمة». وعن مدى انطباق ذلك على نيجيريا اليوم؟ أجاب «بأن ذلك بالضبط هو وضع نيجيريا اليوم، حيث سلم البريطانيون السلطة لزمرة من المتعلمين، الذين أصبحوا الحكام

الجدد، وأن ما يتحدث عنه «آيكم» هو المسافة التي تفصل بينهم وبين الشعب، وعن ضرورة إيجاد صلة بين الاثنين ليرى الذين يمسكون بزمام السلطة الأمور من وجهة نظر الشعب الذي يدّعون الحكم باسمه، وفي حالة نيجيريا فالأمر كذلك، حيث تتحدث الأخبار عن نظام الحكم الديكتاتوري العسكري الآن للجنرال ساني أباشا - جرت المقابلة قبل الإطاحة بحكمه ليستبدل بنظام أميل إلى الديموقراطية - وما يجري من نهب لثروات البلاد ونقلها إلى حسابات مصرفية خاصة، وسرقات كبرى لمصادر الدخل القومي بدلا من إنفاقها على التعليم، والصحة والطرق... إلخ، وكيف أن البنية التحتية لبلد بأكمله تُركت للخراب بسبب الرغبات الأنانية لحاكم فرد. ولا يجب أن يتردد الكاتب هنا في سلوك النهج الصحيح، فهو يرى أن هناك التزاما أخلاقيا في عملية الكتابة، ويجب عليه ألا ينحاز للسلطة ضد الذين لا حول لهم ولا قوة، ويشدد على أن تعريف الكاتب الفنان ليس هو الذي ينحاز للسلطان ضد رعاياه المساكين لأن الحضارة والأخلاق تحتم عليك أن تكون في صف المساكين».

تطرح الرواية بقوة قضية النخبة ودورها في المجتمع من خلال «آيكم» الكاتب والشاعر، المثقف التقدمي الذي يوضح دور الحكايات الشعبية الموروثة، وما تمثله من تهديد لمن هم في السلطة، ويبين دور الكتاب ويحدد أدوارهم في طرح الأسئلة أكثر من تقديمهم لأجوبة أو حلول للمشاكل السياسية القائمة، ولهذا يهاجم الثوريون الكتاب ويتهمونهم بالنخبوية. حين يركز «آيكم» في محاضرته التي ألقاها في الجامعة على رغبة الكاتب في طرح الأسئلة، بينما يريد

منه الآخرون تقديم الحلول، ويقول إنه ليس هناك نخبوية عدوانية أكثر ممن يظن نفسه أن بإمكانه الإجابة عن أسئلة لم تطرح بعد، ثم يطلب من الحضور العودة إلى بيوتهم والتفكير في أمورهم حيث يريد منهم فحص أسلوب حياتهم ومراجعته، فكما جاء في المثل «الحياة من غير تدبر، غير جديرة بأن تعاش»، وأن ما يطمح إليه ككاتب هو توسيع رقعة هذا التدبر والفحص الذاتي، ويعيب عليهم اقتباس أقوال الكاتب الشهير فرانز فانون حول خيانة الثورة، لأنه يرى أن خيانة الثورة يمكن أن تكون بسبب الغباوة، والسلبية، وانعدام الكفاءة.

للمرأة حضور قوي في الرواية، وما يفعله أشيبي هو أن يربط أكثر من أن يعارض دور المرأة الأفريقية في القضايا الكبرى في فترة ما بعد الاستقلال، ففي رسالة الحب التي قرأها آيكم على مسامع بييترس، يكتب عن إدراكه أن الخلل الرئيس في رؤيته لبلاده هو فشلها في إعطاء دور واضح للمرأة، ويعزو فهمه الجديد لدور المرأة إلى حركة التغير الاجتماعي في بلاده، حيث يبين أن النساء هن المجموعة الأكثر والأقدم تعرضا للاضطهاد في العالم على مر العصور، وما حفلة منح الاسم لطفلة إليوا في نهاية الرواية، إلا تفويض للمرأة ومنحها سلطة أكبر عندما يحضر عمّ إليوا إلى منزل بييترس ليجد أن الطفلة قد منحت اسم صبي من قبل مجموعة النساء بمعنى «عسى الطريق ألا يغلق أبدا»، ولا يملك إلا أن يبارك ذلك.

يتناول أشيبي كذلك قضية الجنس بكثرة في أغلب أعماله، ولا يتم ذلك بطريقة مبتذلة، ولكنه يعبر عنه كواقع موجود، وأغلب

الأحيان بلغة فنية رائعة هي جزء من العمل الأدبي لا يساورك الإحساس بابتذالها، بل إنه يحاول إضفاء جو من المرح حوله أحيانا، وبعد كل شيء فالنظرة إلى الجنس والتعامل معه يختلفان في تلك المنطقة من العالم، حيث تدور أحداث الرواية، عنه في المنطقة العربية! وما قد يبدو أمرا طبيعيا وعاديا لدى جيرانك قد يكون عملا شائنا ومكروها في بيتك، وقد أميل إلى تغليب أهمية توصيل العمل وما ينادي به من قيم إنسانية راقية إلى أكبر عدد من الناس، على حساب حذف أو تحوير كلمة أو جملة هنا أو هناك، مراعاة لطبيعة الحياء السائدة في مجتمعاتنا العربية، مع ضرورة الإشارة إلى ذلك لما تقتضيه شؤون الأمانة العلمية.

المترجم

قالوا عن الرواية

«بطريقة دمج فيها الأسطورة بالخرافة والأساليب الحديثة، كتب أشيبي كتابا حكيما ومثيرا ومتكاملا. إنه ترياق قوي ضد معلقي «العالم الخارجي» الساخرين الذين لا يرون مطلقا أن أفريقيا يمكن أن تأتي بجديد».

صحيفة الفايننشال تايمز

«يسيطر العنف على دراما تشمل الحب، والصداقة، والأمل، ويهدد ذلك كله. تلك هي أفريقيا اليوم يُظهرها لنا الكاتب بأسلوب مذهل وبملحمة من السرد التلقائي. رواية ممتعة، وقوية، وغاضبة...».

صحيفة: أيرش تايمز

«يتنافس كل من التشاؤم والسخرية على البراعة، والأمل، بطريقة لا تكاد تصدق، بهذه الرواية يخطف أشيبي الجائزة».

برنارد ليفين: صحيفة الصنداي تايمز

«جودة السرد مشحونة بفن الرواية، والإحساس بالأشياء والأفكار السامية. هذه رواية متميزة للكاتب الأكثر تميزا في أفريقيا. تستحق «كثبان النمل» أن يُحتفى بها».

نورالدين فرح: مجلة ويست أفريكا

«يجب على كل حاكم أو في طريقه الخطر إلى حكم بلد أفريقي أن يقرأ هذا الكتاب. وكذلك علينا جميعا أن نقرأه. إنه يضفي إنسانية على عالم كنا نخاف أن لا وجود له».

ريتشارد داودين: صحيفة الإندبندنت

الجزء الأول

الشاهد الأول - كريستوفر أوريكو

«أنت تضيّع وقت الجميع، يا وزيري لشؤون الإعلام. لن أذهب إلى أبازون. انتهى الأمر! كابيسا! هل ثمة شيء آخر!».

«كما ترغب فخامتكم، ولكن...».

«لا أود سماع أي «لكنات» يا سيد أوريكو، قلت لك انتهى الأمر. بحق الرب كم مرة يتعين علي أن أكرر ذلك؟ لماذا تجدُ صعوبة في بلع قراراتي حول جميع القضايا؟».

«أعتذر يا صاحب الفخامة، ولكن لا صعوبة لدي في بلع قراراتكم وهضمها». لدقيقة كاملة اجتاحني الغضب المنطلق من عينيه، واشتبكت عيوننا في نزال لوهلة قصيرة، ثم أنزلت عيني باستسلام احتفالي ليسقط نظري على سطح الطاولة اللامع، أعقب ذلك صمت طويل، ولكنه لم يرض بذلك بل كان يجعل الصمت ينمو بسرعة ليصبح في حد ذاته نوعا من النزال... مثل تلك اللعبة التي يمارسها الصغار حول من تطرف عيناه أولا، وهم يحملقون في عيون بعضهم، واستسلمت هنا أيضا من دون أن أرفع عيني، قلت له ثانية «إنني في غاية الأسف يا صاحب الفخامة». منذ سنة لم أكن لأعتذر للمرة الثانية أبدا - من دون أن أتسبب في إحداث ضرر جسيم لنفسي - وقد قمت بذلك الآن كإسداء معروف عادي له، لم يعنِ ذلك لي شيئا - لا إزعاج على الإطلاق - ولكنه كان يعني له الكثير.

فكّرتُ في كل ما يحدث الآن كلعبة مُورست في البداية ببراءة تامة، وتحولت فجأة إلى لعبة غريبة ومؤذية، لكنني قد

أثبتُّ أنني متفائل للغاية، حتى بالنسبة إلى هذا الأمر، فلو كنت محقا فإن نظرة إلى ما جرى خلال السنتين الأخيرتين، تبيّنُ إمكان أن أشير إلى حدث معيّن ومصيري لأقول: عند تلك النقطة انهار كل شيء وعُلق العمل بالقوانين. ولكنني لم أعثر على تلك اللحظة أو على أيما سبب على رغم تنقيبي عنه بجدية ولمدة طويلة. لهذا بدأ يداخلني إحساس بأن هذا الأمر قد لا يكون لعبة على الإطلاق، وأن ما يحدث الآن كان هناك منذ البداية. ولكنني كنت مغمض العينين ومشغولا جدا لألحظه. لكن السؤال الحقيقي الذي ما فتئت أسأل نفسي عنه هو... لم استمر في هذا بعد أن بدأت الأمور تتضح لي؟ لا أعرف. أنوع من التقصير هو أم ربما مجرد فضول مني لأرى إلى أين سيقود كل ذلك... ليس هو من اهتم له كثيرا، لكن ما يشغل تفكيري هو زملائي... أحد عشرمن المثقفين الأذكياء الذين رضوا بأن يحدث لهم ذلك، في الحقيقة قد انحرفوا عن مسارهم ليسمحوا بذلك، وهم حتى هذه الساعة لم يروا أو يتعلموا شيئا مع أنهم نخبة مجتمعنا وأمل العرق الأسود. أعتقد أن وجودي السخيف في موقع المراقبة هذا كان لأجلهم، ولأدون كتابات مضحكة في هذا السجل المجنون لسفينة اسمها الدولة، فلقد تحولت مرحلة انتهاء الافتتان بزملائي إلى ما يشبه الاهتمام بحالة مرضية، فلستُ أجد فقط أن تصرفاتهم قابلة لأن تطاق إلى الآن، ولكنني أجدها مثيرة أيضا، يا له من أمر عجيب أن يخطر لي أنني كنت مسؤولا عن اقتراح تعيين أكثر من نصفهم تقريبا!

تتطلب مني الأمانة التامة بالطبع أن أشير إلى سبب آخر لاستمرار بقائي، وهي حقيقة أخجل منها بعض الشيء، ومفادها أنني لم أكن لأكتب هذا لو لم أظل في هذا الموقع لأراقب كل شيء، ولن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة سواي.

كان باستطاعتي، ونحن نجلس متصلبين على الطاولة ذات الخشب الأحمر (ماهاغوني)، قراءة صمت عقولهم. كلمات مثل: إذا، سيكون هذا يوما آخر من تلك الأيام، وهم يعنون بذلك أنه سيكون يوما سيئا، فالأيام يمكن أن تصبح حسنة أو سيئة وفقا لمزاج فخامته عندما يغادر سريره في الصباح، ففي يوم سيئ مثلما أصبح عليه هذا اليوم فجأة بعد دلائل أولية تبشر بالخير، لا شيء تفعله سوى أن تربض بالقرب من حفرتك، جاهزا للارتماء بداخلها، وأن تغلق فمك على الأخص لأنه لا شيء آمن، ولا حتى التملق الذي صرنا خبراء في تمويهه كأسلوب نقاش.

جلس إلى يميني جناب وزير التعليم، وهو أكثر الحاضرين خوفا على الإطلاق، فما أن اشتم رائحة الخطر في الجو حتى بدأ يختفي في حفرته، كما تفعل بعض الحيوانات والحشرات وهي تتراجع إلى الخلف. بشكل غريزي شرع يلملم أوراقه وكان على وشك أن يغلق عليها غلاف الإضبارة ليجرجرها معه إلى حفرته عندما، وبصورة مفاجئة، تصلب جسمه بالكامل... قد تكون إنذارات قوية من أعماق غريزته نبهته إلى أوجه الشبه بين تصرفه الذي كان سيقوم به وصك الباب بقوة في وجه فخامته. وهنا حدث شيء مثير، فقد سقط منه وهو في حالة الذعر هذه غلاف

الإضبارة بطريقة مرتبكة، مما أدى بجميع الحاضرين إلى الالتفات صوبه ليشاهدوه وهو يقوم بأغرب أفعاله: بعثرة أوراقه الرسمية من جديد في إجراء تكفيري مرتبك يعد تعويضا عما كاد يبديه من عدم احترام، من دون قصد منه يطلق نظره حول الطاولة إلى أن تلتقي عيناه بعيني فخامته لتسقطا مباشرة على الطاولة. لم يقطع أحد حبل الصمت منذ تقدمت باعتذاري الثاني، ومن الواضح أن هذا المسكين (لم يُعرف عنه الأصالة في القيام بأي فعل) كان يجهّز نفسه لينطق بكلماتي نفسها، وتحديدا بالتسلسل نفسه. أُقسم على ذلك. جذب زنديه بقوة إلى جانبيه وكأنه يريد أن يُنقص من حجم جسده، ثم شبك راحتيه أمامه وكأنه يتضرّع.

لكن ما حدث أن فخامته هو الذي نطق، فلم يكلف نفسه حتى عناء مخاطبته، وكان لا يزال يوجه حديثه إليّ ويكاد يكون ودودا ومتصالحا. يا له من رجل عجيب! في هذه اللحظة بالذات يطرأ التغيّر على ذلك اليوم. تختفي الشمس الملتهبة خلف غيمة بصورة مؤقتة، لقد أرجئ تنفيذ الحكم بنا ونبدأ في الاحتفال على الفور. باستطاعتي توقع ما سيكون عليه شكل الإطراءات العديدة التي سنغمره بها بمجرد أن يدير لنا ظهره، عبارات مثل: مشكلة فخامته تكمن في عدم مقدرته على إيقاع الأذى بأي شخص ثم نسيان ذلك.

واحدة من الحسنات، بالمناسبة، لم نفقد هذه الدماثة على الإطلاق، فما أن يدير ظهره حتى يضيف أحدهم: يا للأسف، لأن ما تحتاجه هذه البلاد بالفعل هو دكتاتور قاس، على الأقل لخمس

سنوات كاملة ثم نطلق ضحكات مدوية حيث نعرف - مباركة قلوبنا العزيزة - أننا لن نحظى مطلقا بهذه النعمة غير المستحقة، وهي الديكتاتور القاسي.

قال، «هل تدرك ماذا تطلب مني، يا كريس؟» لم أقل شيئا أو أقم بأي حركة، ولا حتى برأسي. ففي مثل هذه اللحظات تسيطر على رأسي جاذبية الجرانيت، وعلى رغم أن تفكيري قد يظل منطقيا وفي غاية الوضوح، إلا أنه يبدو كأنه ينبعث من مكان بعيد مستقبلا هذه الأحداث عبر تلسكوب. ألاحظ أولا ما يعنيه من تجنبه لمخاطبتي بالسيد الوزير أو السيد أوريكو، ولكنني لم أعد أسمح لمثل هذا اللطف أن يُشتت انتباهي. أعتقد أنه أخطأ في فهم هدوئي على أنه موافقة أو عدم موافقة، ولم يكن أيا منهما. كان محض لا مبالاة من قبلي.

«تريدني أن أهين ذكاء هؤلاء الناس»، يقولها بنبرة هادئة ولكنها مغلفة بالتسلط، وعندما أهز رأسي ببطء يردف: «نعم، هذا بالضبط ما تريدني أن أفعل»، يقول بحماس بعد أن شجعته معارضتي الواهنة المنبعثة من جديد، «يؤمن هؤلاء الناس بصانعي المطر، وعليه دعنا نستثمر جهلهم من أجل الحصول على شعبية رخيصة، هذا بالضبط ما تريدني أن أفعل يا كريس. حسنا، لا أستطيع عمل ذلك. يبدو أن جميعكم ينسى أنني لا أزال جنديا ولست برجل سياسة».

كان يرتدي الملابس المدنية، و هو ما يحب أن يفعله أكثر فأكثر داخل حدود القصر الرئاسي: بدلة دانشيكي بيضاء مزخرفة بعناية بخيوط ذهبية، وكذلك السروال (البنطال). على النقيض

فالعديد من زملائي وخاصة أساتذة الجامعات يتوقون إلى الهيئة العسكرية، فالبروفيسور أوكونج لا يرتدي إلا ملابس السافاري المصنوعة من الكاكي، كاملة بالكتفيات. عجيب كيف يحسد المثقفون هؤلاء العسكريين.

أعتقد أن فخامته قد لاحظ شبح ابتسامة ارتسمت على وجهي عند تذكيره لنا بأنه لا يزال جنديا، فلديه موهبة فائقة في قراءة الوجوه، وألاحظ تردده قليلا بين محاسبتي على هذه الابتسامة أو تجاهلها، ولكنه لم يقم بأي منهما بل قام بشيء غاية في البراعة. ركز نظره عليّ ومع ذلك تمكن في الوقت نفسه من أن يبين لي بصوته أنني مستثنى مما سيقوله الآن، وأن كلماته أثمن كثيرا من أن يضيعها على منشقين محترفين من أمثالي.

قال بتحد «يتميز العسكريون بالوضوح والصراحة. وعندما نسلم مقاليد السلطة لكم، ونعود إلى ثكناتنا، فسيمكنكم حينئذٍ أن تستأنفوا ألاعيبكم المدنية. اصبروا قليلا».

عند هذه النقطة قوطع من قبل وزير العدل والنائب العام ثم تلاه بقية الحاضرين باحتجاجات مختلفة. في الحقيقة كانت كلمات فخامته المختارة بعناية هي التي أعطت الإشارة إلى هذه المقاطعة الشجاعة، فعلى رغم القوة الواضحة في صوته إلا أن الكلمات نفسها بدت كأنها تعطي لنا تصريحا بأنه يمكننا الآن أن نبدأ سيل احتجاجاتنا، وعليه بدأنا في الزحف من حُفرنا إلى الخارج من جديد، بهذه الطريقة نفسها يقول النائب العام: «فخامة الرئيس، لا يجب أن نتباهى Flaunt برغبات الشعب».

قلت له: «تعني نستهزئ Flout».

«الشعب؟» تساءل فخامته متجاهلا ما قمت به من فذلكة.

«نعم يا فخامة الرئيس»، أجاب النائب العام بجرأة «لقد قال الشعب كلمته، ورغبة الشعب جلية واضحة، لقد حكم عليكم بأن تخدموه مدى الحياة». صوت هتاف عال، وصيحات مثل «السمع! السمع!» بينما تتنافس أصوات عديدة على حق الكلام.

«لست برجل قانون» يقول فخامته، بينما تنجح نبرته المرتفعة قليلا في إخماد المنافسة المحتدمة بين الأصوات «ما أنا إلا جندي بسيط، وعلى الجندي أن يبرّ بوعده».

«ولكنكم، أرجو المعذرة، أقصد فخامتكم، لا يمكنكم النكوص عن وعدٍ لم يصدر عنكم مطلقا، إن هذا الهراء حول نسبة المائة في المائة لا يعدو أن يكون مكيدة محرر صحيفة هو في نظري عبارة عن مخرّب»، أعلن صوت البروفيسور أوكونج الموقر مدويا «ليس هناك أي التزام من طرفكم يا صاحب الفخامة، ويمكنكم الوفاء بالوعد بشتى الطرق».

«نقطة نظام، يا صاحب الفخامة» ينظر إلي شزرا ثم يشير إلى النائب العام الذي قُوطع من قبلي ومن أوكونج بأن يواصل حديثه.

«يا صاحب الفخامة، ثلاث مقاطعات من أصل أربع تعتبر أغلبية في كل مكان من العالم». المزيد من الهتاف والتصفيق.

«صاحب الفخامة، أود أن أنأى بنفسي عن إشارة النائب العام إلى مخرب ما، وأطالب زملائي بألا يدلوا بأي أقوال ضد موظفين رسميين لا يوجدون معنا الآن للدفاع عن أنفسهم». أسعدتني نظرة الرعب التي بانت على وجوه زملائي عندما نطقت بكلمة «أنأى»، ثم الارتياح الذي أعقب ذلك عندما تبين لهم أنني لم أكن أقول ما

ظنوا أنني بصدد قوله. حتى فخامته فقد توازنه قليلا، ولكن خلافا للآخرين، فإن معرفته بأنه قد سُخر منه لا تمنحه الراحة ولا السلوى، على العكس فهي تملأه بالغضب. يلتفت بحدة إلى يمينه حيث يجلس رئيس الوزراء على طرف كرسيه. «هل ثمة شأن آخر؟» لم يعد يقولها هذه المرة بصيغة محايدة، بل كانت نوعا من التوبيخ، شيء مثل... كم مرة تريدونني أن أوجه هذا السؤال؟

أدى التقارب غير المتوقع للأزمة وتأثيرها على فخامته إلى ارتباك كبير لرئيس الوزراء، مما جعله يهذي بكلام غير واضح: «أوه، لا، يا سيدي، لا شيء على الإطلاق، يا صاحب الفخامة» ثم ينظر عبر الطاولة وتلتقي عيوننا. لا أحب أن أتفاخر كثيرا بذلك ولكنني أعتقد أن الابتسامة الساخرة المرتسمة على وجهي في تلك اللحظة قد جعلت هذا البيروقراطي يشيح بوجهه بعيدا. ربما رأى في وجهي نذير تلويح بسخرية مهينة تنتظره للإيقاع به خلف أبواب القلعة الضخمة هذه. إنه حساس للغاية تجاه الاتهامات بالتملق خاصة عند صدورها مني، لأنني أعتقد أنه يحترمني كثيرا. وبشكل ما فأنا أيضا لا أكرهه. لأنه بعد كل شيء، مختلف عنا، فهو موظف قديم كان من المفترض أن يعمل تحت إمرة رئيس مدني... أو حاكم بريطاني، وها هو الآن في خدمة صاحب الفخامة، ولكن مهما يكن الشيء الذي دفعه إلى القيام بذلك فهو يُظهر الآن تصرفا غير معتاد منه، ويعد هذا الأمر بالنسبة إليه نوعا من التهور. من جديد يلتقط كلماته التي ضاعت منه.

«ولكن، يا صاحب الفخامة، إذا كان بإمكاني أن - أأأأأطلب غفرانكم أأأأأعني غفران فخامتكم وأأأأأقول كلمة لجناب الوزير».

«أي جناب وزير تعني؟ كما تعرف فهناك اثنا عشر منهم». كان يمكن لهذا التعليق في أوقات أخرى غير هذه أن يثير عاصفة من الضحك، لكن ما يحدث حاليا شيء مختلف تماما ونحن في غاية العجب.

«أقصد وزير الإعلام، يا صاحب الفخامة». وتبع ذلك صمت طويل مبهم. ثم قال فخامته - الذي يجب أن أعترف ببراعته في مثل هذه المواقف -: «إنه لا يحتاج إلى كلمة منك، تذكر أنه يملك كل الكلمات في هذه البلاد - صحف، راديو، محطات تلفزيون...» شملت جلجلة الضحك التي انطلقت بعد ذلك جميع الحاضرين، ووضعتنا في حالة من الاسترخاء من جديد. طفق بعض الزملاء الجالسين بقربي في الضحك وطبطبت أيديهم على ظهري، بينما أرسل المقابلون لي مشاعرهم الطيبة عبر الطاولة.

«جناب وزير الخطب»، أخرج النائب العام كلماته من وسط نوبة ضحك وهو يمسح في الوقت نفسه عينيه بمنديل مطوي بعناية». «ممتازة هذه! وحق الرب إنها نكتة بارعة!».

اعترض وزير الأشغال قائلا: «أعترض! لأن ذلك يبدو شبيها بمنصبي».

«هذا صحيح». يقول النائب العام ممسكا بضحكته قليلا ليتمكن من التعليق «وزير الخطب ووزير الأشغال. لديك وجهة نظر هنا».

«من الناحية اللاهوتية هناك فرق واضح بينهما». كان هذا البروفيسور أوكونج بصوته الواعظ العميق.

قال وزير التعليم: «آه، هذه نكتة جيدة، يا بروفيسور». كانت السعادة تغمرنا جميعا. لو أن الاجتماع ينتهي الآن لكننا ذهبنا إلى

بيوتنا سعداء للغاية - من حق أصحاب العائلات من بيننا إجابة زوجاتهم بابتسامة عريضة عندما يسألنهم كيف كان يومهم - ولكن للأسف لم ينته منا فخامته بعد.

«بالمناسبة، ماذا كنت تريد أن تقول لوزير الإعلام؟».

«الموضوع - بأسلوب متعثر - يتعلق بالزيارة إلى أبازون، يا صاحب الفخامة».

«في هذه الحالة يعتبر هذا الاجتماع مؤجلا». ثم ينهض بشكل مفاجئ. كانت الضوضاء الناتجة عن محاولاتنا النهوض بسرعة تلائم جمعا من مصلين تؤلمهم ركبهم، وينهضون بفظاظة بمجرد انتهاء قس ثرثار من إلقاء موعظته.

يجلس فخامته من جديد ويميل إلى الخلف بهدوء على كرسيه الدوار، باحثا تحت الطاولة عن حذائه الذي عادة ما ينزعه في بداية اجتماعاتنا، وغالبا ما يقوم رئيس الوزراء مستعملا قدميه، ومن دون تطفل منه، بترتيب وضع نعلي فخامته جنبا إلى جنب، مُوفرا بذلك عليه عناء البحث عنهما لمدة طويلة بعد انتهاء الاجتماع. إذا كان فخامته على علم بهذه الخدمة البسيطة فهو لا يبين ذلك مطلقا، بل يتقبلها كأمر مسلم به مثل تنظيف حذائك الذي يقوم به صبي الخدمة في فندق فخم.

ينظر إلى الأرض بتأن مقصود ويرتدي حذاءه الأيمن، ثم ينظر إلى الجهة الأخرى ويرتدي حذاءه الأيسر. يتغاضى كلية عن الحيوية المفرطة التي نهض بها في المرة الأولى، ويرفع نفسه بتثاقل بالاتكاء على مسندي كرسيه. العجيب في الأمر أن أسلوبه البطيء الحالي، وخفة الحركة التي سبقته هما جزء من شخصيته.

نقف جميعا بلا حراك، الصوت الوحيد في الغرفة هو الصادر عن حركته، وضجيج مكيفات الهواء الذي يلفت الانتباه في ظل الصمت الذي يخيم على الوزارة الموقرة، التي تنتظر بشق الأنفس أن يقـوم رئيسـهـا، وفي الزمن الذي يلائمـه بارتداء نعليـه والانسحاب إلى العزلة في جناحه الخاص الملاصق.

يقول لنا أحيانا عندما يغادرنا «طاب يومكم أيها السادة»، وبطبيعة الحال لم يقل لنا اليوم شيئا. وبينما كان يغادر كرسيه قام أحد الحُجاب بتجميع أوراقه بسرعة ثم تبعه إلى الخارج. وقام حاجب آخر جامد القسمات بفتح الأبواب الثقيلة، ثم تنحى جانبا وأدى له تحية طويلة حرص أثناءها على ترعيش يده.

قال رئيس الوزراء محاولا كسر الجمود «مزاجه ليس رائقا اليوم وسنحاول مرة أخرى يوم الخميس القادم. لا تقلق يا كريس».

كان واضحا مقصده في أن يستمع فخامته إلى تلك العبارة، وأعتقد أنه سمعها، فعندما نظرت إلى رأسه من الخلف رأيت ابتسامة أو شبح ابتسامة مثل أثر الضوء الخافت الذي يظهر على حواشي الخسوف.

في المراحل الأخيرة لانسحاب فخامته بدأ الصمت في غرفة مجلس الوزراء يأخذ شكلا جديدا. شيء آخر تداخل معه وأخذ في التنامي ببطء. في البداية ظننت أن صوت المكيفات قد أصبح أعلى بنسبة بسيطة، وهو ما يتسق تماما مع توليد الطاقة لمؤسسة الكهرباء الوطنية التي يصعب التنبؤ باستقرارها، ثم كانت ملاحظة رئيس الوزراء والمحادثة التي أعقبتها حول مزاج فخامته، حيث منعنا كل ذلك من ملاحظة الضجيج لبعض الوقت. اقترب النائب العام من مقعدي وربت برفق على كتفي قائلا:

«ما قصتك يا كريس؟ ولماذا أنت متوتر هذه الأيام؟ استرخ يا رجل استرخ، فالعالم غير مقدم على نهايته كما تعرف».

كنت غضبانا ولكنني كنت أصد عروض السلام التي يقدمها بصمت حين - وكأننا تلقينا إشارة ما - توقف كل من في الغرفة عن الكلام، ثم استدرنا جميعا نحو النافذةالشرقية.

«أهي عاصفة؟» سأل أحدهم.

لم يكن يبدو على السور المنخفض من شجيرات الخبّازي خارج النافذة بزهوره الكثيرة الحمراء اللامعة أي حركة. أما في الساحة ذات المسطحات الإسمنتية وعشب الباهاما المقصوص بعناية في الفرج التي بينها، فلم يظهر تطاير أوراق أشجار في الجو أو غبار. خلف الساحة توجد مساحة أخرى من العشب وسور شجيرات بلون أحمر يحمي الدور الأرضي للجناح الشرقي من القصر الرئاسي. من فوق المبنى يمكن رؤية أعالي أشجارالنخيل الواقعة خلفه على البحر، تتمايل بالكسل نفسه والسهولة التي تقابل بها الرياح المحيطة الهادئة.

يتحرك رئيس الوزراء الذي تظهر نباهته في حضور صاحب الفخامة فقط إلى عتبة النافذة، يفك العتلة ويفتح النافذة الزجاجية، وعندما يندفع العالم إلى جو غرفة المجلس محمولا على موجة حرارة وأصوات حشود ترتل أهازيج، في الوقت ذاته يهرع فخامته إلى داخل الغرفة مخلفا وراءه الأبواب الضخمة تتأرجح.

يتساءل بهياج شديد «ما الذي يجري؟».

«سأذهب لأتحقق، يا صاحب الفخامة» يقول المفتش العام للشرطة وهو يلتقط غطاء رأسه من فوق الطاولة ويضع عصاه تحت إبطه ثم يؤدي التحية العسكرية.

يقول فخامته هازئا: «انظروا إليه! يا سادة، هذا هو رئيس شرطتي، يقف هنا يتبادل الشائعات في الوقت الذي يقتحم فيه الرعاع القصر الرئاسي، وليس لديه أدنى فكرة عن الذي يحدث. اجلس! أيها المفتش العام للشرطة!».

يلتفت إليّ «هل تعرف شيئا عن هذا؟».

«متأسف، يا صاحب الفخامة لا أعرف شيئا».

«رائع، رائع بالفعل. والآن هل بإمكان أحد أن يخبرني عن ذلك الحشد الذي يصرخ في الخارج؟» ينظر إلى كل منا بالدور. لا أحد يتحرك أو يفتح فمه. «هذا ما أعنيه عندما أقول ليس لدي مجلس وزراء، هل بإمكانكم الآن رؤية ما الذي أعنيه؟ اجلسوا أيها السادة وابقوا في أماكنكم!» ثم يهرع إلى الخارج ثانية.

عند الباب يحييه الحاجب ذو الأيدي المرتعشة.

ربما كانت الطريقة التي أقفل بها ذلك الرجل الأبواب الثقيلة مثل سجان، أو ربما حركة ماكرة أخرى منه، أو هي إيماءة ما، قام بها بوساطة الرشاشة اليدوية التي يحملها في يده اليسرى أدت بالنائب العام إلى سحب آهة عميقة بائسة: «آه. يا إلهي!». اختلقت ابتسامة عريضة وأطلقتها في وجهه، فتراجع مبتعدا عني كأنه يهرب من مجنون يتسم بالعنف.

لم تتبادل كلمات كثيرة في نصف الساعة التالية، وعندما فتحت الأبواب مرة أخرى صاح أحد الحجاب: البروفيسور أوكونج مطلوب من قبل فخامته.

«سأذهب لأجهز مكانا لكم أيها السادة... ولكن اطمئنوا سأحتفظ بالزنزانة الأكثر راحة لنفسي». وغادر الغرفة ضاحكا.

أنا أيضا بدأت بالضحك بطريقة لافتة للنظر، ثم قلت لزملائي: «هذا هو الرجل الذي أحترم. رجل لا يتبول في سرواله عند أول إشارة خطر». ثم ذهبت إلى أبعد نافذة ووقفت عندها أتطلع إلى العالم الخارجي. وعلى رغم أن البروفيسور أوكونج يعد مهرجا، فإنه محارب من عدة نواح، وهو عصامي بالكامل. ومما يؤسف له أن ليس لديه أي أخلاقيات سياسية، ويعد ذلك مأساة مضاعفة لرجل بدأ عمله كقس معمداني أمريكي، وأصبح فيما بعد أستاذا للعلوم السياسية في جامعتنا. قد تكون المسؤوليات التي يضطلع بها أكثر من مسؤوليات أي فرد آخر، عدا شخصي فيما أقوم به من إذعان استثنائي لفخامته، ولكن ربما كان قصده نبيلا أيضا مثلي، فلم يكن أي منا موجودا قبل ولادة أو تربية ذلك الطفل الوحش.

كمعلم ماهر للتلاميذ في المدرسة الابتدائية، اجتذب ريجنالد أوكونج اهتمام المبشرين المعمدانيين الأمريكان من أوهايو، الذين كانوا منهمكين في حملة تبشيرية متأخرة ولكن عنيدة في منطقته. تنبأوا له بمستقبل باهر ورسموه كاهنا في سن السادسة والعشرين. وبعقليتهم التي تماثل طريقة «كتاب جينيس للأرقام العالمية»، كانوا يطلقون عليه أصغر قسيس معمداني أمريكي في العالم، أمريكي الأصل؟ كلا بحق السماء! بل أفريقي الأصل. ولكن، بينما هم يهيئون أوكونج بضمير حي وببطء ليصبح بالتأكيد الرئيس المقبل لكنيستهم المحلية بعد عشرين إلى ثلاثين سنة، فقد كان الكاهن الشاب يعمل على خطط خاصة به، وإحداها أن ينتقل بالكامل من حقل التبشير إلى حرم الجامعات العلمانية للجامعة

الجنوبية للسود في الولايات المتحدة نفسها، فأدى ذلك إلى استغراب الذين يرعونه في أوهايو ولم يتوقفوا عند اتهامهم له بعدم الامتنان، بل انخرطوا في حملة محمومة مع مؤسسات الهجرة الأمريكية بهدف ترحيله، لكنه كان عنيدا وتغلب على جميع الصعاب التي قابلته. كان يحسّن إمكاناته البسيطة عن طريق القيام بالوعظ وممارسة المصارعة، وتخرج في وقت قياسي عندما اجتاز المستوى الثالث لشهادة المعلمين وعادلها بمدة عامين في المعهد، ثم عاد إلى الوطن بعد ذلك بأربع سنوات حاملا شهادة الدكتوراه في حقيبته. وذهب للتدريس في الجامعة.

كنت في ذلك الوقت أشغل منصب مدير التحرير في الصحيفة الرسمية (الجازيت)، وفاتحني برغبته في كتابة مقال أسبوعي عن الأحداث المحلية. لم أكن متحمسا للفكرة كثيرا، وعلى رغم أنني كنت على علم بالتحفظات الكثيرة التي سرعان ما أدلى بها بعض زملائه من الأكاديميين حول شهادته العلمية، إلا أنني استمررت في الترويج له كأحد أشهر علماء السياسة الأفارقة، كما يفعل المحررون دائما ظنا منهم أنهم يقومون بذلك من أجل صحيفتهم، ولكنهم يكتشفون أنهم في الحقيقة يتبنون طفلا غير سوي. لكن لا بد من القول أن أوكونج كان متعاونا مثاليا بالنسبة إلى الوفاء بالتزاماته وأشياء أخرى مشابهة، وأصبح عموده الثابت «اتفق مع ريجي أوكنج» مشهورا بعد أن حصد شعبية كبيرة في وقت قصير. لم يدَّع أحد أنه يقدم أي حلول مثيرة للإعجاب تدل على نفاذ البصيرة أو الحكمة أو الأصالة، ولكن لديه مقدرة عجيبة على تغيير شكل الجملة لإمتاع قرائنا العاديين. كان مملوءا بالصيغ

المبتذلة (الكليشيهات)، لكن الكليشيه ليست مفيدة إذا لم تكن سمعته من قبل. ولم يكن قراؤنا المعتادون قد سمعوا بعضها من قبل، وعليه فقد كانوا مستعدين لاستقبال كل كليشيه بالنشوة نفسها التي قد يكون أحدثها عندما ذُكر للمرة الأولى، لأن الكليشيه لا يعدو إلا أن يكون بهجة وقتية غير حقيقية، بمعنى أن يخرج شخص ما للمرة الأولى ليقول: «لا يجب هدهدتنا بحس زائف بالأمن»، فلا بد من أن يجعل ذلك القراء حائرين، وهكذا الأمر دائما مع أوكونج، فقد كان مثل الأغنية الشعبية الشائعة. كان صديقي «آيكم أوسودي» يلومني دائما لسماحي بنشر هذا العمود، وقال إن البروفيسور أوكونج يستحق الشنق وتقطيعه إلى أربعة أجزاء لتلاعبه بالجمل ومخالفات تزوير أخرى، ولكن أيكم كان أديبا فنانا وصحيفة الجازيت لم تكن لإشباع رغبات أمثاله حتى في هذه اللحظة وهو يجلس على كرسي التحرير، وهي حقيقة لم يعها بعد.

بالطبع لم يقم أوكونج بإزعاج السياسيين، وكل ما فعله أنه كان يسلي ناخبيهم. لم أمانع أيضا فلدي العديد من الكتاب في الصحيفة، الذين يقومون بكل أعمال الإزعاج المطلوبة، والكثير من غير المطلوبة. لكن في اليوم التالي مباشرة للانقلاب على السياسيين، تغير أوكونج بصورة صارخة وتحول إلى محلل بارع لتجاوزاتهم الكثيرة، وقد ظننت أنه قد تعدى الحدود واستهلك نفسه بعدما غير من لهجته بحدة، لكن قرّائي لم يروا الشيء نفسه، وقد اتضح ذلك من رسائلهم المثيرة، حيث يبدو أنه قد سجل خبطة صحافية أخرى عندما وصف قلب نظام الحكم

المدني بأنه: «سقوط تاريخي من العلياء إلى البطحاء» بعد ذلك نزعت له قبعتي اعترافا بمهارته، وعندما طلب مني فخامته أن أقترح عليه ستة أسماء كأعضاء في حكومته، كان البروفيسور أوكونج على رأس القائمة.

يتطلب ذلك شرحا وتبريرا من قبلي، فقد تسلم فخامته الحكم من دون إعداد مسبق لقيادة البلاد سياسيا، ولأنه شخص ذكي جدا فقد كان ملما بهذه الحقيقة، التي ما كان يجب أن تفاجئ أحدا، فبعد كل شيء لم تكن كلية ساندهيرست لتدرّب الضباط للاستيلاء على عرش جلالتها، بل على الابتعاد بكبرياء عن السياسة والأمور العامة، ولذلك عندما حدث لساستنا المدنيين ما حدث لهم، وسقطوا فوق كوم من القمامة غير محبوبين أو مأسوف عليهم، وعندما دُعي ذلك القائد العسكري الشاب من قبل أعضاء قيادة الانقلاب ليصبح صاحب الفخامة، رئيس الدولة، لم يكن لديه سوى أفكار قليلة حول ما يتعين عليه عمله، فتصرف كأي شخص ذكي. استدعى أصدقاءه وقال: «ماذا يجب أن أفعل؟».

آنذاك كنت قد عرفته لما يقرب من خمس وعشرين سنة، منذ ذلك اليوم البعيد عندما تقابلنا للمرة الأولى في كلية اللورد لوجارد كفتية جدد، تبلغ أعمارهم بين ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاما، وعليه فقد وجدت نفسي أقدم النصح لـ «رئيس دولة بأسرها»، والذي، بالإضافة إلى ما تقدم، يكاد يكون مذعورا من وطأة منصبه. ذلك أمر لم أتمكن من فهمه مطلقا، فلماذا يجد العسكريون وهم مدججون بالسلاح حتى نواجذهم، خطورة من

جانب المدنيين العُزل. وبالنسبة إلى فخامته فإن ذلك لم يكن إلا مرحلة عابرة، إذ سرعان ما سيطر على خوفه، مع أن ذكريات منه تعاوده بين الفينة والأخرى وتعرضه للعذاب، ولست أرى أي تفسير لخوفه المبالغ فيه من التظاهرات، كمثال. ولا يستثنى منها حتى التظاهرات الخانعة والمسالمة حتى القرف.

في أيام حكمه الأولى كان كابوسه الدائم، هو تحول الناس ضده وعدم حبهم له، وقيامهم بتظاهرات عنيفة في كل مكان، وكاد يدفع نفسه إلى الجنون من القلق حول كيفية التصدي لذلك. لم يكن لدي فكرة محددة، ولكنني تخيلت أن شخصا مثل البروفيسور أوكنج، ومن دون أن تكون لديه فكرة أوضح مما لدينا، سيكون مفيدا لنا في وضع أي أفكار تخطر على بالنا بأسلوب فني، وللاستهلاك الشعبي.

لكل ذلك كان البروفيسور أوكونج يحتل الرقم الأول على قائمتي، وقد عينه صاحب الفخامة وزيرا للداخلية. حصل على بغيته ثم دخل فيما بعد في مرحلة خسوف جزئي، لكنني لا أعتقد أن الوقت قد حان لدخوله السجن.

الجزء الثاني

هدأ قلق فخامته العميق من قبل الشاب البارع المثابر مدير المجلس الوطني للبحوث «م.و.ب»، وكما قال فخامته: «لقد أثبت مرة أخرى أنه شخص فعال بالقدر نفسه الذي فيه الوزارة فاشلة»، فكل إجراء من قبل هذا الرجل الذكي، منذ يوم تعيينه يعطي لفخامته سببا لتهنئة نفسه، لأن الميجور جونسون أوساي كان هو اختياره الشخصي، حيث أصر على تعيينه في وجه معارضة قوية من الضباط الأقدم. حدث ذلك في وقت حرج للغاية عندما قرر فخامته إحالة جميع أعضاء وزارته من الضباط إلى التقاعد، وعين مدنيين بدلا منهم، وفوق ذلك أضاف لقب الرئيس إلى ألقابه العديدة. كانت هناك إشاعات غير مؤكدة عن اضطرابات في المعسكرات، ومحاكمات سرية، وإعدامات. ولكن فخامته ركب العاصفة بكل يسر، ويرجع الفضل في ذلك إلى تعيينين مهمين قام بهما شخصيا رئيس أركان الجيش، ومدير المجلس الوطني للبحوث والشرطة السرية. لهذا عندما اقتيد البروفيسور أوكونج من قبل ذلك الحاجب البغيض، وجد فخامته يتمتع بمزاج قوي وواثق من نفسه.

«طاب يومكم، يا سيادة الرئيس وصاحب الفخامة». ترنم البروفيسور بتلك الكلمات وهو ينفذ في الوقت نفسه انحناءة بزاوية قائمة.

لا إجابة أو أي اعتراف بوجوده، واستمر فخامته في الكتابة في سجل مذكراته لدقيقة كاملة قبل أن يرفع رأسه متحدثا بحدة، كأنه يخاطب متطفلا يود التخلص منه بأقصى سرعة.

«نعم. أريد منك الذهاب إلى قاعة الاستقبال لمقابلة الوفد المنتظر هناك... حسن، اجلس!» «أشكر فخامتكم».

«أظن أنني يجب أن أبدأ بتعريفك بهم، وماذا يفعلون هنا، إلى آخره... إلا إذا اكتشفتم، وبأعجوبة، ذلك بعد مغادرتي لكم».

«كلا يا سيدي، لم نفعل، أنا آسف».

«حسن جدا سأخبرك إذن، ولكن قبل ذلك أود تذكيرك بالحوار القصير الذي تبادلناه جميعا بعد الغارة على مطار عنتيبي أتتذكره؟ لقد قلتم جميعا يا له من عار على أفريقيا، هل تتذكر».

«أتذكر يا صاحب الفخامة».

«عظيم. كنتم جميعا مليئين بالسخط، وهو سخط مبرر أخلاقيا، ولكن هل تذكر على أي حال ما قلته لكم؟ لقد قلت إن ذلك يمكن أن يحدث هنا في هذا المكان».

«نعم لقد قلتم ذلك يا سيدي. أتذكر ذلك جيدا».

«وقلتم جميعا: أوه كلا يا صاحب الفخامة، لا يمكن أن يحدث ذلك هنا (الطريقة التي قالها بها وهو يقلد ساخرا شخصا أبله يعاني صعوبة في النطق، كان من الممكن أن تضحك جمهورا أكبر لو أن ذلك حدث في لحظة أقل خطورة»

اعترف البروفيسور أوكونج «نعم يا صاحب الفخامة، جميعنا قال ذلك ونحن في غاية الأسف». لم يكن واضحا لديه علاقة ما سمعه بالوضع الراهن أو نوع الإجابة المطلوبة منه، وعليه فإنه كرر ما قاله سابقا «نحن في غاية الأسف يا صاحب الفخامة».

«لا يهم أن تعرف أنني لم أعتمد عليكم مطلقا للحصول على معلومات عن أي شيء، أو أي شخص. أنت تعرف ذلك»؟.

«نعم يا سيدي».

«سأكون مغفّلا لو اعتمدت عليكم. كما ترى لو أن غارة عنتيبي حدثت هنا، سأكون أنا أضحوكة العالم. أليس كذلك؟».

رأى البروفيسور أن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب حذرا ما، ولذلك أصدر صوتا عميقا مبهما من قاع حنجرته.«نعم سيضحكون علي أنا، سينعتونني بالجنرال الثرثار، ويضعون صورتي على غلاف مجلة «تايم» بفم كبير ورأس صغير. هل تفهم؟ لن يتحدثوا عنك. أليس كذلك»؟.

«بالطبع لا يا سيدي».

«لا. لأنهم لا يعرفونك. إنها جنازتي أنا، وليست جنازتك». لم يرتح البروفيسور للفظ جنازة وبدأ في الاحتجاج، ولكن فخامته أسكته برفع يده اليسرى، «ولهذا أتخذ كل احتياطاتي ولا أعبث أبدا، هل تفهمني؟».

«نعم يا سيدي. مرة أخرى، هل يمكنني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن زملائي أن أقدم لكم - أعني لفخامتكم - اعتذارنا غير المستحق أعني اللامحدود».

بدأت الآن مرحلة صمت طويل، مثل ذلك الذي يخيم على الرفاق عند سقوط أحدهم في الميدان، كان فخامته مستثارا ويحتاج إلى وقت ليستعيد هدوءه. أخرج منديلا ومسح بقوة على وجهه ورقبته تحت الياقة، بينما كان البروفيسور أوكونج يحدق في سطح الطاولة منكسا عينيه، مثل العلم المنكس في منتصف السارية.

قال بهدوء وحزن: «الجمهور الذي قدم منذ حوالى الساعة، هو من أبازون».

قال أوكونج مبديا هوجة من النقمة: «هؤلاء القوم مرة أخرى! أنفسهم الذين يضايقونك من أجل زيارتهم».

«إنه وفد مسالم، ومن المخلصين حسنو النوايا....»

«أوه، أنا سعيد جدا لسماعي ذلك».

«... الذين أتوا كل هذه المسافة من أبازون لإعلان ولائهم».

«جيد جدا، يا سيدي. جيد جدا! ويجب القول إن الوقت قد حان للقيام بذلك...» توقف البروفيسور عن الاستمرار في ثرثرته التي بدأها من جديد بعد أن عبس فخامته فجأة وبعنف.

«لكنني أبلغت أنهم ربما يحملون أيضا عريضة تتعلق بحالة الجدب التي تمر بها منطقتهم. إنهم يرغبون في دعوتي بصورة شخصية لزيارته والاطلاع على مشاكلهم. حسن، أنت تعرف - والجميع يعرف - موقفي من العرائض والمظاهرات ومثل هذه الأمور.»

«أعرف يا سيدي. كل مواطن مخلص في هذه البلاد يعرف موقف فخامتكم...»

«لا تعدو هذه الأمور كونها مؤشرات على انعدام الانضباط، اسمح ولو بقليل منه، من قبل أي جهة، فتصبح كما الغريق».

«تماما، يا صاحب الفخامة».

«مع ذلك، فهذا وفد من المخلصين كما قلت لتوي، وقد قدموا من مكان بعيد. لكن الانضباط هو الانضباط، وإذا ما وافقت على مقابلتهم فما الذي سيمنع سائقي العربات اليدوية في سوق جيليجلى من المسير إلى هنا غدا لمقابلتي؟ إنهم مخلصون مثلهم، أو يمنع نقابة عاملات السوق المخلصات للغاية من القدوم إلى هنا للتذمر من أسعار الأسماك المجمدة المستودرة من النرويج».

انطلق البروفيسور في ضحكة عالية ولكن بمفرده، ثم توقف بصورة مفاجئة كالمجنون.

«ولهذا لدي إجابة ثابتة للجميع وهي لا! كابيسا».

«ممتاز يا صاحب الفخامة». ربما خطر على بال البروفيسور أوكونج بسرعة أن الرجل الذي يلقي عليه محاضرة الآن كان منذ وقت غير بعيد أقل شأنا منه، أو ربما لم يعد يجرؤ على تذكر ذلك.

«لكن لا بد من أن نتذكر أنهم ليسوا من نوعية المثقفين المولعين بتدبير المكائد أمثالكم، أو مجموعة من نشطاء اجتماعات حزب العمال، ولكنهم فلاحون شرفاء في غاية البساطة، ومن خلال التقارير الاستخبارية التي تصلني فهم نادمون بجدية على أفعالهم السابقة ويطلبون الصفح ونسيان الماضي، ولهذا لن يكون من العدل أن تذهب إليهم وتقول: بإمكانكم العودة الآن، فإن فخامة الرئيس مشغول للغاية ولا يمكنه رؤيتكم. هل فهمتني؟».

«بكل وضوح! يا صاحب الفخامة» بدا أوكونج يعرف سبب استدعائه هنا، وبدأت الثقة تعود إليه.

«لهذا أرسلت في طلبك. عليك أن تجد كلمات لطيفة لتقولها لهم. قل لهم إننا مشغولون في هذه اللحظة بأمور مهمة للغاية تتعلق بالدولة، تعرف كلاما من هذا النوع..»

تماما، يا صاحب الفخامة فهذا هو تخصصي.

«أخبرهم إذا أحببت، إنني مشغول على الهاتف مع رئيس الولايات المتحدة الأميريكية، أو مع ملكة إنجلترا كما تعرف، فعادة ما ينبهر الفلاحون بمثل هذه الأمور...»

«جميل، يا صاحب الفخامة، جميل».

«ما أقوله لك هو أن تسايرهم. قس درجة الحرارة ووصل رسالتك وفقا لذلك».

«سأفعل يا صاحب الفخامة، أنا في خدمتكم دائما».

«وإذا كانوا أحضروا معهم عريضة بالفعل، فتقبلها منهم نيابة عني، وقل لهم أن يطمئنوا أن شكاواهم، أو بالأحرى مشاكلهم ستحظى باهتمام فخامته شخصيا. وقبل أن تذهب اطلب من وزير الإعلام أن يبعث بأحد المراسلين، ومن رئيس المراسم أن يكلف أحد المصورين الرسميين بالتقاط صورة لك وأنت تصافح رئيس الوفد، ولكن بحق الرب يا بروفيسور أريدك أن تنظر إلى الرجل الذي تصافح وليس إلى آلة التصوير...»

انطلق البروفيسور أوكونج في ضحكة مدوية.

«لست أجد الأمر مسليا عندما يصافح الناس هكذا... بينما أعناقهم ملوية بزاوية قائمة مثل تلك الفتاة في فيلم «طارد الأرواح» التي تلوي عنقها، بينما تكشر في وجه آلة التصوير...»

«فخامتكم لست قائدنا فقط بل معلمنا أيضا، ونحن على استعداد دوما للتعلم منكم، وكما يقول آباؤنا في صلواتهم، فنحن مثل الأطفال الذين لا يغسلون إلا بطونهم».

«ولكن مهما تفعل، فيجب أن تتأكد أن لا شيء حول العرائض يصل إلى الصحافة. لا أريد أن أرى أي أحاديث عن الشكاوى، والعرائض في الصحف، فهذه بكل وضوح وبساطة زيارة ودية».

«تماما إنه عرض مصالحة من مواطني فخامتكم المتمردين سابقا».

«لا لا لا! لا أريد ذكرا لهذا الموضوع. لنتركه جانبا».

«ولكنك غاية في الكرم يا صاحب الفخامة، غاية في الكرم ونصف، لماذا كل شيء سيئ في هذه البلاد يبدأ من مقاطعة أبازون؟

لقد بدأ التمرد هناك، وهم الوحيدون الذين لم يقم قياديوهم بمبايعة فخامتكم بالكامل.لا أريد أن أبدو قبليا، ولكن السيد «آيكم أوسودي» هو المسبب لكل هذه المشاكل لأنه أبازوني متعصب. أعتذر لخوضي في أمور شخصية يا صاحب الفخامة، ولكن يجب مواجهة الحقائق. إذا سألتني يا صاحب الفخامة فإن عين الله لا تنام. كيف نعرف أن ذلك الجدب الذي يعانونه هناك ليس عقابا من الله على ما سببوه من مشاكل لهذه البلاد. والآن لديهم الجرأة ليكتبوا إلى فخامتكم مطالبين بزيارتهم، وقبل أن ترد على دعوتهم يركبون رؤوسهم.ويقتحمون بيتكم، أعتقد أن فخامتكم كريم للغاية معهم، كريم للغاية ونصف وأعتذر عن قولي هذا».

«أقدر لك مشاعرك الفياضة، يا بروفيسور، ولكن لا بد من أن أعالج هذه الأمور على طريقتي. فاتركه جانبا».

«كما يرغب فخامتكم. سأفعل ما يأمر به فخامتكم بالضبط وإلى آخر حرف. لا أظن أن فخامتكم ذكرتم شيئا عن التغطية التلفزيونية».

«لا لا لا لا! أنا سعيد لأنك ذكرت ذلك. لا أريد تغطية تلفزيونية، فهي دعاية غير ضرورية. قبل أن تتفطن ستجد الجميع ينظمون اجتماعات التأييد في كل مكان ليظهروا على شاشات التلفزيون، فأنت تعرف طبع الناس. التلفزيون ممنوع. أوه كلا!».

«فخامتكم محق تماما، فلم يخطر ذلك على بالي. أمر مذهل كيف يفكر فخامتكم في كل شيء؟»

«تعرف لماذا يا بروفيسور؟ لأنها جنازتي أنا، وهذا هو السبب. عندما يتعلق الأمر بجنازتك، فلا بد أن تفكر جيدا في كل شيء، وخصوصا مع نوعية الوزارة التي لدي».

«يا صاحب الفخامة. هل يمكنني استغلال هذه الفرصة لأعتذر رسميا بالأصالة عن نفسي، وبالنيابة عن زملائي في الوزارة عما يمكن تسميته انعدام اليقظة والاهتمام. أقول هذا بكل ذل، وبروح المسؤولية الجماعية التي تجعلنا مذنبين جميعا عندما يقترف الذنب واحد منا. إذا تلوثت إحدى الأصابع بالشحم فإنها تنقل القذارة إلى الأصابع الأربع الأخرى. ربما يعرف فخامتكم أنني لم أرغب مطلقا في التدخل في شؤون زملائي الوزراء، لأنني آمنت دوما بالمثل الذي يقول: إن علي أن أهتم بتجديف قاربي فقط، مع أن ذلك لا يعني أنني أعمى عما يجري من أمور غير نظيفة. لكن ما حدث اليوم قد بين أنه ليس على المرء أن يمتنع عن السعال حتى لا يتسبب في إزعاج الآخرين...»

لا أفهمك تماما يا بروفيسور. أرجو أن تتخلى عن هذه الأمثال، إذا لم يكن لديك مانع».

«حسن يا صاحب الفخامة. كنت أقلب الأمر في نفسي حول كيفية أداء واجبي، وعما إذا كان يجب علي تنبيهكم ، أعني تنبيه فخامتكم، حول علاقة فخامتكم بجناب وزير الإعلام، وبرئيس تحرير «صحيفة الجازيت».

«أي علاقة تعني؟ هل بإمكانك الحديث بوضوح أكثر؟» كان مستوى التوتر في نبرته مرتفعا جدا الآن.

«أعتذر يا صاحب الفخامة عن الخوض في أمور شخصية، ولكن لا بد من الصراحة، وأعتقد أنك ما لم تأخذ حذرك، فإن في مقدور صديقيك هذين إثارة متاعب سيبدو التمرد معها مثل ألعاب الأطفال. وإذا كانت حاستي السادسة سليمة، فربما يسببان الكثير من المشاكل في هذه اللحظة بالذات».

«هذا حسن يا سيد أوكونج، ولكنني أتعامل مع الحقائق وليس مع الشائعات. والآن اذهب بسرعة، وتدبر أمرك مع ذلك الجمع، ثم قدم لي تقريرا بمجرد الانتهاء من المهمة، ولكن لا تستعجل الأمر. بعد أن يقولوا ما في جعبتهم وترد عليهم، أريدك أن تبقى معهم وتكون مضيفهم نيابة عني، فلقد رتبت أن تقدم لهم المشروبات وبعض الأكل، وعليك أن تختلط بهم وتشعرهم بأنهم في بيوتهم. هم ليسوا بطلبة علوم سياسية ولكنك ستتدبر الأمر. المعهد الوطني للبحوث هو المسؤول عن الترفيه، ولكن أنت هو المضيف في الصورة. هل هذا واضح؟ اجعلهم يشعرون كأنهم أتوا هنا بناء على دعوة مني».

«سمعا وطاعة، يا صاحب الفخامة».

تلاشت الكلمات الأخيرة للبروفيسور التعس أوكونج عندما انطلق جرس فخامته عاليا بنفاد صبر. كانت حالته مضطربة عندما انسحب بعد المثول أمام فخامته، بحيث كاد يصطدم بقوة بالباب المتأرجح الثقيل ويُسقط الحاجب أرضا. توقف خارج الباب لبرهة محاولا استعادة السيطرة على ساقيه اللتين ثقلتا فجأة، كأنهما لوحان من خشب الماهوقجني الثقيل. وشعر بأنه في حاجة إلى العثور على كرسي ليجلس عليه لبرهة، ولكنه لم ير أثرا لأي كرسي، كل ما هنالك هو هذا الاتساع الكبير للممر المغطى بالسجاد الأشهب. في جميع الأحوال، فلا وقت لديه للوقوف وتفقد الأشياء، لديه مهمة وطنية عاجلة. بدأ في الحركة ثانية، على رغم أن ثلاثة أرباع فكره لا يزال مشغولا بالطريقة العنيفة التي صرف بها، وبالذات في مخاطبة فخامته له بالسيد. توقف

عن السير ثانية وقال بصوت عال: «لقد لحق بي الخزي. يا إلهي. لقد لحق بي الخزي، ماذا ارتكبت من خطأ؟»

«ما زلت هنا؟» صاح به الحاجب من خلفه، فدبت الحياة في البروفيسور من جديد. شعر بخفة في رأسه، ربما كان لدى رئيس التشريفات في نهاية الممر بعض البراندي في دولابه، إنه في حاجةإلى جرعة منه. في الوقت نفسه دلف الحاجب ذو الوجه القاسي الذي سبقه في الممر منذ لحظات إلى غرفة المجلس، وصرف المجلس الذي كان محتجزا بناء على أوامر فخامته، وطلب من النائب العام الحضور للمقابلة.

«ماذا كان قصد الرجل؟» تساءل فخامته في نفسه؛ «وعلى رغم ذلك فقد أوقفته عند حده، من المؤكد أنني لن أسمح لوزرائي بأن يسروا لي باتهامات مبهمة ضد زملائهم. هذه ليست لعبة للكركت! لا يوجد حس بالولاء أو روح الجماعة، لا شيء! ويسمي نفسه أستاذا في الجامعة. ليس من المستغرب أن يقولوا عنه الآن إنه يترأس التجمعات الدينية الروحية في الجامعة، حيث يقومون بالتصفيق الجماعي بالأيدي. شيء مشين، لين العريكة حتى النخاع، كلهم كذلك بروفيسور! كان عمّي شبه الأعمى على حق تماما عندما قال إننا طلبنا من الرجل الأبيض أن يحزم حقائبه ويرحل، ولم نكن نظن أنه سيأخذ معه كل الأدوات النافعة التي أحضرها معه عند قدومه إلينا. بروفيسور! لقد استعاد الرجل الأبيض كل شيء في صندوقه عند رحيله، لكن عند التفكير في الأمر ما الذي زرع في تفكيرنا عند وصولنا إلى هذا الكرسي أننا في حاجة إلى هؤلاء الأساتذة غير مكتملي النضج ليعلمونا أي

شيء؟ ماذا يعرفون؟ لا شيء يعادل التدريب العسكري الممتاز والانضباط!»

«ادخل أيها النائب العام.. واجلس. أرسلت في طلبك لأوجه إليك سؤالا بسيطا ومباشرا. أعرف أنك رجل قانون، ولكنني مشغول للغاية، ولذلك أريد كلاما واضحا ومحددا. هل هذا مفهوم؟ لقد وصلتني معلومات من عدة مصادر تبين أن وزير الإعلام قد لا يكون مخلصا لي كما ينبغي. وكما تعرف فهذه المسألة خطيرة جدا، وحساسة جدا، ومرهفة جدا، ولهذا أطالبك بالتكتم التام على هذا الأمر. لا شيء حول هذا الأمر ينبغي أن يخرج من وراء هذه الجدران الأربعة». وأشار إلى الجدران الأربعة كل اثنين في وقت، مثلما تفعل المضيفة الجوية وهي تشير إلى أبواب خروج الطوارئ قبل الإقلاع. هز النائب العام رأسه أربع أو خمس مرات متتالية.

«إذن. ما رأيك في مثل هذه المعلومات؟»

كان النائب العام جاثما على حافة كرسيه، مستندا بمرفقه الأيسر إلى الطاولة، مشرئبا بعنقه إلى الأمام ليلتقط كلمات فخامته التي اختار أن يتعمد قولها بنعومة غير معتادة، كأنه يقصد أن يجعل سامعه في وضع غير مريح، أو في حالة استنفار كاملة، خوفا من أن تفوته كلمة مهمة تتعلق بمفاتيح الحياة أو الموت. بينما كان يراقب ضحيته وهو يجهد نفسه لالتقاط الرسالة المهمة، شعر ثانية بدفء وابتهاج شديد، وقد أصبح هذا الشعور رفيقا دائما له خاصة بعد أن أخذ الآن يتخلص بسهولة تامة من بعض أولئك المزعجين الذين اعتقد في بداية تسلمه السلطة أنهم

في غاية القوة. يقول أهلنا «تحتاج اللبؤة إلى أسد لترويضها».
يالهم من محقين!

بينما هو يستمتع بحس الإنجاز الرائع الذي اكتسبه خلال فترة وجيزة، وهو ينتشر ويختلط تماما في جوهر تفكيره وكينونته، مثلما يذوب زيت النخيل الأحمر الطازج اللذيذ، وينتشر في قلب حبة بطاطس مشوية. سحب صوته إلى داخل حنجرته لمسافة أكثر، وبطريقة محسوبة بعناية قذف برأسه إلى الخلف على مسند كرسيه الضخم المصنوع من الجلد الأسود، بحيث بدا كأنه يوجه كلماته إلى السقف اللامبالي بدلا من مُنصتهِ الجَزِع الجالس عبر الطاولة.

فجأة داخل النائب العام الشك كأنه طريدة تشتم رائحة الموت في الجو، ولكنها لا تعرف من أي جهة سيأتي الخطر، ولذلك قرر ألا يحرك ساكنا، ولمدة تقارب الدقيقة بقي في المكان نفسه ولم يعط أي إجابة.

إذن فقد دفعه صمت الآخر وتلكؤه في الإجابة إلى الصراخ بصوت عال، وقد انتصب في جلسته الآن «هل سمعت ما قلته لك أم أن علي أن أكرر ما قلت؟».

«لا حاجة إلى التكرار يا صاحب الفخامة، فقد سمعتك تماما. كما تعرف يا صاحب الفخامة فإن خادمكم المتواضع محام، وتحتم علي مهنتي ألا أثق إلا في الأدلة القوية، ولا أركن إلى مجرد الشك أو المشاعر الشخصية».

«أيها النائب العام، لم أرسل في طلبك لتلقي علي محاضرة، ولكن لتجيبني عن سؤالي، فقد تكون أنت النائب، ولكن أنا هو الجنرال».

انفجر النائب العام في ضحكة لا إرادية مجلجلة اهتز لها بطنه، وأخذ يردد كلما أمكنه ذلك «ممتازة هذه يا صاحب الفخامة، ممتازة!» لا شك في أن فخامته كان مسرورا للنتيجة الدرامية التي أحدثها ظرفه، ولكنه لم يشأ التنازل ليبين ذلك، كان فقط يسلط زوجا من العيون الجامدة ولكن المتساهلة إلى حد ما على نائبه العام، منتظرا بصبر أن يفرغ نوبة الضحك التي انتابته. أخيرا حدث ذلك عندما أخرج منديلا حريريا مطويا بعناية من جيب صديريته وشرع يمسح به على عينيه، متلذذا مثلما يفعل مهرج سمين.

«ستجيب عن سؤالي الآن؟» قال فخامته بنبرة لا تخلو من التسلية.

المعذرة يا صاحب الفخامة، لا تلمني؛ ولكن اللوم يقع على روح الدعابة التي لا مثيل لها لدى فخامتكم... الحق يقال، يا صاحب الفخامة، لا يوجد لدي أي دليل على عدم ولاء زميلي المحترم، «توقف ليرى أثر ما قاله، ولكن لم يظهر شيء على وجه فخامته». لكنني بشر أيضا، ولدي مشاعري الشخصية التي ربما لن يقبل بها في المحكمة. أوافقكم الرأي ولو كان «كريس» موجودا معنا هنا لقلتها في وجهه، فأنا لا أعتقد أن «كريس» موال لك مائة في المائة».

«ولماذا تظن أن لديك هذا الإحساس؟»

«لماذا لدي مثل هذا الإحساس؟ حسن. لننظر إلى الأمر كما يلي: لقد راقبت زميلي المعني عن كثب خلال معظم السنة الماضية تقريبا، وانطباعي عنه أنه لا يبين أي مشاعر بالسعادة أو الاهتمام

فيما يتعلق بالحكومة على وجه العموم، أو بفخامتكم بصورة خاصة، ومنذ دقائق قليلة كنت أقول له هذا الكلام بالتحديد. قلت لماذا تحمل معك هذا الوجه المتجهم طوال الوقت؟ ابتهج يا صديقي، ولكنه لا يستطيع ذلك. لماذا؟ لا يتطلب معرفة السبب عناء البحث، وعلى أي حال، فقد كنتما زميلين في كلية اللورد لوجارد. إنه يتذكر تلك الأيام، ولا يرى فيك غير الصبي المجاور له، ولا يستطيع أن يستوعب أن الفتى نفسه الذي مارس معه الألعاب الصبيانية قد أصبح الرجل الذي جاد به القدر على أمته. تعرف فخامتكم، أنها المتاعب نفسها التي واجهها النبي عيسى مع قومه. الذين يعرفونه ويعرفون منشأه يقولون: أليس هذا هو الشخص نفسه الذي ولد في حظيرة ماعز لأن والده كان معدما، ولم يكن في استطاعته استئجار بيت صغير...؟»

«كان منطلقا في حديثه، ولكن تفكير فخامته كان مقسما بين ما يستمع إليه الآن، وصدى نصيحة الرئيس العجوز «أنجونو»: (أكبر خطر عليك هم رفاق صباك، هؤلاء الذين ترعرعوا معك في القرية.. أبعدهم عنك وستعيش طويلا) يا له من غيلم حكيم مسن»!

جد شعور بالاحترام لنائبه العام، وانعكس ذلك على مرآة وجهه، حيث اقتنصه المحامي الداهية وأمسك بذاك الشعاع بكلتا يديه، قائلا في نفسه إن شجرة الأيروكو الضخمة هذه لا يكون تسلقها، كل يوم، أحصل على كل الحطب الذي تعطينيه، ولا بد من أن أستغل كل فرصة يسمح لي بها مادمت في القمة.

«أما بالنسبة لأمثالي يا صاحب الفخامة، المساكين الذين

انخرطوا في المدارس العامة في الريف، فنعرف مكانتنا، ونعرف هؤلاء عندما نراهم أفضل مما نعرف أنفسنا. ليست لدينا أي مشكلة في عبادة رجل مثلكم، أقولها صادقا، ليست لدي أي مشكلة. أنتم تعلمتم في كلية اللورد لوجارد حيث كان نصف مدرسيكم من الإنجليز، هل تعرفون أن أقرب شيء رأيته للرجل الأبيض أثناء دراستي كان هنديا واثنين من الباكستانيين؟ هل تعرفون يا صاحب الفخامة أنني لم أتلق الدروس عن الرجل الأبيض الحقيقي إلا عندما ذهبت لدراسة القانون في مدينة إكستر في بريطانيا في مرحلة متأخرة؟ كنت في الواحدة والثلاثين من عمري، ولا يمكن لفخامتكم تخيل ما كان عليه قاطنو الغابات أمثالي. خلال عامي الأول وفي أحد الأيام الجميلة رأيت على قائمة الطعام (الرايريت على الطريقة الويلزية) وطفقت أفرك يدي، وبدأ لعابي يسيل لأنني اعتقدت أنني سأتناول اللحوم البرية الأصلية من غابات ويلز. ولم أعرف أن الرايريت هو نوع من الحلويات».

كان فخامته يبدو مسرورا الآن بالفعل وظهرت على وجهه ابتسامة، أما النائب العام فقد كان مبهورا بأدائه وما حققه من نجاح. من كان يصدق أن فخامته سيصغي كل هذا الوقت إلى رجل يتحدث عن نفسه، ويبتسم لدعاباته أيضا؟

«أقول هذا يا صاحب الفخامة لأبين أن رجلا له مثل خلفيتي، ليس لديه أدنى مشكلة في عبادة شخص مثلكم. ولكي أنصف زميلي بالكامل - وهنا أرغب في أن أكون منصفا له من دون أدنى شك - أقول إن لديه مشكلة، فهو يريد أن يعرف لماذا أنت صاحب

الفخامة وليس هو... لا أقصد القول إنه تحدث إلي بمثل هذه الكلمات، ولكنها موجودة في عقله. لست قارئا للأفكار ولكنني متأكد أنها هناك، يا صاحب الفخامة».

«أشكرك. ليس لديك أي دليل، وماتقوله هو بالأحرى نظرية مثيرة وأقدر لك ذلك. كما تعرف وكقاعدة عامة، فأنا لا أتطفل باحثا عن مثل هذه المعلومات، أو أشجع وزرائي على التجسس بعضهم على بعض. وأستطيع أن أؤكد وجود سبب خاص للغاية يتعلق بأمن الدولة، يبرر طرحي لهذا السؤال عليك، وأقدر لك إجابتك الصريحة عنه. بشكل ما فأنا مرتاح وسعيد جدا لعدم وجود أي دليل؛ والآن يجب أن تنسى أننا تحدثنا في هذا الموضوع، وكما قلت مسبقا لا تنبس عنه لأي إنسان. أتفهمني؟»

«تماما يا صاحب الفخامة، بإمكانك الاعتماد على تكتمي المطلق»

«تكتمك؟ كلا يا سيادة النائب العام، فأنت تعني صمتك المطلق، وإذا سمعت كلمة من هذا الحديث فمصدرها إما منك، وإما مني.. هل هذا واضح؟»

«بالكامل يا صاحب الفخامة»

«طاب يومك»

الجزء الثالث

هاتف كريس «آيكم» وطلب منه إرسال مصور فوتوغرافي إلى قاعة استقبال القصر الرئاسي لتغطية زيارة وفد التأييد من أبازون.

«مزحة جديدة هذه. وفد تأييد من أبازون! يا لها من قصة، ماذا سنسمع أيضا؟»

«وبحق الرب دعني أرى مسودة المقال قبل إرساله إلى الطبع».

«ولماذا، إذا كان من حق المرء أن يكون من الطيش ليطرح هذا السؤال على حضرة جناب الوزير المحترم؟»

«لقد قلت ذلك لتوك، فأنا الوزير المحترم لشؤون الإعلام. هذا هو السبب».

«ليس هذا بسبب كاف يا سيادة وزير الإعلام. ليس كافيا لي. يبدو أنك تنسى أمرا وهو أن اسمي وعنوان الجازيت هما المدونان أسفل الصفحة السادسة عشرة وليس اسم أي وزير ملعون، وأرجو المعذرة لاستعمالي ألفاظا نابية، فأنا من سيسجنني الميجور سمسونايت لو تطلب الأمر ذلك وليس أنت. إنها جنازتي...».

«لا علاقة لهذا بالموضوع، يا «آيكم»، ومن المفترض أن تعرف ذلك، لقد تحدثنا في هذا الأمر مليون مرة بدلا من واحدة، وأشعر بالتعب والسقم لاضطراري إلى لتكرار ذلك. وها أنا أقولها للمرة الأخيرة: إن القسم السادس من الفصل الرابع عشر من تعديلات قانون الصحافة يعطي للوزير المحترم

سلطات محددة وعامة حول ما ينشر في الجازيت، وأنت تعرف ذلك جيدا... وسأقوم الآن بتطبيق القانون وأرسل تعليماتي كتابيا ... فتوقعها مني خلال نصف الساعة القادمة. يبدو أنك تريد أن تجري الأمور هكذا. وسأجيبك إلى مبتغاك».

أقفل السماعة ونادى سكرتيرته الجديدة. بعد أن أدنت كرسيها وقلبت صفحة جديدة من كراسة ملاحظاتها عادت الحياة إلى الهاتف من جديد وأرادت التقاط السماعة لترد عليه، ولكن الوزير وصل إليه قبلها بوضع يده على الجهاز وقال: «مهما يكن المتحدث فلست موجودا هنا»، ثم رفع يده والتقطت هي السماعة.

كان المتحدث «آيكم»، وكان يصيح بصوت عال. بإمكان كريس أن يسمع بكل وضوح صوته المنطلق المخنوق لأن السكرتيرة أبعدت السماعة قليلا للحفاظ على سلامة طبلة أذنها.

«ليس في مكتبه ياسيدي».

«لا تكذبي علي! لا بد من أن هذا اللعين في مكتبه، لأنه أقفل السماعة في وجهي منذ قليل».

«يا سيدي. ليس هذا بالهاتف الوحيد في المدينة، فيمكن أن يكون قد هاتفك من بيته، أو من القصر الرئاسي، أو من أي مكان آخر».

كان كريس يبتسم ابتسامة خالية من المرح. في الغالب، كان الرجل الغاضب هو رجلا غبيا. وقال في نفسه اجعلي منه أحمق يا فتاتي العزيزة. كان صمت استسلام «آيكم» يبدو طويلا وثقيلا. ومن دون كلمة أخرى صفق السماعة بقوة جعلت

الفتاة تقفز. قال لها كريس بعد تخليه عن ابتسامته:

«تستحقين علامة كاملة يا فتاتي العزيزة، وأعتذر عن سلوك أصحابي السيئ».

«من كان ذلك؟»

«ألم تتعرفي عليه، إنه مدير تحرير الجازيت».

أحسست بأن النصر الذي حققته منذ قليل قد بدأ بريقه يخبو، وتجهم وجهها. لاحظ كريس نظرة الرهبة التي ارتسمت على وجهها.

- شمس أبريل عدوة، على رغم أن رجل الأرصاد الجوية في التلفزيون يردد بصورة آلية كلمات معلميه الأجانب بأن الجو سيكون على ما يرام في كامل البلاد. على ما يرام! منذ فبراير ونحن نطهى على البخار حتى أصبحنا مثل لحم الضأن المطهو جيدا، وكل هؤلاء البلهاء الذين يتسلمون مرتباتهم من الدولة يخبروننا أن الجو سيكون على ما يرام. كلا، يا مواطني الأعزاء.

محدثكم هو البريجادير سيئ الطالع من فوج والتنج 202 يقول لكم لستم بخير! كلا، يا مواطني الأعزاء. لن تكونوا بخير حتى تتقلبوا على شمس أبريل الشرسة.

الليلة وفي وقت لاحق ستنصتون يا مواطني الأعزاء إلى النص الكامل من الجنرال «فم» بنفسه - فأنا لست سوى أداة توصيل - وستستمعون إلى الكلمات منه مباشرة بعد عزف النشيد الوطني معكوسا، وحتى ذلك الوقت فلتنتشووا في سلام يا رفاقي المواطنين.

حتى الآن استغرقت مسافة نصف الكيلومتر إلى القصر الرئاسي مدة ساعة ونصف الساعة خلال فترة الإقفال التي تعرف بازدحام المرور ودرجة الحرارة العالية، وهو لم يقطع بعد حتى نصف المسافة. لقد قاده إلى هذا الطريق إغراء أبازوني لا يقاوم، وبينما هو يتقدم سنتيمترات إلى الأمام ثم يتوقف ثم يتقدم سنتيمترات أخرى وهو يدوس على المكابح مرة أخرى ... شرع يتذكر: أن السيارة التي يتعين مراقبتها هي التي تقع أمام السيارة التي خلفك ... يا له من تذاكٍ غبي، وفطنة عقيمة تتغلب على البشر البسطاء، العاملين، الأسوياء مثل إليوا التي ليس بمقدورها على الإطلاق أن تشرع حتى في حل طلسم الازدحام هذا.

نظر بعيدا إلى الأمام قبل المنعطف القادم على الطريق نفسه، ومرة أخرى شاهد حركة بسيطة للغاية، تتم في الصف الذي أمامه مباشرة إلى أن تصل إليه، انتظرها بلهفة، ولكن عندما وصلت إليه عرف أنها لم تكن تزيد على متر تعيس واحد، ولذا قرر أنها لا تستحق عناء تحريك عتلة تبديل السرعات، ويجب توفيرها وإضافتها إلى التحرك الجزيئي التالي ليحصل على حركة لا بأس بها لمسافة مترين ... أطلقت السيارة التي خلفه مباشرة بوقها، وكان من العلو بحيث جعله يقفز في كرسيه قليلا، ويخرج من حالة الاستغراق في التفكير الضبابي الذي تسببه الحرارة. نظر في مرآته الخلفية فرأى رجلا في حالة غضب شديد، وقد أخرج رأسه المتصبب عرقا من نافذة سيارة الأجرة الصفراء،

كان يشير إليه بعنف بأن يتحرك إلى الأمام، وقد شاركه الآن سائقون آخرون في نفخ أبواق سياراتهم وفي القيام بالاحتجاجات الصارخة. قرر أن يتجاهلهم جميعا ويحمي المكان الثمين الواقع أمامه حتى لو انطبقت السماء على الأرض! ازداد ارتفاع الضوضاء إلى عشرة أضعاف، وبدأت العدوى تدب في بعض سائقي السيارات الواقعة أمامه حتى لو لم يكن باستطاعتهم معرفة السبب، ولكنهم كانوا ينضمون إلى نافخي الأبواق في الخلف. لم يتزحزح عن موقفه وبدلا من الاستسلام لهم سيشغل فكره بمراقبة ما يحيط به، فحركة المرور في الجهة المقابلة، كما هي العادة، أكثر حظا من هذا الطابور الذي وجد نفسه واقعا في شراكه، لكنه قدر أنه حتى لو أنه - من أجل التحرك في ذاته - قرر الدوران إلى الخلف والالتحاق بهؤلاء الذين يبتعدون في الاتجاه المعاكس لمكان وصوله المرتقب، فإن المشكلة تكمن في ضيق الحيز المتوافر للدوران، ومما يستدعي وأد الفكرة في مهدها ... لم يكن هناك المزيد من الإثارة على هذا الجانب من الطريق، ولذلك أدار وجهه إلى الجهة الأخرى، ولاحظ للمرة الأولى أن الشارع قد زين بعدد من الأعلام القديمة القذرة التي علقت في صف على طول الطريق. لا بد من أن بعض عمال الزينة التابعين لوزارة الإعلام كانوا منهمكين في العمل هنا، يعلقون هذه الخرق المتسخة، التي عادة ما تحفظ في مخازن الوزارة، في صناديق تعج بالفئران، بعد استخدامها في احتفالات مايو من السنة الماضية.

في هذه اللحظة بالذات وفي الوقت المناسب، رأى بطرف عينيه السائق الذي خلفه يناور بسيارته الأجرة ليغادر طابور السيارات، ويكاد الآن يحاذيه على حاشية العشب. أدار مفتاح الاشتعال، ولحسن الحظ استجاب للمحاولة الأولى، ثم عشق عتلة التبديل وتحرك إلى الأمام ليشغل المسافة التي كسبها من قبل، وكان غريمه يقوم في هذه اللحظة بالذات بمحاولة إقحام سيارته فيها بوضع مائل. منذ هذه اللحظة نشبت حرب أعصاب بين الرجلين كلما تقدم طابور السيارات بضعة سنتميترات إلى الأمام. في كل ما عرف من منازلات مماثلة في الماضي بين السيارات الخاصة وسيارات الأجرة، كانت الغلبة على الدوام للأخيرة، فالسلاح الحاسم لدى سائقي سيارات الأجرة هو يقينهم أن سائق السيارة الخاصة سيترك مكانه وينسحب من المعركة، بدلا من تعريض بدن سيارته الأملس لأي كدمات، لكن اليوم، وللمرة الأولى في تاريخ حركة المرور في هذه البلاد، التقى سائق أجرة بندٍّ أكثر من مماثل له ... فهذا السائق المشاكس فشل كليا في التقيد بالقوانين التي يسير على منوالها أمثاله، لكن إلقاء نظرة واحدة على سيارته كانت كفيلة بتحذير الطرف الآخر مسبقا، وفي هذه الحالة إما أن سائق الأجرة لم ينظر إليها، وإما أنه فعل وفشل في تقييم ما رأى.

تقول الروايات إن موظفا في منتصف العمر انهمر في نوبة بكاء قائلا «ماذا سأقول لماما -جون؟» وقد جرى ذلك عندما تسبب سائق سيارة أجرة في إحداث طعج قبيح على طول

الجانب اللماع لسيارته الفولفو، ولكن ليس «لآيكم» زوجة يخشاها أو ابن يدعى جون، أو جيمس أو أي اسم آخر، وعليه فقد كانت المبارزة أكثر من متكافئة. في الوقت الذي كان «آيكم» فيه غير منتبه إلى أن السيارة المحاذية له تسير باثنين من دواليبها على العشب، كان يركز نظره طوال الوقت على أضواء التوقف الحمراء للسيارة التي أمامه. بعد خمس عشرة دقيقة من المقاربات الخطرة سلم السائق الآخر بهزيمته مطلقا العنان لشتيمة من النوع الثقيل، ثم تراجع إلى الخلف ولم يجد إلا المكان الثاني بعد المنتصر، ويرجع الفضل في ذلك إلى تعاون صاحب الميدالية البرونزية الذي منعه من الرجوع إلى مكانه الأصلي.

جذب «آيكم» نفسا عميقا من أعماق صدره، ولأنه فارس نبيل في انتصاراته، فقد أعلن أن هذا النصر هو بفعل الشمس، فنحن مسلوقون كما يفعل الفلاحون بأرزهم عندما ينقعونه ليرطبوا القشرة. وبعد ذلك لا يستغرق طبخنا أكثر من خمس دقائق.

في تلك الليلة ألف ترنيمة للشمس.

أيتها الشمس يا من تحملين القرابين بقوة للإله العظيم، يا عين الله المفردة، لم جلبت علينا كل هذا؟ ما الخطيئة الشنيعة المحرمة، والمحرمة، والمحرمة سبع مرات أخرى التي ارتكبناها أو صفحنا عنها حتى، وما الخطأ الذي لا يمكن أن نأمل في أن يمسحه أي إصلاح؟

انظري إلى صلواتنا المحزونة وما نقدمه من محاولات استرضاء مبعثرة على أرضيتك ترمين بها بعيدا بامتعاض،

وتملئين في كل فجر سلة يومك الطويلة بمعدات الموت ورموزه.

تبزغين عند صياح الديك بعين مفتوحة على مداها كان قد أرَّقها السهاد، تبصقين لعناتك على عالم مضطجع مهزوم، وتشتعل أفران الجنة بفعل شواظك القرمزي، وعندها تمتلئ السماء بنقمة جحيمك المتدفق.

يا عين الله التي لا تموت! أنت لا تتوقفين بسبب ما تحملينه لنا من عاطفة، ونحن نعرف ذلك ... فتوقفي من أجلك أنت؛ من أجل عين الجنون الجاحظة، تلك التي قد تكون أعمتها الذرات المتسامية لعالم تحول إلى رماد. يا عين الله المفردة... هل ستدفعين بنفسك إلى الخارج فقط من أجل أن يتعثر الناس في ظلام؟ فلتتذكري أيتها العين المفردة أنك الجار الملاصق للعمى، تذكري!

ما الذي عاد يعنيه الإنسان لك، يا عين الله، لكي تؤذي نفسك بسببه؟ هل أصبح في نظرك في صورة الإله؟ تعودين من رحلة صيدك الكبرى، تحملين فوق رأسك الضخم هيكلا عظيما لفيل، فهل تلهين وأنت في طريقك لتلتقطي جُندبا من بين أصابع قدميك؟

أيتها الشمس إنك رسول للخالق! انتبهي إلى رماد العالم الذي يرتفع إلى الأعلى من محرقة الجثث هذه في كل يوم، فقد يثبت عند هبوطه مرة ثانية أنه غير كاف لشق أقنية الولادة في موسم التجديد.

لقد تلاشت الطيور التي أتى غناؤها في الصباح قبل أن تسقط آخر فراشة مشوية على الأرض. وعندما اختفت الطيور

المغردة ذهب الصباح نفسه في عزلة محاطا بالسخام والرماد كما كفارة تؤديها الأرملة بعد نزع حليها وزينتها منها. أشعة من النور المخملي الناعم وسلاسل زينة من الصوت النقي مرتبة طبقة فوق الأخرى على صدرها المتألق: مرجان وعقيق أزرق، ويُشبٌ وأحجار كريمة تبدو بارزة كقوس قزح. إذن لم تترك الطيور المغردة عند هروبها مكانا شاغرا، أو ساعة فارغة لأن الساعة نفسها قد ماتت قبلها، ولم يعد للصباح وجود.

تحولت الأشجار إلى ما يشبه تماثيل برؤوس مائية، هي من القدم بحيث لم يبق على تلك الوجوه إلا آثار ملامح بليدة، مثل كثبان النمل التي تقاوم لتخبر عشب السافانا الجديد عن حرائق السنة الماضية.

نفقت كل الحيوانات الأليفة، قُليت الخنازير في شحومها، ثم أتى دور الأغنام والماعز والأبقار التي اختنقت بفعل انتفاخ ألسنتها، وشرعت الكلاب الضالة في السوق تخوض معارك مستمرة مع النسور التي تلتهم جثة الرجل المجنون، الذي وجد أخيرا صباح ذات يوم منكمشا على نفسه فوق المصطبة التي أصبح مستأجرا دائما لها، والتي كانت مبتدأ رحلته كل صباح للصعود فوق أعلى درجة من السلالم الخشبية الواقعة في وسط الميدان لتقريع القرويين الغائبين. أين الناس؟ هل نسيتم يوم سوقكم؟ تعالوا! وأحضروا سلالكم المملوءة بثمار البطاطس والكوكا. أين بائعات السمك وبائعات زيت النخيل؟ أين أواني الفخار المحمولة فوق الرؤوس؟ تعالوا

فربما سيكون اليوم هو يوم حظكم، اليوم الذي قد تجدون فيه رجلا أعمى لتتاجروا معه. ليس لديكم ما تبيعونه؟ تعالوا! وسأشتري منكم أعراضكم.

دمدمت الكلاب وهي تمزقه إربا، وكشرت في وجه العقبان التي ردت عليها غير هيابة مستعملة مناقيرها. بعد تلك الوليمة المزعجة انكمشت رؤوس النسور الشريرة العنيفة، وغادرت إلى بلاد أخرى.

في النهاية حتى الغيوم خضعت، على رغم أنها قاومت حتى النهاية، وقد نقلت حمولتها المتسخة وما تبقى من إمكاناتها التي تدعو إلى الرثاء من مكان إلى آخر في مجهود شجاع، ولكن غير منظم لإيقاف التشكيلات البارزة لمضيفي الشمس المثيرين للفتنة والقلاقل. بسبب ذلك التحدي أنزلت الشمس بهم انتقاما شديدا محرقة بقاياهم إلى آخر ريشة، ناثرة رمادهم إلى الرياح الأربع، عدا أن الرياح نفسها هربت بعيدا، بحيث بقيت ذرات السحب المدنسة معلقة في السديم على كامل وجه السماء، مما أضفى على ضوء الشمس الذي يظهر خلفها اللون البرونزي القاسي.

أحيانا تتحرك ظلالها التي لحقها الخزي في عصيان لا طائل من ورائه في أثناء ساعة ظهور الأرواح في منتصف النهار، وتتسبب في حركة عنيفة مفاجئة للرماد والغبار، لتعود إلى الهدوء بسرعة من جديد.

في عمل يائس أخير تقوم الأرض الآن بإشعال نفسها، وترسل كتلة دخان كدرع لحماية رأسها. كان أمرا خاطئا يدعو

إلى الشفقة، لأن الحرارة الناتجة من حرائق الأدغال أضيفت إلى لهب الشمس، وعلى كل، لم يمض وقت طويل قبل أن تختفي آخر قشة قابلة للاحتراق.

لم يستطع أحد أن يعرف لماذا تفعل هذه العظيمة التي تنقل القرابين إلى الإله الجبار كل ذلك بالعالم، عدا أن هذا الأمر قد حدث من قبل، منذ زمن بعيد، بعيد كما تقول الأسطورة. أدت صلابة الأرض حينذاك إلى كسر فؤوس حفاري القبور، وثنت النهايات الحديدية لرماحهم، وعندها عرف الناس أن الوقت قد حان لهجر أرضهم، تاركين موتاهم من دون دفن، وتاركين حتى الذين يحتضرون، مكفرين بذلك عن أي شيء بغيض ارتكبوه وأدى إلى إنزال هذه الكارثة بهم. رحلوا متحسسين طريقهم في ضوء النجوم، يستظلون بحصائرهم أثناء النهار إلى أن أصبحت الرمال ساخنة، وتعذر الاستلقاء فوقها. حتى الأسطورة متكتمة حول مصيرهم، وكل ما تخبرنا أنه عندما تبدأ الرحلة في كل ليلة من جديد يفشل الكثير منهم في النهوض من تحت حصائرهم، ويقوم أولئك الذين تمكنوا من الوقوف بصعوبة بإلقاء نظرات مختلسة على تلك المخابئ الصامتة، وييمموا وجوههم المتحجرة صوب الجنوب، وكملاحظة إضافية يقول صوت الأسطورة، إن رجلا يهجر بلدته وبيت عبادته، ويدير وجهه بتصميم عن ملجأ الحصيرة في البرية، حيث ترقد أمه ولا تستطيع النهوض مجددا، أو زوجته أو طفله، لا بد من أنه يحمل الموت في عينيه. هكذا كان الرجل وهكذا كان بقية

رفاقه الذين هبطوا ذات ليلة على القاطنين النائمين في قرية أوسي الصغيرة وقضوا عليهم، وشربوا الماء البني من آبارهم، ثم استولوا على أرضهم وسموها أبازون.

الآن يعيد الزمن نفسه من جديد في أرض الحكايات، ربما ليس بالسوء نفسه كما في المرة الأولى، ولكن قد تنتهي الأمور إلى الأسوأ. لماذا؟ لأنه من غير الممكن أن يقوم شخص ما بالسير جنوبا، مهتديا بضوء النجوم، تاركا خلفه صغارا معاقين في برية السافانا، وأن يصل بتكتم إلى قرية صغيرة، ويقضي على قاطنيها ويحتل أرضهم ويقول: فعلت ذلك لأن الموت حدَّق من خلال عيني.

عوضا عن ذلك أرسلوا وفدا من كبار السن إلى الحكومة التي تمتلك البطاطس في هذه الأيام، وتمسك بالسكين أيضا، من أجل طلب المساعدة منها.

الجزء الرابع

الشاهد الثاني - آيكم أوسودى

«انظري، يا إليوا، لا أحب أن يكون الناس صعاب المراس دونما سبب. لقد شرحت لك الأمر برمته منذ البداية. أليس كذلك؟».

«شرحت ماذا؟ أرجوك لا تجعلني أغضب... تخيّل أهم م م! ولكن النساء في هذا العالم مسكينات... تخيّل ذلك! لكننا لم نتسبب في شيء، ليست غلطتنا، لو أنني أرفض المجيء إلى غرفة نومك فستركلني مثل كرة قدم، ولا ألومك على ذلك».

«لست أدري ما الذي تتحدثين عنه».

«وكيف تعرف؟ أنت لست مؤهلا للمعرفة».

هناك سيارة تتوجه نحو موقف السيارات أمام البيت فاتجهت إلى النافذة لأستطلع الأمر. كلا، إنه أحد سكان الشقق المجاورة، ولكنني مع ذلك أظل بجوار النافذة لأرقب السيارة وهي تسير ببطء إلى المرآب المشترك على اليمين. ألاحظ أن أحد مصابيح التوقف يبدو عاريا لوجود كسر في الزجاج الأحمر. إذن فهذا هو السيد «إذن لذلك»، الموظف سيئ السمعة في مصلحة البريد والبرق، الذي يقطن الشقة المجاورة. تقدم ببطء إلى الباب الثالث. شقته، ربما سيقوم بضرب زوجته الجميلة هذه الليلة، حيث لم يفعل ذلك منذ شهور. إذن هل تتوق لذلك؟ اعترف، أيها المتوحش المقزز. إنك تتوق لذلك فعلا! حسنا، لمَ لا؟ فهناك طبيعة سريالية حول الأمر بأكمله، وتكاد تكون مريحة بصورة مرضية. أبدأ بسماع صراخها في أحلامي، ثم أنتقل إلى حالة وعي غير تامة، وأظل في

تلك الحالة خلال ما تبقى من المشهد، لأنه دائما ما يختار تلك الساعة من الليل، حين يكون النعاس في أوج إغرائه، وهي أيضا الساعة التي يفضلها أكثر اللصوص المسلحين شهرة. في الصباح أجد نفسي متسائلا كم من ذلك قد حصل بالفعل، وكم منه لم يرد إلا في أحلامي؟ التقيت بهما في صباح اليوم التالي على الممر الصغير المؤدي إلى المرآب، كانا هادئين ودودين تجاه بعضهما بشكل فاحش! وبالأخص هي. صُعقت لما رأيتُ، وفيما بعد سمعت كيف أن أحد الجيران الغيورين اتصل بمركز الشرطة - كان ذلك قبل أن أقطن في هذا المكان - وأبلغهم بأن رجلا ما يقوم بضرب زوجته، فرد عليه عريف الشرطة المناوب والنعاس يغالبه «إذن لذلك؟»، ولهذا نطلق على الرجل من وراء ظهره «إذن لذلك». حتى الآن لا أذكر اسمه الحقيقي على الإطلاق.

لا تزال إليوا تطلق اللعنات على بنات جنسها وعليَّ، أما أنا فلن أنبس بكلمة أخرى. كل ما سأفعله هو الوقوف دون حراك بجانب هذه النافذة انتظر قدوم سيارة الأجرة التي تأخرت كثيرا، وأتساءل لماذا؟! فعادة في هذا الوقت من الليل تستطيع الحصول على سيارة خلال ساعة.

«تخيّل... أن تضع فتاة في سيارة أجرة في منتصف الليل لتصادف اللصوص المسلحين في الطريق».

«تعرفين تماما، يا إليوا، أنه لم يعد هناك وجود للصوص مسلحين في باسا».

«وماذا عن المرأة التي قتلت في الحديقة في الأسبوع الماضي؟! ستدفع بي للقتل».

«لن يقتلك أحد، يا إليوا».

«لن يقتلك أحد يا إليوا. لماذا لا توصلني بسيارتك إذن، ما دمت تقول أنه لا يوجد لصوص مسلحون في باسا؟! هيا لنذهب الآن».

«لا أستطيع إيصالك إلى بيتك لأن بطارية السيارة ضعيفة، وقد أخبرتك بذلك عشرين مرة حتى الآن».

«بطاريتك ضعيفة. ولماذا لم تكن كذلك عندما أتيت لتقلني معك ظهر اليوم؟».

«لأن باستطاعة المرء أن يشغل بطارية ضعيفة في أثناء النهار، ولكن ليس في أثناء الليل يا إليوا».

«لا تجعل فمك هذا ينطق باسمي ثانية، يا أوجارى، فستقوم غدا بإحضاري مستعملا بطاريتك اللعينة هذه. هراء!».

بدأت تتحول إلى عدوانية، لو لم أكن أعرف إليوتي لأزعجني الأمر، لكنني سأكون أول من ستتصل به غدا صباحا، وربما سيحدث ذلك في أثناء عقدي لاجتماع هيئة التحرير في الساعة التاسعة. في المرة الأولى التي نفترق فيها على مثل هذه الحالة اعتقدت أنني فقدتها إلى الأبد. كان ذلك ليلة حاولتُ شرح سبب عدم سماحي لها بالنوم في شقتي، لم أكن لأهتم بإبداء الأسباب لو لم تصر على أنني أنتظر فتاة أخرى. «على الرغم من أن قولك هذا يعد إطراء لقوة تحملي، إلا أن السبب بكل بساطة هو عدم رغبتي في أن تنضمي إلى نساء باسا المنحرفات اللاتي لا ينمن في بيوتهن». أخذت تحدق فيّ بفم مفتوح من دون أن تنبس بكلمة. ورغبة مني في تأكيد وجهة نظري، وتأكيد ما اعتقدت

أنني قد حققته من نجاح في طرح رأيي، قلت شيئا مثل: «لا أفضل أن تقوم أخت لي بمثل هذا التصرف، هل فهمتِ؟». فانفجرت في وجهي مباشرة «عندما ترغب في ممارسة الحب في المرة القادمة، فابحث لك عن مثل تلك الأخت، أتسمعني؟».

عندما افترقنا اعتقدت أنها نهاية العلاقة، لكن في صباح اليوم التالي حضر سكرتيري في أثناء انعقاد اجتماع هيئة التحرير وطلب مني الرد على الهاتف.

«من يكون؟» سألت بغضب.

قال مدعيا طابعا رسميا يشوبه التغابي «فتاة معيّنة».

«مهما تكن، فقل لها أن تهاتفني فيما بعد... أوووه، لا عليك، سأرد عليها. أرجو المعذرة أيها السادة».

كانت إليوا... تطلب مني أن أوصلها إلى الشاطئ عند الظهر لغرض شراء سمك طازج من الصيادين الواصلين لتوهم، وذلك قبل أن تهيمن البائعات المحترفات في السوق على كل شيء «سأعد لك اليوم حساء لذيذا بالفلفل».

أخيرا تصل سيارة الأجرة، وألتقط مصباحي اليدوي لنهبط تلك السلالم المظلمة القذرة. في كل مرة أصعد أو أهبط تلك السلالم أتذكر العنزة التي تموت في نهاية المطاف لأنها مملوكة لأكثر من شخص. يفتح السائق الباب الخلفي فلا يظهر أي نور داخلي. أشعل مصباحي في المكان المفترض أن ينبعث منه الضوء فلا أرى إلا خيوطا متشابكة، ولكي أطمئن إليوا أقوم باستعراض؛ فأسلط النور في وجه السائق الذي يأخذ في الاحتجاج.

«أرجوك، لا تسلط النور في عيني، ما خطبك؟».

«أريد أن أتمكن من التعرف عليك في الصباح».

«لأي سبب؟».

«لا شيء. قد تدعو الحاجة إلى ذلك». ثم أتحرك إلى مقدمة السيارة وأسلط ضوء كشافي على لوحة رقم التسجيل.

«لم يكونوا ليوافقوا على حضوري إلى منطقة الناس المهمين هذه لو كنت من ذوي المشاكل».

«هل تعرف أنه يعد مخالفا للقانون عدم وجود أضواء داخلية في السيارة، وذلك حسب نص المادة السادسة بعد المائة، من القسم السادس عشر من الفصل الثامن والأربعين من قانون الجنايات؟».

«لم أخالف القانون، فقد تعطل النور وأنا في الطريق إلى هنا».

لا تختلف كذبته كثيرا عن كذبتي، ولكن لدي أفضلية: أعرف أنه يكذب، بينما هو لا يعرف عني ذلك، وكان الخوف باديا عليه.

«إذن. أول ما ستفعله غدا صباحا هو الذهاب إلى الميكانيكي لإصلاح النور».

«حاضر يا أوجا».

لكي أؤكد على تفاهمنا المشترك أمنحه بقشيشا بعشرين كوبو، وألتفت إلى إليوا التي أجدها قد انكمشت على نفسها في نهاية الكرسي «ستكونين بخير يا حبيبتي».

«أرجوك، أيها السائق. شغل المحرك ودعنا نذهب».

سأستمر في بذل المحاولات معها إلى أن أجد سببا ينفع معها.

لم أقتنع مطلقا بالنوم مع الناس. يتعين على الرجل أن يفيق ليجد نفسه في سريره الخاص به.

وكذلك شأن المرأة، ولايجب أن يحرمهم أي شيء يفعلونه قبل النوم من التمتع بهذا الحق.أنا بكل بساطة أشمئز من مجرد فكرة أن أصحو من النوم لأجد بجانبي شخصا عاريا وغيرمثير للشهية. ليس هذا الأمر بعادل لي ولها أيضا. لهذا لم أساوم قط على حقي في استعادة امتلاك بيتي وحريتي بالكامل. أن أستحم وأذهب إلى سريري، بمفردي، فإن ذلك يبدو لي مطلبا بسيطا، واضحا، ومعقولا. ولكن العديد منهن يرين في ذلك إهانة شخصية بالغة لهن، وبدوري أجد تلك النظرة شاذة للغاية. مثل هؤلاء النسوة هن ألد أعداء أنفسهن.

تعتقد إليوا أنني لا أحبها بما فيه الكفاية، ومن ناحيتي أرى العكس تماما، فأنا مغرم بالفتاة بدرجة كبيرة، وبصورة أكثر من أي شخص أذكر أنني أبديت له محبة منذ وقت طويل. أما أسلوب ممارستها للحب فمثير للغاية، فهي لا تمارس أي حيل، في الوقت الذي تتكور فيه ببطء إلى أعلى مثل جسر معلق، بينما رأسها وقدماها مغروزة في نهر الفراش كما أعمدة من الصلب. يتبع ذلك إشارات مختلطة، تهزك كما يفعل عامل منجم ينقب عن الذهب بغرباله. عندما نتفق على النوم منفصلين تكون علاقتنا في أحسن حالاتها. إنها حقا فتاة غاية في الروعة.

من ذاك الذي اخترع «دش» المياه الساخنة؟ إنه من ضمن الأشياء التي يتعين على المرء أن يعرفها، ولكنه لا يفعل إطلاقا. نحشو أدمغتنا بكل أنواع المعرفة غير المفيدة، في الوقت الذي لا

نعرف فيه العبقري الذي اخترع «الدش»، ودباسة الورق... فلنثن الآن على المشاهير من الرجال، وعلى آبائنا الذين أتوا بنا إلى هذه الحياة، عدا أن آباءنا لم تكن لهم شهرة في مجال الاختراعات. لكل هل يهم ذلك؟ لقد علَّم الفرنسيون صنيعتهم الأفارقة أن يرددوا النشيد يا آباءنا الغاليين... ولم يمنع ذلك سنغور أن يصبح شاعرا أفريقيّا عظيما... إنه خلف حقيقي لأولئك الزنوج المنتمين إلى العرق الغالي!

لا بد لي من الذهاب إلى العمل، وذلك شيء آخر يخص النوم مع الآخرين. فهو يمنع المرء من القيام بعمله. وإذا أردنا تحسين مستوى أداء آبائنا في ميدان الاختراعات فلا بد من أن نتعلم الفائدة الجمة من العمل الجاد. لا مجال لأن أكتب افتتاحية الغد وإليوا تحتضن بيديها حجري الندي. لا ينفك كريس يحاضرني حول عدم جدوى افتتاحياتي النارية. لن تحقق بها شيئا... إنها تثير عدائية الجميع... ما هي إلا مقالات مغلفة بالموت... غير منتجة. مسكين كريس، لا بد أنه يؤمن أيضا بهذه الترهات. عجيب ماذا يفعل شهر واحد فقط في السلطة بعقل الرجل. أعتقد أنني سأجبره في أحد الأيام على الجلوس أمام سبورتي، وأشرح له العديد من افتتاحياتي النارية الصائبة، تصرفي حياله حتى الآن هادئ جدا. لكن لنفرض أن مقالاتي النارية تثبت أنها غير ذات جدوى، أليس من المفترض ألا أستمر في كتابتها؟ يحيرني مجرد التفكير في أن كريس لم يعد قادرا على فهم هذا المنطق! وربما كنت مترددا في مواجهة التغيرات التي حصلت لأصدقائي. ربما عليَّ أن أتعلم التعامل معه حسب منطقه، وأنعش ذاكرته بعديد

النجاحات التي حققتها افتتاحياتي النارية، غير أنه توجد خطورة كبيرة في القيام بذلك.

سيعمل أولئك المسيطرون على زمام أمورنا على وأد انتقاداتنا في مهدها بإيهامنا بأن في حوزتهم حقائق لا تتوافر للآخرين من أمثالنا، وأعرف أن من المحتم التعامل معهم بشروطهم. فسلاحنا الأفضل ضدهم ليس تجميع الحقائق، وهو الأمر الذي يجيدونه، بل هو العاطفة. العاطفة فيها قوتنا وأملنا، وهي تساعد كثيرا عند الشدائد. عندما استلمت رئاسة تحرير الجازيت من كريس لم يكن لدي أي رأي حول عقوبة الإعدام، وحتى لم يكن لدي اعتراض حول تنفيذها علنا. لو اضطررت للتصويت فربما كنت سأصوت ضدها بالغريزة، ولكن من دون تحمس. ولكن تغيرت نظرتي إلى ذلك عشية ذات يوم، لقد تحولت إلى محارب عاطفي. قال عني كريس إنني رومانسي، وإنه ليس لدي اتصال وثيق بالبسطاء من شعب كانجان، وإن شعب كانجان البسيط يؤمن بقوة أن العين بالعين، وأنه بكل المقاييس يستمتع بالعرض الذي يثير اشمئزازي.

حسب كل الروايات! بل حسب رواية واحدة وهي روايتي، فإن كريس لم يذهب مطلقا إلى العرض، بل أنا الذي ذهبت. وبحق الإله لقد كان محقا بخصوص المتعة، لقد تمتعوا بالعرض! ولكن شكرا للإله مرة ثانية، فقد كان مخطئا تماما.

ما إن حلت الساعة الثانية حتى تجمهر الناس ولم يبق موضع لقدم على الشاطئ. لا فوق الرمال البيضاء الساخنة، أو فوق كتل الجرانيت السوداء المكونة لحاجز الأمواج الممتد داخل البحر. في

الأيام العادية يوجد هناك فقط من لديهم هوس الانتحار. يتسلقون تلك الصخور الضخمة التي تصد الأمواج المتلاطمة وكأنها قد سكنت حركتها بفعل خط وهمي أمام السرادق الملكي. و لكن هذا ليس بيوم عادي، إنه يوم اهتاج فيه الناس العاقلون بطبيعتهم، واشتمل الجمع الموجود على شاطئ البحر المحفوف بالمخاطر على عدد لا بأس به من النساء، وحتى الأطفال.

كان أفراد طاقم الفريق التلفزيوني الرابضون فوق برجهم المتحرك موضع إعجاب من قبل الحاضرين وهم يوجهون آلاتهم من أحد جوانب المدرج إلى الآخر، ملتقطين كل الألوان الفاقعة تحت تلك الشمس الساطعة - الأصفر والأحمر والأبيض والأزرق - وخاصة الأزرق، وهي ألوان أصباغ أنديجو النيلية. أخذ الناس يبتسمون ويرسمون تعبيرات على وجوههم وهم يلوحون إلى آلة التصوير. المكان الوحيد الذي كان شاغرا هو المنصة وعليها كراسي مخصصة للأشخاص المهمين جدا، وقد نصبت فوقها خوازيق أربعة ستستعمل لشد المحكومين عليها، وثبتت بزكائب مملوءة بالرمال. حرارة الشمس المضمخة بالملح والبخار تسقط بقسوة على جباهنا، مما جعلنا نستعمل أيدينا لوقاية أعيننا. أما بالنسبة لبعيدي النظر من أولئك الذين أحضروا مظلات فلم يتمكنوا من استخدامها من دون أن يعيقوا رؤية الآخرين. بدا أمامي شجار بسيط ولم يتوقف إلا بعد أن طويت المظلة.

«أرجو المعذرة» قال صاحب المظلة المحب للسلام، «وربما من الأفضل أن أستعملها كعكاز».

«حسنا تفعل. فلم نأت هنا مشيا والشمس تشوينا من أجل النظر إلى مظلة».

بدأت أعتقد أنني ربما قد تصرفت بحماقة عندما رفضت دعوة للجلوس على أحد هذه الكراسي المعدودة المريحة، التي تبدو لي الآن باردة بشكل مرغوب، ولا يكاد يجلس عليها أحد بعد. أليست الميزة الأفضل للشخص المهم جدا أن حصته من الأشياء الجيدة دائما في انتظاره، بينما هو قابع يتمطى في برودة بيته في الوقت الذي يضطر فيه الفقير إلى الخروج في الشمس يشقى ويعرق تحتها من أجل كسرة الخبز؟ انظر إلى كل هذه الكراسي الوثيرة الشاغرة! كيف للفقير أن يحتفظ بهدوئه في ظل هذا الاستفزاز؟ من أي آبار غائرة يأتي بالصبر؟ لا بد من أن تقوم حاسة الفكاهة لديه بتفسير هذا الأمر، ولا بد من أن هذه الحاسة التي عادة ما تنقلب ضده هي التي تمنع عنه الاكتئاب الكامل. لقد تعلم أن يعتصر ما يستطيعه من قطرات المتعة من حظه الحجري، أما الأحمق الذي يضطهده فيعلق على ذلك قائلا: كما ترى فهم لا يشبهوننا إطلاقا. إنهم ليسوا بحاجة ولا يستطيعون أن يستعملوا وسائل الترف التي لا بد من أن نحصل عليها أنا وأنت. إن لديهم مقدرة الحيوانات على تحمل ما يمكن أن نسميه بألم التدجين. هذه كلمات السيد الأبيض التي قالها عن العرق الأسود بشكل عام، ونحن بدورنا نقولها عن الفقراء.

لكن حتى الفقير بإمكانه نسيان موضوع الدعابة، ليصبح مضحكا بالكامل في عملية معاناته. لقد عوقب بكل قسوة

خلال هذه العشية على الشاطئ، وأخذ يضحك حتى بانت لثته الوردية. ظللت أنصت بألم لأقل صوت يصدر عن سلاحه المخبأ في طيات تلك الضحكة الرنانة، ولكنني لم أسمع شيئا. إذن فقد كان كريس على حق. لكم أتمنى، من أجل تلك السنين التي عرفته وأحببته فيها، ألا يأتي ذلك اليوم أبدا الذي يكون فيه محقا بهذا الشكل.

لم أتوقع مطلقا أن تتفوق السلطات في أمور الذوق، ولكن طقوس القذارات التي ارتكبتها في هذه العشية قد فاجأتني بالفعل - من إلصاق إشارة (على صدر المحكوم للتصويب عليها، إلى ذلك القس الذئب المتسلل في ثوب نعجة يتمتم في اذن المحكوم بتجديف لا يعلمه إلا الله، إلى الطبيب يهرع حاملا سماعته الطبية إلى جسم المعدوم المحطم، المملوءة بالثقوب، يتنصت بقصد فوق علامة التصويب؛ ليشير بعد ذلك بوهن وبطريقة علمية إلى أن كل شيء قد انتهى. استدعه غدا لعلاج حالة إنسانية وسترى كم هو بطيء! ومكلف في الوقت نفسه! إن ما قامت به السلطة وسدنتها على الشاطئ في ذلك اليوم قد فاق كل توقعاتي.

لكن ما أزعجني ذلك اليوم لم يكن السلطة التي لم أعبأ بها في أي يوم، ولا موظفوها التافهون، وليس حتى الأربعة الذين مثل بهم، بل كان آلاف الضاحكين بشكل سمج على القتل والإهانة التي تمت بحق أنفسهم. بينما اقتيد الرجال الأربعة خارج السيارة السوداء، فإن الصياح الذي ارتفع لم يكن كأي صوت سمعته من قبل. كان صياح ترحاب، ولكن ترحاب بمن بحق المسيح؟

كان الرجال الأربعة مختلفين مثل اختلاف أيام السماء الأربعة: أحدهم فقد المقدرة على المشي كلية مما اضطر اثنان من رجال الشرطة إلى حمله معا إلى العمود، ومقدمة سرواله مبللة بالكامل. والثاني يبكي بشكل مثير للشفقة وينظر خلفه طوال الوقت. هل كان يقوم بذلك ليتجنب النظر إلى تلك الأعمدة الضخمة المغروسة في الخرسانة، أم أنه يتوقع منقذا أخذ عليه عهدا في الواقع أو في الحلم بأن يكون هناك عند الساعة الحادية عشرة؟ كان للثالث عيون جافة ومشية ثابتة، ويصرخ بصوت عال جدا وبيأس إلى درجة أن العروق والأعصاب على رقبته تكاد تنفجر. وعلى رغم أنه قد غادر السيارة منذ لحظات إلا أنه كان يتعرق بغزارة كمن يقود عربة يدوية في سوق جيليجلي. الرابع كان أميرا بين المجرمين، وتقول الشرطة إنه قد تملص منهم لمدة عامين بعد أن ارتكب ثلاث جرائم قتل واتهم بالرابعة. كان يلبس بدلة دانشيكي حريرية بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية مع سروال ترلين أزرق أنيق. مظهره ومشيته المنتصبة بازدراء ترد على الاستخفاف وصيحات السخرية والشتيمة الصادرة من الجمهور، وتلهب سخطه بصورة أكثر. وفّر أنفاسه إلى تلك اللحظة المناسبة حين سكنت بصورة مفاجئة صيحات الجمع المحمومة لرغبتهم في سماع أمر الرمي الصادر عن الضابط المسؤول. خلال هذا الصمت القصير صاح بصوت ثابت وعالٍ: «سأولد من جديد!» قال ذلك مرتين، وربما ثلاثا، فقد تلاشت الثالثة وسط الصيحات التي انفجرت من جديد بالسخرية والنكات البذيئة، وبصوت عالٍ كأنها تعويض عن

الحقيقة المرة لذلك الصمت المخيف الذي وجدنا أنفسنا فيه عندما صاح، كأنه رعد صادر عن السماء: لا تتحركوا ولتعرفوا أنني أنا الرب.

«ستلدك عنزة في المرة القادمة، وليس امرأة». صاحت السيدة التي تقف أمامي مباشرة.

في تلك اللحظة بدت علاقتي المبهمة بذلك الجمع كأنها قد انفصلت تماما، وعرفت عندها لو أن أمهم نفسها قد قُبض عليها من رجليها وجُرجرت بينهم كأنها قطعة قماش بالية لكانوا صاحوا بالشيء نفسه وعيونهم تملؤها دموع الضحك. لا أزال أسأل نفسي كيف يمكن لأي امرىء أن يضحك للتصريح بهذه اللعنة الفظيعة، أو أن يفشل في رؤية الخطر المحدق الذي سيحدث لو تحققت، فقد كان من الواضح أن كلمات اللص - التي أطلقها بقوة ورباطة جأش في ذلك الحشد المُهستر قبل دقائق فقط من تلون قميصه الحريري الأبيض باللون الأحمر، ومن سقوط رأسه المغطى بالقناع على صدره - هي كلمات أعظم منه، وأنها كلمات ذات نبوءة فعلا. إذا كان يمكن تخطئة الرؤيا التي صرح بها في لحظاته الأخيرة بأي شكل؛ فذلك لأنها وضعت مسألة بعثه من جديد في الزمن الآتي وتلك حقيقة مثبتة لا غبار عليها. ألا يمكن أن يكون واقفا هناك وسط هذا الجمع المبعثر وقد تقدم به العمر، مرتديا الحرير والترلين المسروق؟ مع كل أمثاله الذين لا يمكن حصرهم. أليسوا مجرد منافسين للآخرين الذين سرقوا منا أكثر من الحرير والترلين. القادة الذين سرقوا ثرواتنا في وضح النهار، والذين تلوثت روحنا الوطنية بما ارتكبوه من فاحشة.

الذكرى الطيبة الوحيدة التي أحملها عن تلك العشية هي أن السيدة التي أمامي تقيأت على ظهر صاحب المظلة، واضطرت إلى تنظيف القيء بمنديل رأسها المصنوع من الحرير الدمشقي. حيث أعتقد أن ذلك حدث لكثيرين مثلها في هذا الجمع، ينظفون قذارتهم بملابسهم الثمينة. من المؤكد أن الكثيرين قد أغمي عليهم، على رغم أن مراسلي صحيفتين عزوا ذلك إلى الشمس المحرقة، وبالمناسبة فقد أفادوا بأنه يوم نشط فيه اللصوص، ويعتبر ذلك إعادة تجسيد للص الأمير.

في اليوم التالي كتبت افتتاحيتي الهجومية الأولى، مطالبا الرئيس بأن يصدر قانونا يلغي به القانون الذي سمح بمثل هذه الفظاعات القذرة.، وكتبت الافتتاحية بانفعال شديد حتى أنني وجدت نفسي أنهيها بترنيمة من آية واحدة على نفس نغمة ترنيمة (أيها الرب كلماتك أبدية):

أسوأ تهديد من رجال الجحيم
ليس أن تصرفاتهم بالغة القسوة
الأسوأ هو أن نسير على خطاهم
ونتصرف بقسوة أكثر منهم

ترنيمة سيئة، كما هي الحال مع أغلب الترنيمات الدينية، ولكن الناس أخذوا يرددونها غدوا ورواحا في شوارع باسا. انتقد كريس النبرة التي استعملتها في مقالتي، وكذلك أسلوبي الذي يعوزه التكتيك، حيث بدوت وكأنني أصدر الأوامر لفخامته. ولكن عندما قام فخامته بالتصرف كما طلبت منه تماما اضطر كريس إلى الإتيان بنغمة جديدة فجأة، لم يكن لافتتاحيتي أي علاقة

بالقانون الجديد. وقد توصل فخامته - من تلقاء نفسه - إلى خلاصة مفادها أنه سيحصل على بعض المكاسب بإلغائه القوانين غير الشعبية الصادرة في العهد المدني، ولم تكن تعديلات تنفيذ أحكام الإعدام بصورة علنية إلا أحدها. لقد كان هذا هو كريس نفسه الذي عنفني لعدم معرفتي بأن الإعدامات العلنية تعتبر إحدى الرياضات الشعبية.

لمدة عام أو يزيد من تلك الأحداث، قاومت بنجاح اقتراحات كريس بكبح جماح افتتاحياتي، لكن إلى متى يمكنني أن أستمر في ذلك؟

«طلبتك في مكتبك ثلاث أو أربع مرات». يقول ذلك لي بمجرد دخولي. إنه لا ينظر إليّ ولكن إلى حزمة من الورق المطبوع التي كان ينططها بين راحتيه على طاولة المكتب محاولا تصفيفها «أفهم أنك تطالبني بأن أشرح لك سبب عدم وجودي في مكتبي».

«لا تكن سخيفا يا «آيكم»، أحاول فقط أن أقول لك...».

«حسنا يا سيدي. لقد اضطررت إلى الذهاب إلى شركة الأسواق لتأجير بطارية، ولكي يضعوا بطاريتي تحت الشحن لمدة أربع وعشرين ساعة. أعتذر عن ذلك».

«طلبتك لأتحدث معك حول افتتاحية هذا اليوم». هو لا يزال ينظر بعيدا عني، ولكن من الواضح أن الانفعال البادي على وجهه وفي نبرة صوته كان يتنامى، على رغم الهدوء. لا يبدو أن باستطاعتي إثارة غضبه هذه الأيام، بل انفعاله فقط.

«ماذا عنها؟».

«ماذا عنها! هل تعرف يا «آيكم»، لقد توقفت عن محاولة فهم ما أنت بصدده. حقا لقد توقفت عن ذلك».

«ممتاز! وأخيرا!».

«كيف يمكنك الاستمرار في إثارة المشاكل الغبية لنفسك وللآخرين؟».

«لاتبالغ في الأمر! تكلم عن نفسك فقط يا كريس، أما أنا فبإمكاني الاهتمام بنفسي. أما بالنسبة إلى افتتاحياتي، فطالما بقيت محررا للجازيت، لن أطلب الإذن من أحد حول ما أكتب، وقد اخبرتك بهذا من قبل عدة مرات، وإذا لم يعجبك ذلك فأنت تعرف ما يتعين عليك عمله يا كريس، أليس كذلك؟ أنت الذي عينتني، ألم تفعل؟».

«دعني أقول إن مسألة طردك يمكن أن تكون أقل مشاكلك الآن، لأنه يجب أن يكون لديك تفسير مناسب لتقوله لفخامته. السبب الوحيد الذي طلبتك من أجله هو احتمال أن يستوضح مني أولا، وأرغب في أن أخبرك من الآن أنني قد سقمت، وتعبت من اضطراري إلى الدفاع عنك في كل يوم خميس».

«الدفاع عني؟ يا للسماء! ومن طلب منك الدفاع عني؟ ولأي سبب؟! على كل حال يبدو لي أنك تشغل نفسك كثيرا يا كريس».

«لا عليك، لن أقوم بذلك بعد الآن. ومن هذه اللحظة يمكنك أن تفعل ما تريد، ولتحترق بنارك».

«أشكرك يا سيدي. إذا لم يكن هناك شيء آخر، هل باستطاعتي الذهاب الآن».

«يمكنك. بكل تأكيد!».

«كان ذلك قصيرا وممتعا». تقول سكرتيرته المطلية بالزينة الموجودة في المكتب الخارجي. ولأنني لست في أحسن حالاتي، فقد حملقت في وجهها وصفقت باب مكتبها خلفي بقوة. ولكن بعد بضع خطوات في الممر أتذكر ما كان يجب أن يكون ردي عليها، لكن أوانه قد فات. شيء مثل «لقد طرق سمعي أنك تفضلينه طويلا ومؤلما». توقفت عن السير، قلّبتُ الأمر لوهلة في ذهني، ثم غيّرت رأيي وواصلت المسير.

معروف عن هذه الفتاة أنها لا تحيل المكالمة إلى كريس حتى تقوم السكرتيرة في الطرف الآخر بوضع رئيسها على الخط. يبدو أنها تؤمن بأنه يعتبر خرقا خطيرا للبروتوكول أن يحيي الوزير المحترم أحد المساعدين. لست أدري لماذا يتحول كل شيء في هذه البلاد إلى صيغ روتينية من طقوس المنازلات. يجب على بطل الوزن الثقيل أن يبقى في غرفة تغيير الملابس ولا يُظهر وجهه قبل أن يحضر متحديه لفترة طويلة على الحلبة. لا بد من القول إن هذه اللعبة التحزيرية بعيدة عن طبيعة كريس، ولهذا السبب لا بد من أنها تتم من دون علمه. لكن متى يتعلم هذا الرجل أن السلطة أشبه بمن يتزوج عبر نهر النيجر، فسرعان ما تجد نفسك تُجدف في الليل.

يبدو كأن كريس قد عذّب نفسه دونما سبب، فد انقضى أسبوع من دون أن أتلقى أي طلب حضور من أولئك المراسلين الخاصين بالقصر الرئاسي. لم تقف أي سيارة جيب خضراء تتبع الجيش أو زرقاء تتبع الشرطة أمام مبنى الصحيفة، أو حيث أقطن. ومن الطبيعي أن كريس يشعر بالخجل الآن. من يجرؤ

على لومه؟ لا بد من أن أذهب إلى بيته هذا المساء، لأرى إذا كان بإمكاني أن أخفف عنه قليلا.

عبادة الدكتاتور شيء غاية في الإزعاج. لن يكون سيئا جدا إذا كان الأمر يتعلق بقيامك بالرقص على رأسك، فبقليل من المران يمكن لأي شخص أن يقوم بذلك. المشكلة الحقيقية تكمن في عدم معرفتك من يوم لآخر، ومن لحظة لأخرى، ما الذي فوق وما الذي تحت. يبدو أنه عندما كان كريس في القصر آخر مرة قال عظيم الشأن بصورة غير محددة إنه سيزور أبازون. وشعورا منه بالواجب، نقل كريس تلك الأخبار إلى الجميع بمن فيهم أنا. ولكن في الوقت نفسه أغفى عظيم الشأن قليلا، وعندما أفاق نظر للأمور بطريقة مختلفة وقال: «لا يجب أن أذهب لزيارة مواطني المخلصين في أبازون». فألغيت كل الترتيبات على الفور. ذلك أمر عادي، غير أن أحدا لم يُعلم جناب الوزير بشيء، وهو المسؤول عن بث تلك المعلومة المهمة على مقاطعات الإمبراطورية الأربع، وعليه فقد وُضع كريس المسكين في مأزق حرج.

لم يخبرني أحد بشيء أيضا، ولكن الفارق الكبير بيني وبين كريس هو أنني لا أتوقع مطلقا أن يخبرني أحد بشيء. حدث أنني كنت أنظر إلى الأمر بطريقة معينة، وأشعر بقدر من الحرية كصحافي، سهرت في تلك الليلة بعدما غادرتني إليوا في التاكسي. وصرت أجمّع أفكاري. باستمرار أقول لكريس إن الحياة أبسط بهذه الطريقة. أبسط بكثير. توقف عن النظر خلف ظهرك فلا يوجد ثمة منقذ قد تأخر قليلا عن الحضور. تقدم إلى منصة الإعدام مثلما يفعل الرجال واستقبل الرصاصة في صدرك فهذه الطريقة أسهل بكثير.

لكن السخرية في هذا الموقف هي أن طريقتي الخاصة أكثر نجاعة حتى إذا قيست بمقاييس كريس. فكم من المرات تمكنت من قراءة أفكار عظيم الشأن أكثر من كل رجال الحاشية؟ ومن يدري، فقد أُتهمُ عما قريب بممارسة السحر، أو أن لي اتصالا مباشرا بالقصر! لأنه لا يُعقل أن أتمكن أنا من كوخ تنسّكي في الغابة بالتكهن بما يدور في خلد الإمبراطور أفضل مما يفعل المتزلفون المسحورون المحيطون به يوميا. لكن في الحقيقة الأمر غاية في البساطة، فقد يكون الإمبراطور أحمق، ولكنه ليس وحشا. ليس بعد على أي حال، على رغم أنه سيتحول إلى وحش بعد أن ينتهي منه كريس وجماعته. ولكن شكرا لله لأنه لا يزال على ما يرام في الوقت الراهن، ولهذا السبب ما زلت أؤمن بأنه يريد أن يفعل الشيء الصحيح. أعرف أن بعضا من زملائي، بمن فيهم كريس، لا يوافقون على رأيي هذا، ولكنني واثق بأنني على حق، وواثق أيضا بأنه لا يزال في إمكاننا إنقاذ سام إذا صممنا على ذلك. إن مشكلته تكمن في أن كثيرا من النفعيين يلتفون حوله مثل ذلك النائب العام بأساليبه الملتوية المشبوهة، وبذلك لا توجد لديه فرصة لمعرفة الحق. وهذا ما يجب أن نقوم به أنا وكريس، أن نجعله يلقي نظرة من خلال الشقوق في ذلك الحائط المصمت من مهرجي بلاطه. نحن الذين عرفناه أكثر من الآخرين لا يجب أن ندخل في منافسة معهم. لقد سلطت ما أمكنني من ضوء من خلال عدد من الافتتاحيات التي أثارت جدلا، وأستطيع أن أفعل المزيد إذا تعاون معي كريس. لو أن سام كان أكثر قوة وذكاء لما احتاج إلى مساعينا هذه، ولكنه على الأرجح لن يكون

صاحب الفخامة حينها. أنصاف العاقلين فقط هم الذين يتورطون في مثل هذه الأعمال الشنيعة.

أعتقد أن لدى كريس نظرية جيدة جدا فيما يتعلق بالكفاءة العسكرية. طبقا لتلك النظرية، فالحياة العسكرية تجتذب نوعين من الرجال، الأقوياء الحقيقيين، وهم نادرون للغاية، ثم النوع الذي سيصبح قويا فيما بعد. يصبح أفراد المجموعة الأولى جنودا رائعين، ويظلون كذلك لا يظهرون قوتهم، فما بالك بالتباهي بها، والنوع الآخر موجود هناك للاختيال بها فقط. استوعبت حقيقة هذا الأمر فيما بعد من خلال حادثتين منفصلتين، ومدعاة العجب أن كلتيهما قد حدثت في سوق جيليجلي. كان أحد السكارى المشاكسين يترنح ويسعى إلى شجار مع غريب ضخم الجثة، يحمل في يده حقيبة صغيرة، يبدو أنه كان في طريقه إلى موقف السيارات. أعتقد أن الثمل كان يرغب في الحصول على حقيبة الرجل، وربما حتى ملابسه الشخصية. كان كل من في السوق يعرف الثمل؛ لأنهم نصحوا الرجل القوي حامل الحقيبة بالشيء نفسه وقالوا له: «إذا لم تتعامل مع هذا الأحمق بحذر فقد يزعجك ويؤذيك من دون حدود». ولكن الغريب كان حريصا على تلافي الاحتكاك بالثمل الذي يقلقه أكثر من حرصه على الأخذ بنصيحة الجمهور، ما أدى إلى انزعاج عدد كبير من الناس. ولم يروا سببا لأن يترك ذلك الرجل سكيرا أحمق يضايقه بتلك الطريقة المزعجة، إلا إذا كان لديه فعلا عيب ما، إذ ربما لا يملك الملابس التي يرتديها. في تلك اللحظة تعرف أحدهم على الغريب وكان قد حضر لتوّه،

وقال إنه الشخص الذي فاز ببطولة كانجان في المصارعة ليلة البارحة. «لا مثار للعجب إذن».

قال أحد الأشخاص بصوت عادي فيه تسليم بالحقيقة، وبدا على بقية الحضور أنهم قد تفهموا الأمر أيضا. كنت غاية في العجب من سعة إدراك الجمهور.

جرت الحادثة الثانية في موقف السيارات نفسه، كنت جالسا في سيارتي أقرأ، منتظرا صديقة لي تضفر شعرها في الظل أمام صالون الحلاقة، في أرجاء الموقف وحول السيارات المتوقفة كان الباعة صغار السن يعرضون بضاعتهم من الملابس المستعملة، وهي معلقة على مجسمات خشبية. يحدث من حين لآخر بعض الهرج بصورة مفاجئة عند صدور إشارة سرية عن ظهور رجل شرطة أو مدير السوق، حيث يبدو أنه ليس من حق أي من هؤلاء الباعة الصاخبين عرض بضاعتهم في هذا القسم من السوق المخصص لوقوف السيارات. لم يستغرق الأمر سوى ثانية فقط من الحركة المحمومة إلا وكانت هذه المئات من الهياكل الخشبية المملوءة بوفرة بأشياء منبوذة من قبل ثقافات استهلاكية بعيدة تتوطن في الأماكن الباردة، قد تلاشت بعيدا تحت شمس منتصف النهار الساطعة. عادة ما تثبت إشارة الإنذار خطأها فيعود الجميع بأعجوبة ومن غير إبطاء مثلما اختفوا، مصحوبين بكثير من الضحك والفكاهة لاحتلال مواقعهم غير القانونية مرة أخرى. لا أدع أي فرصة تفوتني لأجلس فقط في سيارتي أقرأ أو أدعي القراءة، محاطا بتلك الحيوية والإثارة التي يسببها هؤلاء الناس المليئون بالدراما. بالطبع فإن جل سوق

جيليجلي عبارة عن ألف مسرح حي تقدم عروضها في الوقت نفسه. وعلى سبيل المثال، فالظل الذي تجلس فيه صديقتي جوي لتضفير شعرها مقرفصة فوق فرشة أرضية، وتضع رأسها على ركبتي الفنانة التي تمسك بين يديها الرشيقتين بخصلات من الشعر الأسود. هذا المنظر لا يخلو من المتعة، ولكنني أفضل دائما شباب الملابس المستعملة المليئين بالحيوية.

كانت صدمة كبيرة لي عندما مرقت سيارة عسكرية بكل عنف، وعشّقها سائقها للسير خلفا، قبل أن يكون لديها وقت لتتوقف عن السير إلى الأمام، ثم رجعت بسرعة كبيرة نحو الشاب الذي يعرض ملابسه، والذي تمكن في اللحظة الأخيرة من تفادي هجوم السيارة العنيف. ندّت صرخات من أنحاء المكان، فترجل السائق، وضغط على زر الإقفال، ثم صفق الباب بقوة. أخيرا عثر البائع الصغير على صوته وسأل بصوت خائف:

«هل ترغب في قتلي، يا أوجا؟».

«إذا قتلتك، أقتل كلبا»، قال الجندي بعنف وجدته صاعقا للغاية.

بطريقة آلية فتحت باب سيارتي وخرجت منها. أعتقد أنني كنت على وشك أن أقول للرجل إنه لا يوجد أي مبرر لقوله ذلك، ولكنني سعيد لأنني لم أفعل، فهناك أشياء لا يستطيع المراقب رؤيتها إلا إذا قاوم إغراء القفز داخل حلبة الصراع ولعب دور فيه. وعليه فقد راقبت ذلك الأحمق يذهب مبتعدا ويختال في مشيته بزهو يدل على جبنه، ثم عدت إلى سيارتي، ولكنني في الحقيقة كنت أغلي من الغضب. أما أصدقائي الباعة الصغار

فقد عمهم صمت مطبق، ولكن الشخص الذي كادت السيارة تدهسه، فقد ضحك بشكل مفاجئ وسأل:

«هل يعني أنه بعد قتلي مباشرة، سيذهب ويقتل كلبا؟».

وشاركه الآخرون الضحك.

«كلا. يعني أن قتلك هو مثل قتل كلب».

«وعليه فأنت لست كلبا... لم يلدك أي كلب».

ولكن الضحية تمسّك بتفسيره الخيالي، وقال: «لا، إذا قتلتك أقتل كلبا، تعني أنه بعد أن يفرغ من قتلي، سيذهب إلى بيته ويقتل كلبه».

وخلال عشر دقائق استعادت الحياة طبيعتها على أساس هذا التظاهر، بحيث إنه عندما عاد السائق إلى سيارته لقيادتها، قال له ضحيته منذ نصف ساعة مضت:

«تصحبك السلامة، يا أوجا». وقد صغّر ذلك من شأن السائق بصورة أكبر وإذا كان قد فهم المغزى فلم يرد بشيء. بعد ذلك شعرت بسعادة حقيقية لأنني لم أتدخل في هذا السيناريو المثالي.

أن يقال إن سام لم يكن ذكيا جدا، فلا يعني ذلك أنه كان مغفلا في الماضي، أو في وقتنا هذا. كان عيبه الأساسي هو أن كل ما يريد فعله هو ما يتوقعه الآخرون منه، وخاصة الإنجليز الذين كان يعبدهم إلى حد الحماقة، فعندما أخبره ناظر مدرستنا، جون ويليامز، أن الانخراط في الجيش هو مهنة الرجال المحترمين، تغاضى عن كل خططه ليصبح طبيبا، وأصبح بدلا من ذلك جنديا. أنا على ثقة بأن المثل القاسي

الذي ضربه زواج كريس بالأمريكية لويز - التي لم يتزوجها في نيويورك كما قد يتبادر إلى الذهن بل في لندن - هو السبب في عدم زواجه من الفتاة الإنجليزية «أم أم» التي عثروا عليها له في مدينة «سيوري». أظن أنه ليس مستحيلا على اثنين من الغرباء، أتيا من مكانين متقابلين على الأرض أن يخلقا نوعا من الصلة الروحية أساسها أن كليهما منفي إلى الجزيرة الصحراوية عينها. لكن لسوء الحظ فإن كريس ولويز لم يقيما أي صلة في الفراش أو في أي مكان آخر طوال الشهور الستة التي استمرت فيها علاقتهما.

معلمنا جورج ويليامز الذي كان يردد دائما جملته المفضلة «جيدة ومناسبة، ضاغطة، وبشكل وافر» وذلك في وصفه للعقوبة، ربما وجد سام أنها الأنسب فاعتنقها وانغمس في الدور بصورة طبيعية، أكثر مما لو أصبح طبيبا، على رغم اقتناعي بأن أخلاقه في الفراش كانت ستصبح لا مثيل لها. لكن بعد تخرجه في أكاديمية ساندهيرست أصبح نموذجا مثاليا للضابط. كان تعبيره المفضل بعد عودته إلى الوطن، يقوله بلهجة إنجليزية متقنة هو: «لم ينجز بعد».

ذهبت لزيارة سام في اليوم التالي لسماعي أخبار ترقيته إلى رتبة نقيب. كانت الساعة حوالى العاشرة من صباح الأحد. وجدته مستلقيا على الأريكة، مرتديا معطف نومه، وصحف الأحد مبعثرة حول المكان، وغليون لم ينته من تدخينه موضوع على الطاولة الجانبية. أما مدور الاسطوانات فتنبعث منه موسيقى موتسارت Eine Klene Nachtmusik بسرعة ٤٥ لفة في

الدقيقة على اسطوانة سرعتها الطبيعية ٣, ٣٣. تلك هي مشكلة سام. ليس بالذكي، ولكنه ليس بشرير، ولا يوجد لديه أي إحساس بالنغم. لا أظن أن هناك شيئا أكثر إمتاعا من الاستماع إليه وهو يحاول أن يحدث نغما بالصفير.

شيء آخر حول سام يجعل تقبله أمرا غاية في السهولة، وهو حاسته للمسرح، فهو ممثل في الأساس، ونصف أفعاله التي نلومه عليها - في العادة - ليست أكثرمن مشاهد يستخرجها من مستودعه، والتي قد لا يكون لها أي ارتباط أخلاقي على الإطلاق. كان مبهورا بالتقاليد الإنجليزية، وخاصة تقاليد الطبقات الراقية، وكان يستمتع بممارسة وتقليد بعض ممارساتهم التافهة. عندما أخبرني عن غليونه الأنيق وكيف أنه أمضى صباحا بأكمله لكي ينتقيه من محلات ماي فير أحسست بأنه لا يحمل نفسه محمل الجد، ولم يكن لدي أي مبرر لأن أفعل أيضا.

بالطبع يتعين على المرء أن يتساءل عن مدى ملائمة هذه التصرفات لرئيس دولة. لكن بصراحة شديدة فذلك لا يشغلني كثيرا. وفي الحقيقة فالهزل الثقافي الذي يبديه سام هو أقل خطورة من التعلق الشديد بالسلطة للعديد من الطغاة الأفارقة. مادام حَظي بالنصيحة المفيدة، ولا يسقط بقوة تحت تأثير الراسبوتينيين من أمثال ريجينالد أوكونج، فربما سنتجنب الأسوأ.

قد أكون متشائما أكثر مما يجب، ولكن تعامله مع أزمة الأطباء كان قد أعطاني الكثير من الشجاعة والأمل. لقد اكتشف

على الفور، كما اكتشفت أنا - بينما رفض كريس ذلك - أنه لم تكن أفعال الطبيب المجنون (ماد ميدكو) هي التي حرّكت هؤلاء الوجهاء للوقوف بقوة في وجهه. على العكس، فقد كانت جريمته هي تجرّؤه على الإيقاع بواحد منهم. يعترفون في العلن أن الدكتور «أوفي» قد لا يكون تصرّف وفقا لأصول المهنة، ولكن هل يعطي ذلك لشخص عادي، وبالأخص إذا كان أجنبيا الحق في تحريض أقارب مريض وافته المنية، ويصل حتى إلى حد تقديم المال لهم لرفع الدعوى ضد المستشفى الذي يعمل فيه؟ بالطبع فجوابهم عن سؤالهم البلاغي هذا الذي يُطرح لمجرد التأثير في النفوس، هو حرف «لا» كبير ومؤكد. أما إجابتي فكانت أيضا نعم قوية، وشكرا لله، فكذلك كان رأي فخامته أيضا. لنكون منصفين لكريس، فلم يختلف معنا حول قضية «أوفي»، لكنه اتخذ موقفا قانونيا وهو أن شكوى الأطباء من ملاحظات ماد ميدكو لا بد من أن يُنظر إليها على انفراد وطبقا لما تمثله. لا بد من أن النائب العام النفعي هذا قد قدم دروسا مجانية لكريس.

بصريح العبارة فقد جعل «ماد ميدكو» من نفسه أحمق بالكامل عندما قام بتلك الدعابات الكريهة. لم يكن عاقلا في أفعاله، أو في تأمين سلامته. ومن المفترض أن يعرف أنه قد خلق لنفسه أعداء بعد اصطدامه بالأطباء، وأنهم سينصبون الفخاخ في طريقه ليقتنصوا رأسه. أما هو فقد استجاب لهم خارج نطاق أداء الواجب وقدَّم لهم رأسه على طبق من ذهب.

عندما بدأت حملاتي الافتتاحية لمصلحته لم يكن لدي سبب للتقليل من موضوع استغلاله المجحف للذوق الرفيع، ولكنني كنت

مضطرا إلى أن أضع بجانب ما أكتب تصوّرا لذلك المسكين الذي ظل يتألم بشدة لمدة أربعة أيام بلياليها في قسم الجراحة، بينما أقاربه الملهوفون يركضون من المستشفى إلى قرية نائية، ليعودوا ثانية محاولين عبثا أن يجمعوا الخمسة والعشرين مانيلا التي لا بد من أن يحصل عليها الدكتور أوفي قبل إجراء العملية. تحدث كل الشهود عن صراخ الرجل الذي ملأ جنبات قسم الرجال وأمكن سماعه حتى في غرفة الطوارئ عند بوابة المستشفى. تحدثوا عن الممرضات اللائي فشلن في إسكاته، فيغادرن القسم لساعات ليحصلن على بعض الراحة في مكان آخر. وتحدثت ثلاث ممرضات عن محاولاتهن الاتصال هاتفيا بالدكتور أوفي، وعن تهديده باتخاذ إجراء ضدهن في حالة استمرارهن في إزعاجه في بيته، وعن تعليماته بإعطاء الرجل حقنة أخرى من الموروفين. وتحدث أمام لجنة التحقيق الطبيب الذي اضطر في النهاية إلى القيام بالعملية بعد أن تدخل ماد ميدكو، تحدث عند استجوابه عن تلك القطع الطويلة من المصران المسودة - أربع أقدام وربما ثمان - التي كان لا بد من استئصالها، وكيف أن الإجراء كان قد فات أوانه.

تلك هي القصة التي كان علي وضعها مقابل حماقة ماد ميدكو، لتقرير ما إذا كان علي الجلوس براحة وتركهم يطردونه خارج البلاد. لقد بدا لي أنه مهما تكن الحماقة التي ورّط ماد ميدكو نفسه فيها، فسيكون من غير المقبول أخلاقيا أن نترك أصدقاء الدكتور أوفي ينتصرون عليه، مهما كان هذا النصر رمزيا. ولحسن الحظ فقد رأى فخامته الأمور كما رأيتها. يقول عني كريس إنني إنسان عاطفي. حسناً، فلأكن كذلك.

ربما أكون متسامحا للغاية مع تقليد سام للإنجليز، وذلك لأنني أؤمن أن دكتاتورا ناشئا يمكنه تبني نماذج أسوأ بكثير من التمثل بالسادة الإنجليز في متعهم. لا يبدو لي أن بإمكان الإنجليز إيذاء أي أحد هذه الأيام، فبعد فترة طويلة من إخضاع المتوحشين في أراض بعيدة، اكتشفوا أن الوحش الأكثر خطورة يقع على الجانب المقابل من القنال الإنجليزي، فصارعوه وأوقفوه عند حده.

ولكن ثبت أن ذلك الجهد كان عظيما والتكلفة باهظة، ورغم أنهم برأوا أنفسهم بشرف، إلا أنهم قد أكدوا عدم قيامهم بذلك الأمر مرة أخرى. وعلى رغم أنهم وصفوا البطل المسؤول عن انتصارهم الباهر بأنه أعظم إنجليزي على الإطلاق، إلا أنهم تخلصوا منه في الانتخابات وأتوا بكليمنت أتلي بديلا عنه. مهما يكن الخوف الذي يجعل من شبح مقدرة الإمبراطورية البريطانية مسيطرا على الشعوب الصغيرة، فقد زال كل ذلك عندما قام إنجليزي مرتد وعصابته من اللصوص المعدودين بالسيطرة على مستعمرة جلالتها في روديسيا لمدة ثلاث عشرة سنة. كلا، فقد توقف الإنجليز لأسباب موضوعية عن تهديد وإزعاج العالم، والخطر الحقيقي اليوم يأتي من أمريكا، ذلك المليونير السمين المراهق، الجانح، ومن كل أصحاب النزوات ذوي الشخصيات الخبيثة المشوهة، مثل عيدي أمين وبوكاسا اللذين مُكنا على أفريقيا من قبل الأوروبيين.

أعتقد أن كل التغيير الذي طرأ على سام حدث بعد حضوره أول اجتماع له في منظمة الوحدة الأفريقية. زرته في القصر

برفقة كريس، ومجموعة أصدقاء آخرين، كما كنا نفعل مرارا في تلك الأيام، ولاحظت على الفور أنه لم يعد سام نفسه الذي غادر باسا لأسبوع خلا فقط. فيما بعد علق الجميع - كريس، ماد ميدكو والآخرون - على التغيير الذي حصل له. تحدث مثل صبي مبهور عن الأبطال الذين قابلهم، تحدث عن الإمبراطور العجوز الذي لم يبتسم قط، أو يغير من ملامح وجهه مهما كان الحدث الذي يحيط به.

«ربما لم يكن يسمعُ جيدا» علق ماد ميدكو.

رد فخامته «هراء، فسمعه ممتاز لأنني تناولت معه الإفطار في اليوم الخامس، وسمع كل شيء قلته له. إن لديه عقلا ينبض بالحيوية، ولديه حس فكاهة ممتعا بشكل لا يوصف».

قلت «إذن فهو يرتدي قناعه في أثناء الاجتماعات القبلية فقط».

«ليتني أستطيع أن أبدو مثله». قال فخامته متمنيا، وبدا أن أفكاره تحمله بعيدا. لو أن أحدا ما أخبرني عن هذا الأمر، وخاصة جملة ليتني أصبح مثله، لما صدقت الأمر. أن يتمنى شاب أن يبدو مثل رجل في الثمانين!

لكن القائد الذي تحدث عنه سام أغلب الوقت هو الرئيس نقونقو - أرجو المعذرة، الرئيس مدى الحياة نقونقو - الذي خاطب سام بفتاهُ، ودعاه إلى مقره لتناول المشروبات في اليوم الثاني. ليس لدي شك في أن سام قد تعلم لفظ كابيسا من العجوز نقونقو. في خلال أسبوع انتشرت هذه الكلمة بين أعضاء الوزارة، ثم إلى أفراد الطبقة الرفيعة في باسا. من هناك وجدت طريقها بسرعة إلى عامة الناس. ذات يوم قال لي السائق الذي

أوصلني إلى شركة الأسواق «شحنُ البطارية عبارة عن مضيعة للمال، ما إن تبدأ في إثارة المشاكل لك، فعليك بشراء أخرى جديدة، كابيسا!».

من غير المعقول أن يكون سام قد عاد من سفره بكلمة كابيسا فقط. قد أكون مخطئا ولكنني شعرت بأن استقبالنا في القصر قد أصبح باردا منذ ذلك التاريخ. نهاية اللقاءات الودية ليست مهمة في حد ذاتها، ولكن توقيتها هو المهم. عزوت ذلك إلى أن سام رأى للمرة الأولى إمكانية الدراما، ودوره فيها كرئيس دولة أفريقية، واتخاذه قرارا بضرورة التقوقع على نفسه لإتقان دوره ولتجهيز وجهه لهذا الدور.

الجزء الخامس

سأتناول المشروب نفسه. قال «آيكم».

يرد ماد ميدكو «اللعنة، ليس عليك في هذا البيت أن تتبع رئيسك اللعين، هيا اشرب ويسكي، أو كمباري، أو أي شيء - حتى الماء - لإغاظته فقط».

قال «آيكم»: «فات أوان ذلك، منذ البداية وجوردون دراي جن يستعمرنا. فكل علامات المقاومة قد فات أوانها وتبدو من دون معنى. سيكون الجن هو المشروب المفضل لدي إلى أبد الآبدين. آمين» كلمات مرحة ولكن لا أثر لأي مرح في نبرة الصوت، أو على قسمات الوجه.

«لست أدري من أين أتيت بالفكرة أن «آيكم» يتبع قيادتي، وأردد ثانية أنت آخر من يعرف ذلك. لن يطول الأمر حتى يجدوه ميتا. اعتقدت أن الجميع يعرفون ذلك بمن فيهم أنت».

«اقتفاء أثر قائد يقتفي أثر قائده يجعل المسألة تبدو كالسيرك». قال «آيكم» ذلك بنبرة اشمئزاز قوية.

ملأ ماد ميدكو كأسين بشراب الجن، وزاد من امتلائهما قطع الثلج التي التقطها بأصابعه من وعاء بلاستيكي، صب القليل من الماء في كل منهما وطلبت منه أن يضع المزيد في كأسي. ثم من صحن آخر يلتقط قطعتي ليمون، يضغطهما قليلا بين أصابعه قبل أن يسقطهما في الكأس، ثم يحرك الخليط. خلال عملية الإعداد تلك قام، مرتين أو ثلاثا، بلحس أصابعه، أو مسحها بمؤخرة سرواله الأزرق القصير. باستطاعتي رؤية إليوا، فتاة

«آيكم» الجديدة، مرتعبة في البداية ثم مفتتنة. إنها ترى ماد ميدكو للمرة الأولى على رغم أنها سمعت عنه الكثير من قبل. الجميع سمع عنه الكثير وربما تكون هذه المرة الأولى التي تنظر فيها إليوا إلى رجل أبيض عن قرب.

اسم ماد ميدكو الأصلي هو جون كنت، ولكن لم يعد أحد هنا يناديه بهذا الاسم، وهو يستمتع بهذا اللقب الغريب، أما المقربون من أصدقائه فيختصرون اسمه إلى أم أم. بالطبع فلا هو بدكتور، ولا بمجنون فعلي. وصفه آيكم ذات مرة بأنه مشروع شاعر مجهض، وأظن أن ذلك كان أقرب شيء يصف هذه الظاهرة التي اسمها جون كنت. وكلاهما، الشاعر ومشروع الشاعر على علاقة جيدة، كما يعرف الجميع، فإن أم أم كان على علاقة جيدة بفخامته. في البداية كانت صداقته له هي التي أحضرته إلى هذا المكان، عينه مديرا للمستشفى، وأنقذه منذ عام مضى من ترحيل مفاجئ إلى خارج البلاد.

يزداد افتتان إليوا وهي تستكشف منزل ماد ميدكو بعينين متسعتين من الاندهاش، نضارتها تروق لي كثيرا.. تلكز بييترس الآن بمرفقها وتشير إلى القول المأثور المحفور على الحائط، الذي يتوسط المشرب فوق صف الزجاجات مباشرة، وقد كتب بخط يكاد يكون صاحبه أميا، فتشاركها بييترس الضحك على رغم أنها سبق أن شاهدته أكثر من اثنتي عشرة مرة على الأقل. يلاحظ ماد ميدكو افتتان الشابة بالأمر، فيشرح لها أنه مدين لنادله سنداي الذي أوحى له بهذا الشعر:

كل شراب البيرة
التي يتجرعونها هنا
يجعل الخوف يتملكني

لو أن هذا الإلهام مصدره سنداي بالفعل، فلن يثبت ذلك؛ إلا أن الطيور التي لها شكل الريش نفسه، يضمها السرب ذاته. لأن لماد ميدكو عشقا بالكتابة على الجدران، والتي كانت سببا للوحالة (المشكلة) التي كادت، منذ سنة مضت، تكلفه عمله وإقامته في هذه البلاد لولا أن هب كل من فخامته وآيكم إلى نجدته، وهو ما يمكن اعتباره الجهد المشترك الأول والوحيد بينهما حتى هذا التاريخ. كان الأطباء على استعداد لتقطيعه حيا، ولا أزال غير ملوم لهم بالكامل. يصر آيكم على أن بعضهم اغتنم المناسبة ليعبر عن عداوات أخرى، ولكنني ما زلت أعتقد أن المقولات التي كتبت لا يمكن التغاضي عنها وذات ذوق بائس. فمقولة مباركون هم مرضى القلب لأنهم سيرون الإله لا يمكن اعتبارها مزحة مناسبة ليتم تعليقها في قسم مرضى القلب. قال أحد الأغبياء المدافعين عن أم أن نزلاء القسم هم إما أميون بالكامل وإما من الذين اشتد بهم المرض ليلاحظوا هذه المقولة؛ وعليه فلم يقع الضرر على أحد! أما مقولته الأخرى أمام قسم الأمراض التناسلية فكان يعلوها رسم لسهم ضخم يتوضع بين كرتين متلامستين موجه مثل إشارة مرور مجنونة إلى مدخل القسم، وكتب تحت الرسم: يقود إلى المدينتين التوأم سدوم وعمورة (السيلان) وأظن أن ذلك كان أسوأ من الأول.

«كيف حال فتاي العجيب؟» يقول أم أم «لا أحصل على أي فرصة لرؤيته هذه الأيام. أعتقد أن إنقاذ عجوز أحمق أخرق من الإبعاد هذه الأيام لا بد من أن يلقي بظلاله على أمتن الصداقات، على كل، كيف حاله؟.

بأتم خير قلت «يوم الجمعة الماضية وضع الوزارة بأكملها رهن الاحتجاز لساعة كاملة».

فعل ذلك؟ أمر مضجر. هل تعرف يا دك أن أسوأ شيء حول السلطة ليس كونها مفسدة ولكنها تجعل من ممارسيها مضجرين للغاية، يمكن التنبؤ بأفعالهم بسهولة و... غير مثيرين بالمرة. كان يتحدث إلى ضيفه الإنجليزي أكثر منه إلينا. قلت لكم عند مقابلتي له إن هذا الولد مثير للغاية. لم أر مطلقا مثيلا له في الإنسانية والثقافة. يهز دك رأسه بغير اهتمام. لم يقل سوى بضع كلمات خلال كل فترة العشية، ويشرب الجن مع الليمون كما لو أنه دواء ألكا سلتزر، لكن على العكس من مزاجه السوداوي فإن سحنته كانت مضيئة، تكاد تماثل سحنة فتاة، ليست مثل سحنة ماد ميدكو التي كان تأثير أشعة الشمس واضحا فيها. كان ماد ميدكو نفسه هو أول من نبهنا إلى ذلك عندما قدم لنا دك قائلا: «رجل أبيض في المناطق الاستوائية. يحتاج أحيانا إلى رؤية أناس جدد من قبيلته لتذكيره بأن لونه ليس خطأ ومرقطا، كما يبدو».

يتحدث دك الآن بطريقته الكئيبة. يجلس قبالتي في أقصى المكان من هذا المشرب ثلاثي الشكل، بينما يجلس آيكم والفتاتان بيننا إلى القسم الأمامي الأطول من المصطبة المقابلة لنادلنا

اليوم ماد ميدكو كان دك في هذه اللحظة يقول إن المقصود من فساد أكتون هو تطويق عملية (الديهيومورازيشن) إذا كان هذا التعبير موجودا أصلا.

«لا وجود لهذا التعبير في اللغة، ولكن مع ذلك فهو ضروري» يرد عليه ماد ميدكو بخشونة ثم يسألني: «ماذا فعلتم؟».

«ماذا؟»

«قلت إنكم احتُجِزتم جميعا».

«أوه هذا الأمر. كلا لم نفعل شيئا، وتلك هي المشكلة. فقد وصل إلى القصر الرئاسي وفد من أبازون - تعرف، المكان حيث تعم حالة الجدب - ولم يعرف أيا منا بقدومهم. فعل مشين. أليس كذلك؟ ولهذا غضب علينا صاحب الفخامة».

«هذا رائع». يقول ماد ميدكو، ثم يلتفت ناحية دك ويلعب دور العارف الحصيف أمام شخص مستجد: «تقع أبازون في الشمال الغربي، ولم تسقط فيها أمطار لمدة عام، وعليه يرسل المساكين هناك وفدا لفخامته ليمدهم بالمطر». ثم يستدير ناحيتي طالبا التأكيد على كلامه «هذا ما حدث بالتقريب؟».

«تقريبا». يرد «آيكم» قبل أن أقول شيئا.

«شيء عظيم». قال دك وقد استعاد حيويته، ثم أضاف: «وكأنه هندرسون محلي. أمر بالغ الإثارة. وماذا فعل بعد ذلك؟».

«يحتجز هؤلاء الأشخاص - تذكر، ليس الوفد وإنما أعضاء حكومته... لا بد من أن ذلك هو المعنى الأصلي لكلمة حكومة (Cabinet) أي الناس الذين تخزنهم في دولاب (Cabinet) خشبي

ها ها ها! إنك تدهشني يا آيكم، لقد كان لديك سبق صحفي ولم تستغله في اليوم التالي».

رد «آيكم»: «ل م ب خ»، ثم أضاف مبددا الحيرة التي ظهرت على بعض الوجوه «ومعناها ليس مسموحا بإذاعة الخبر». ضحكت الفتيات وماد ميدكو، أما دك فلا يزال في حيرة، ويقول: «لم أر بعد العلاقة بينهما».

«بين ماذا؟».

«الوفد القادم من السكان الصحراوي، والحكومة».

كنت سأشرح له، ولكن ماد ميدكو لديه تفسير أفضل. يرغمني على الصمت.

«انظر إلى هذا البريطاني، يا كريس، يبحث عن العلاقة بين الأشياء. لا توجد أي علاقة يا فتى. فهذه بلاد الزنوج، وليست مقاطعة ديفونشاير».

أقول له: «أووه. لا داعي للنزول إلى هذا المستوى. فليس من الضرورة أن المنطق يعوزنا أكثر من شعوب أخرى، بما فيها أنتم». ربما حوت نبرة صوتي على حدة أكثر مما يجب.

«هيا! هيا! فقد كان جون يمزح فقط». قال دك، وفي صوته نبرة مناصرة في غاية العدوانية.

«ألا ترى ما أعنيه؟» يقول ماد ميدكو قبل أن أدعي أنني كنت أمزح أيضا. «لم يعد هناك أي حس بالمرح. لا شيء على الإطلاق، فجميعهم مشدودو الأعصاب ووطنيون ملاعين سرعان ما يتخذون موقفا عدائيا. لا تستطيع أن تروي نكتة إذا كنت أبيض اللون. لو سمعت الألفاظ التي نعتوني بها، لأنني كنت

ساذجا في محاولتي إدخال البهجة على الكئيبين من قاطني أقسام ذلك المستشفى البائس. إمبريالي! عنصري أبيض! جاهل! أفضلهم من وصفني بأن لدي فوبيا الزنوج. هل تعرف معنى هذه؟ أنا لا أعرفها. أظن أنها تعطي عكس معنى محب الزنوج».

«لنواجه الأمر يا أم أم». أنا الآن في حالة إثارة. «هل كنت ستضع دعاباتك تلك، لو كنت في مستشفى إنجليزي؟».

«بالطبع لا، ولم أقل أبدا أنني سأفعل، ولكن أولا ليس من المفترض أن يكون للإنجليز حس الدعابة. وهذا المكان ليس بانجلترا. أليس كذلك؟ انظر إلى خارج المكان. ماذا ترى؟ ابتهاج! حياة! حيوية. تقول لك: تعال الى الخارج والعب، مارس الحب، عش! وقاتمو الوجوه هؤلاء، المقلدون للبورجوازية الصغيرة في أوروبا الذين أفسدتهم كلية ساندهيرست وكلية الاقتصاد في لندن، يتوقعون مني أن أحضر إلى هذا المكان مرتديا قبعة الباولر، ومظلة ملفوفة مثل أي مصرفي لعين يتمشى في سوق لندن القديم. يا إلهي!».

نضحك جميعا ونصفق لهذه الخطبة القصيرة، ما عدا دك الذي يراقب بتمعن بينما مادميدكو الذي كان يتصبب عرقا يعيد ملء كأسه بشراب الكمباري والصودا، ثم يضع فيه قطعتي ثلج ويلعق أصابعه.

اتضح أن دك هو المحرر المؤسس لمجلة شعرية جديدة في سوهو واسمها «المرفوض» وقد شجعه ماد ميدكو على إخبارنا بقصة هذه المجلة، بدأ مترددا يخرج ألفاظه على مراحل مطلقا بجملة أو اثنتين في كل مرة.

«كيف بدأتم؟ لأنني متأكد أن «آيكم» يرغب في سماع القصة».

«أوه، بكل بساطة نشرنا إعلانات في المجلات الأدبية المعروفة، نطلب فيها تزويدنا بنصوص الشعر المرفوضة من قبل المجلات الأخرى. أمر بسيط».

«كان ذلك منذ ثلاث سنوات؟»

«ربما أربع».

«وحققتم نجاحا؟»

«كان نجاحنا فوريا، وكاملا».

منذ هذه اللحظة بدأت بعض الحيوية تتسرب إلى صوته، كما تغير التعبير المرسوم على وجهه. في البداية تظن أنها نظرة سخرية، ولكن يبدو أنها طريقته في التعبير عن الاعتزاز. إنه الآن أكثر رغبة في إعطاء المعلومات. «في أقل من عامين تمكنا من نسف ادعاءات المؤسسة الشعرية، وأعضاء حزبها ضيقو الأفق. وقد كان ذلك أهم تطور محسوس يطرأ على الشعر الإنجليزي بعد الحرب.

بدا وكأن المجموعة قد انقسمت إلى قسمين: «آيكم» والمحرر يجلسان عند طرف المشرب وإليوا بجانبهما لا تفهم إلا القليل. وانضم ماد ميدكو إلي وإلى بييترس.

يقول أم أم لبييترس: «أعتذر عن قولي هذا، ولكنك تأخرت خمس سنوات لتلتقي بكريس. لقد كان هو وسام ألطف بكثير في ذلك الوقت».

«ومن لم يكن كذلك؟ ولكن منذ خمس سنوات كانت بي بي تحت السن القانونية، ولم أكن لأوليها اهتماما».

«عفوا، ماذا تقصد؟» تقول بي بي.

«إنها الحقيقة، لقد كانا هو وسام ممتعين آنذاك». نطق بها أم أم وكأنه يتحدث إلى نفسه. يأخذ في تحريك قطعة الثلج الطافية في كأسه مستعملا سبابته، وتسربت إلى صوته وعينيه لمسة كآبة حقيقية.

أقول له: «أتعرف، يا «أم أم»، أنت الشخص الوحيد في هذه البلاد، وربما في العالم كله الذي لا يزال يناديه بسام».

«نعم. ولتحل علي اللعنة إن انضممت إلى جوقة فخامتكم السخيفة. لو فعلت فسأرحِّل على الفور!».

«تعرف أن اسم سام أكثر سخفا لأنه لم يعد صالحا للمرحلة، ولكنك بالمناسبة لم تكن على الإطلاق حكما جيدا حول ما هو صالح أو غير ذلك، وتلك هي إحدى الجوانب العظيمة لجاذبيتك».

أشكرك. يقول بابتسامة صبيانية خجلى، ففي مثل تلك اللحظات يظهر الشخص العابث الساكن بداخله ويطل من عينيه. توجه بييترس، التي لم تقل الكثير حتى الآن، سؤالا محددا: «قل لي. هل يمكن أن تتوجه إلى ملكتكم وتقول لها، أهلا، يا إليزابيث؟.

«إطلاقا لن أفعل ذلك، ولكن لم تصرون جميعكم على تغيير هذا الفردوس البهيج إلى إنجلترا كئيبة؟ سام ليس ملكة لعينة. أقول لكم لقد كان شخصا لطيفا في تلك الأيام. كان يتسم بالبراءة الكاملة. كان... ماذا يمكن أن أقول؟ كان سليما من الناحية الأخلاقية، والثقافية، يشبه العذراء، إذا فهمتم ما أعنيه، وبالطبع لا أقصد المعنى المحتشم للكلمة، ولكنه كان أكثر ثقة

بنفسه، ويعرف أكثر من رفاقه الضباط الإنجليز بكثير، حتى أن لغته الإنجليزية كانت أفضل من لغتهم، مع ذلك ظل هناك إمكان مفاجأته ببعض الأمور.. إنني أجد ذلك صحيا وجذابا بدرجة كبيرة... أتعرفون لقد عثرت له في إحدى المرات على فتاة...»

«من؟» سألت إليوا، وهي تزحزح في الوقت نفسه كرسيها للانضمام إلى مجموعتنا، مُجرجرة في إثرها آيكم وصديقه الشاعر - الأخير قام بذلك على مضض.

قال ماد ميدكو وهو ينحني: «أعني صاحب الفخامة بذاته، يا صاحبة المقام النبيل، فقد عثرت له على تلك الفتاة بعد مغادرته مستشفى كامبرلي».

«لم أكن أظن أن لك ماضيا كقواد» قال دك بوقار بدا مفاجئا حتى له هو نفسه «حسن، بإمكانك أن تسميها كذلك»، يقول ماد ميدكو: «ولكن يجب أن تنظر إلى الأمر هكذا. يأتي هذا الشاب اللطيف من دفء أفريقيا إلى الوسط غير الودي لمستشفى إنجليزي، وبالمناسبة لا أقصد أي تلاعب بالألفاظ هنا. وهذا الفتى يتشافى ببؤس من التهاب في الرئتين. أقل ما يجب أن أفعله له هو أن أجد له فتاة عطوفة دافئة للترويح عنه. لا ضرر في ذلك، فأنا على ثقة إن أي قاض عاقل لن يجدني مذنبا في شيء».

«ولكن كم تعاني النساء في هذا العالم» قالت إليوا «تشبه ديدمونة عصرية. وهل روحت عنه؟» سألت بييترس متجاهلة بالكامل موقف إليوا التضامني مع جنس النساء.

«تقولين هل روحت عنه! بالتأكيد، لم يستطع نسيانها لعدة سنوات. هاتفني في صباح اليوم التالي وقال: عمي جون، ياللك

من عجوز منحرف. وكم كان يضحك، وبدا سعيدا بالعالم بعد ذلك! لن يفاجئني مطلقا لو أنه اتصل بكلية الاقتصاد في لندن ليتحدث مع كريس... ألم يتصل بك؟».

«حسنا تقريبا. تلك كانت قصة مشهورة. وباستطاعتي القول إنه لم ينتظر طويلا لإخباري بالأمر».

«وماذا قال لك»؟ كان التساؤل من بييترس.

«ل م ب خ».

«ل م ماذا؟».

«ب خ، لقد قلت ذلك منذ قليل يا بييترس، وهو ما يكتبه أصدقائي في الإذاعة بخط أصفر كبير على أسطوانات الأغاني الإباحية التي لا يمكن بثها على الهواء».

«إنها الحروف الأولى لجملة ليس مسموحا بإذاعة الخبر». يشرح آيكم ثانية.

«ربما أضاف كريس مع ذلك أن الموضوع لا يتعلق فقط بإذاعة الأغاني الإباحية، بل إن أي أمر غير مناسب للذين في الحكومة هو ل م ب خ».

«تماما، كان لا بد من أن أضيف ذلك. إن وظيفتي الرئيسية كوزير للإعلام، هي تقرير ما هو غير مناسب، وأبلغ آيكم الذي يمتنع عن النشر فورا... ولكن عودة إلى موضوعنا المثير السابق، فاعترف أنني قد خرقت المبدأ فيما بعد وسربت السر لـ بي.بي».

«لي أنا؟» تساءلت بييترس بعيون مفتوحة على اتساعها، «تعني لبييترس التي هي أنا؟ ».

«نعم لقد أخبرتك، أليس كذلك؟ عن الفتاة صاحبة... كيف أقول ذلك... صاحبة اللسان المنعش».

«أووه! تعني الفتاة نفسها؟ أوه، يا إلهي». انفجرنا أنا وهي في ضحكة أسبغت الهدوء والحيرة على الباقين.

قال ماد ميدكو: «يبدو أنكما تعرفان أمرا حتى القواد الذي هو أنا لم يبد أنه سمعه من قبل، ولكن لا عليكما».

كان محرر مجلة الشعر يحاول جاهدا لبعض الوقت أن يسترد سامعيه الذين فقدهم عندما ارتدت عنهم إليوا آملة في سماع أحاديث محرمة. يقوم الآن بمحاولة أخيرة ليسيطر على الجميع. كان التعبير المرتسم على وجهه مضحكا لبعض الوقت. في الحقيقة للرجل أحد أكثر الوجوه تعبيرا، إذا عنينا بهذا اللفظ سيلا من التكشيرات المبهمة غير المحددة. ليس بإمكانك النظر إليه والقول: إنه حزين الآن، أو أنه يستمتع بوقته الآن. يتعين عليك الانتظار دائما، وتبين ذلك، وعلى رغم ذلك لا يمكنك التأكد. وفجأة تكتشف أنك غاضب من نفسك لترك عقلك يتعب ويهتم بموضوع غير منطقي. إنه ذلك النوع من الأشخاص المثيرين للحنق أما التعبير الذي يظهر على وجهه الآن فهو عبوس متزمت، من دون الثقل الأخلاقي لمبدأ التزمت.

«كنا غاية في النجاح»، كان يقول وكأنه غير واع أن قصته قد قوطعت...، «إلى الدرجة التي أصبح من الصعب معها التأكد أن المواد التي ترد إلينا هي مرفوضة بالفعل. اصررنا على ضرورة إرفاق قسيمة الرفض مع المادة، لكن بإمكان أي شخص أن يعد تلك القسيمة. تعرفون ما أقصد، فمعظم المجلات لا تهتم

لقسائما.... مثلما تفعل بعض الفتيات بملابسهن الداخلية. وأستثني الحاضرات بالطبع... ولأن تلك القسائم لا تطبع بطريقة رسمية فلم يكن لدينا إمكان لمعرفة أن ما يرد إلينا قد رفض في السابق بالفعل. ولكن كما سبق وأخبرتكم»... يبدو أنه بعد نجاحه في لفت انتباه الجميع الى ما يقول، فقد بدا أن رغبته الآن هي أن يظهر عدم اهتمامه بنا، ويوجه الحديث إلى «آيكم» وحده. يا لجرأة بعضهم!... «كان ما حققناه من نجاح هو مشكلتنا الكبرى. وسرعان ما أصبحنا ننشر جزءا ضئيلا للغاية مما يرد إلينا من مشاركات، ولبعض الوقت فكرت في إصدار مجلة أخرى نسميها «الرفض الثاني، أو الرفض المزدوج»، والتي يمكنني القول إنها كانت ستصبح في مثل شهرة الأولى. وفي النهاية ألغيت الفكرة، لأنها كما تعرفون تشتت الجهود».

قال «آيكم»: «امر مثير. عندما يفصلني كريس من عملي، ربما سأسافر إليكم وأحرر لكم الرفض المزدوج، فالفكرة تروق لي كثيرا».

«أنت محرر الصحيفة المحلية...».

«تدعى الجازيت الوطنية». يقول ماد ميدكو: «آيكم صحافي قدير... ولكن اللعنة! من أكون حتى أقيمه وأمنحه الجوائز؟ على أي حال، كان لافتتاحياته الرائعة الفضل أكثر من أي شيء آخر في إنقاذي من عواقب حماقاتي. ولكن في الحقيقة فإن ما أود قوله هو أنه شاعر جيد، وفي رأيي هو من أحسن الشعراء الذين كتبوا بالإنجليزية».

«نعم، لقد أخبرني جون أنك شاعر ممتاز. أنا خجل لأعترف أنني لم أقرأ لك شيئا من شعرك، ولكنني سأعمل على ذلك الآن».

«على رسلك»، قال «آيكم» «وتذكر أن أم أم ليس شاهدا حياديا، فقد سبق أن أسديت له معروفا».

رد «أم أم» «ولم أخبرك أيضا أن تلك الفتاة الجالسة هناك بخنوع والمسماة بييترس، قد تحصلت على مرتبة الشرف من جامعة لندن. باستطاعتي التأكيد أنها أفضل من كلينا».

قال دك بنوع من الحماس المتردد: «لا يدهشني ذلك البتة، فأنا على علم أن أفضل الكتابة باللغة الإنجليزية هذه الأيام تتم من قبل الأفارقة أو الهنود، وأن الصينيين واليابانيين قد لا يكونون بعيدين عنهم».

قد يكون «أم أم» على حق عندما قال إن بييترس تأخرت خمس سنوات لتلتقي بي. فأنا أتساءل أحيانا إذا ما كانت علاقتنا رصينة أكثر مما ينبغي، أو إذا كنا نشبه سباحين متعبين يستريحان على الحبال. عاد إلى ذاكرتي مشهد معين حدث منذ سنتين أو أكثر، مخزون بنضارته وبتفاصيله المدهشة، ولا يخلو من الرقة أيضا.

عرضت على بييترس أن أصحبها إلى مطعم كاثي ولكنها رفضت. مطعم تشي انطوان؟ لا تزال ترفض. هذان هما المكانان المفضلان لديها. يتميزان بعدم اتساع المكان، وليس ثمة أضواء براقة كثيرة، والطعام جيد، إذن ما الذي تريده؟

«هل يمكن أن أذهب معك إلى بيتك؟».

«بالطبع» هذا كل ما استطعت النطق به في تلك اللحظة. لم أكن قد تأكدت بعد ما إذا كان ما سمعته حقيقة. حدّست الحيرة التي في عقلي، واعطت ما يشبه الشرح لقولها: «امضى كلانا

يوما طويلا وكل ما أريده الآن هو الاستقرار في مكان ما، والاستماع للأغاني».

«رائع»!. بالطبع فقد زارت بيتي عدة مرات من قبل، ولكن لم تكن المبادرة من طرفها على الإطلاق. لم يكن الأمر يتعلق بالحياء، ولكن كان لديها أسلوبها وإيقاعها، وهما شيئان قررت احترامهما منذ البداية. بعد العلاقات العاصفة التي مارستها في السابق، بما فيها زواج في لندن لمدة ستة أشهر، وجدت نفسي مستعدا وممتنا لأسلوب بي بي المحافظ. عندما أفكر فيها أحيانا، فإن ما يخطر ببالي مباشرة ليس الزهور والموسيقى، ولكن كتاب جيد وممتع سهل على العين. ليس لهوا طنانا، وإنما شيء راسخ، وعلى رغم أنني أدركت حماقة الفكرة إلا أنني لم أمنع نفسي من مقارنة بي بي بزوجتي السابقة. كانت لويس مصرة على إثبات أن لها كيانا مستقلا، وكل ما أثبتته أنها باردة في الفراش على الرغم من زياراتها الأسبوعية للطبيب النفسي. هناك النوع الآخر - على القطب المقابل تماما - الطموحة لأن تكون رمزا للجنس، والتي ترمي بجسدها أمامك، فهذا الصنف قابلته أيضا. وقد يعمل أسلوبها لبعض الوقت، وفجأة تغلف روحك برودة من مكان ما، وكل ما تريد قوله لها هو أن تتوقف عن هذا التأوه والهيجان المزيف وأن تصل بسرعة. أما بييترس فهي تجسيد كامل لمثال المرأة التي أحب. جميلة من غير بريق، مسالمة ولكنها قوية جدا قوية جدا جدا. ولذلك أحبها، وسأسير على أي إيقاع تقرره. ولكني أتساءل أحيانا إذا ما كنت أقرأ إشاراتها خطأ؛ وإذا ما

أصبحت - كما يقول أم أم - حكيما من دون وعي مني؛ أو أنني فقدت تلك الصلة بالأشياء.

لم يكن أي منا جائعا، وعليه قررنا احتساء زجاجة نبيذ، وقريدس (روبيان) مقلي. طالما غضب مني طباخي سالفانوس كلما أحضرت ضيفا من دون إعطائه الفرصة لاستعراض مهارته في الطبخ.

وحتى في أثناء تناولنا للقريدس (للروبيان) اللذيذ الذي أعده فإنه لم يكف عن توبيخنا. «دعني أعد للسيدة شيئا صغيرا للأكل» توسل. ورجوناه أن لا يقلق فذهب ولكنه عاد وأخذ يحوم حول باب المطبخ. لم يستوعب كيف يمكن لراشدين مثلنا أن يأكلا فقط القريدس للعشاء.

«أم أنكما تريدان الذهاب إلى الفندق؟».

وعندما يقول سالفانوس ذلك فيجب عليك أن تقسم بأن طهيه أفضل من أي طاه فرنسي أو إيطالي، أو مهما يكن جنسه على الساحل الغربي لأفريقيا.

ترد بييترس محاولة إرضاءه «كلا يا سالفانوس. لسنا ذاهبين إلى أي فندق، نريد الجلوس في البيت فقط، ويمكنك أن تستريح هذا المساء. وإذا أراد أوجا أي شيء فسأحضره له». عرفت أنا على الفور وسرعان ما تحققت هي أنها ارتكبت خطأ كبيرا. فسالفانوس لم يخرج غاضبا، ولكن الامتعاض كان باديا على وجهه وفي النغمة التي ألقى بها تحية المساء.

«هل تعرف لماذا أردت الحضور هنا، والبقاء وحدنا؟».

«نعم، ولا».

«أخبرني في البداية عن الـ ... «نعم».

«لا ترغبين في أن يراك أحد معي في مكان عام. «بدت الجملة وكأنها معدة سلفا ولكنها لم تكن كذلك. لم تجب بييترس مباشرة، بدت وكأنها تفكر فيما قلته ولسان حالها يقول: ربما كان لديك الحق هنا. هزت رأسها عدة مرات وببساطة قالت: «لقد مر عام اليوم منذ أن دعوتني للعشاء هنا».

اجتاحتني مشاعر كنت أغلفها لمدة طويلة. جذبتها إلي على الأريكة وقبلتها - ربما بأعنف مما يجب. فكرت أن أعتذر لها عن نسياني. لو كان الأمر يتعلق بفتاة أخرى لكنت شرعت في ذلك مباشرة. ولكن معها لم أستطع التظاهر بشيء. لست من الذين تستهويهم المناسبات، وسيكون غشا فاضحا لو ادعيت نسيان الأمر. قبلتها ثانية وقلت «أنت فتاة رائعة». وعمنا الصمت لبعض الوقت.

«منذ متى وآيكم يعرف فتاة المتعة هذه؟» سألتها.

«لا أستطيع القول. فقد شاهدتها مرتين فقط قبل هذه العشية».

«تبدو لي صغيرة جدا، وأمية جدا. ترى ماذا يقول لها؟».

«آيكم» لا يقول الكثير لأي فتاة، فهو لا يعتقد أن لديهن عقولا بما يكفي».

«طوبى للثائر العظيم».

«حسنا، تعرف أنني أبالغ قليلا ولكنها حقيقة، فالنساء لا يمثلن له الكثير إلا كـ... أسباب إراحة. أعتقد أن هذا هو الصدع الوحيد في ترسانة ثوريته... هل لاحظت كم يمتعض منك هذه

الأيام؟»، سألته في تغيير مفاجئ لدفة الحديث «لا أعتقد أنك تعي ذلك. يقلقني ذلك، والسبب أنه لم يكن موجودا في السابق. باستطاعتي التكهن بالعديد من المشاكل لكليكما في المستقبل».

«أوه. أنت تبالغين في الأمر. ولكنك محقة بخصوص الامتعاض مني. وأعتقد أن هذا أمر طبيعي. وخاصة بعد الانقلاب وعلو شأن سام، وبدرجة أقل، شأني كذلك. بالتحديد فإن سام الآن هو رئيسي المباشر، وأنا رئيس آيكم».

«هل تعني أن «آيكم» غيور من كليكما؟»

«نعم. ولم لا؟ ولكنني ممتعض منه بالقدر نفسه. وربما أكثر، لما يتمتع به من حرية».

«لا أفهمكم أيها القوم».

«في الحقيقة الأمر في غاية البساطة، ويعود إلى أيامنا الأولى في كلية اللورد لوجارد. كان آيكم الأذكى في الفصل - الترتيب الأول لمدة ست سنوات - من بإمكانه منافسة ذلك؟ أما سام فقد كان لؤلؤة النشاط الاجتماعي... كان التلميذ الجيد الذي يوجد في جميع المجالات، قائد فريق الكريكت، مشهور في الألعاب الرياضية، وفي السنة الأخيرة كان قائد الكلية. كانت الفتيات من جميع مدارس المقاطعة يتعبدن تحت قدميه. لكن الغريب أنه كانت له طهارة روحية معينة تغلف تصرفاته في تلك الأيام على رغم ضعفه تجاه الفتيات. ربما لم تكن طهارة ولكنه بدا بشكل ما كامل الأوصاف، وغير حقيقي بالمرة».

«نجاح أكثر من اللازم».

«ربما كان نجاحا أكثر من اللازم، فلم يفشل مرة واحدة في أي أمر. له لمسة سحرية. ويعد ذلك شيئا قاتلا على المدى البعيد، وأعتقد أنه يدفع الثمن الآن. وإذا لم يحالفنا الحظ فسنقوم جميعا بدفع ثمن باهظ قريبا. كم كنت أتمنى لو أنه التحق بكلية الطب التي كانت مبتغاه منذ البداية، ولكنه بدلا من ذلك وقع تحت تأثير مدير مدرستنا الذي كان قد حارب الإيطاليين في الحبشة عام 1941، ويحتفظ بسيف لأحد الأمراء الأثيوبيين كإثبات على ذلك. وعليه التحق سام بأول دفعة في الكلية الحربية في البلاد، وكان في طريقه إلى الالتحاق بكلية ساندهيرست».

«سألتك عن «آيكم» وليس عن فخامته». قالت بي بي، ولاحظت غمزة لعوبا في عينيها ثم التصقت بي في الوقت ذاته.

إنه خطؤك، فأنت مستمعة جيدة».

«ولم تقل أي شيء عن نفسك». قالت، متجاهلة إطرائي لها.

«نحن مرتبطون ببعضنا، فلا يمكن رواية قصة عن أحدنا من دون إقحام الآخرين. قد يمتعض «آيكم» مني، ولكنه يمتعض من سام بدرجة أكبر، وسام يمتعض من كلينا بدرجة أكبر. أعتقد أننا قريبون من بعضنا أكثر مما يجب. لقد دربت كلية لورد لوجارد طلبتها ليكونوا قادة وحيدين في أماكن منفصلة متباعدة، لا ليسجنوا سوية في شؤون عائلية قذرة».

«حسنا. «آيكم» هو المثقف، وسام هو الاجتماعي، وماذا عنك؟».

«كنت وسيطا على الدوام. لا أتمتع بذكاء «آيكم»، ولا بنجاح سام الاجتماعي. وبشكل ما، فقد كنت المحظوظ بصورة دائمة.

هناك أغنية نرددها عندما كنا أطفالا. هل تذكرينها؟ من في المقدمة يكتشف الأرواح الشريرة، ومن في المؤخرة يداه معوجتان، أما الذي في الوسط فهو طفل الحظ. هل غنيتها من قبل؟ أنا هو طفل الحظ».

«هل يمكن أن أقول لك شيئا؟ وتعدني ألا تغضب؟ حسنا، فأنتم، ثلاثتكم، مغرورون جدا. تعتقدون أن قصة هذه البلاد هي قصتكم أنتم الثلاثة... ولكن استمر من فضلك».

«في الواقع، أنت محقة تماما. وهذا ما سبق أن قلته في نفسي. غالبا ما ننسى أن قصتنا ما هي إلا واحدة من عشرين مليون قصة - ليست إلا رواية صغيرة شاملة، ولكنها الوحيدة التي أعرف، وكما قلت فأنت منصتة حلوة».

«لزوم التحلية؟ هناك أسباب للتحلية... بالمناسبة، هل تحتفظ بمذكرات تفصيلية تدون فيها الأحداث اليومية؟ أعتقد أنه يجب عليك القيام بذلك، ولكن استمر من فضلك».

«نعم. أحتفظ بسجل للأحداث ولكن دعينا نغير الموضوع. أخبريني أنت عن شيء، على سبيل التغيير».

«اليوم مخصص لك. لماذا يمتعض فخامته من كليكما؟ فلديه كل ما ينشده من نجاح».

أرجح أنها ترغب في أن أستمر في الحديث. حول أي شيء. ربما تجد بعض الراحة في سماع صوتي في الوقت نفسه فإن لها عقلا وثابا ومقدرة خاصة على طرح أسئلة غير مناسبة، مثل طفل مبكر النضج. فعلا، «حقا لماذا يمتعض منا؟ فقد حاز كل النجاح الذي يريد. من المدرسة إلى ساندهيرست، أول ملازم

أفريقي في الجيش، ياور خاص للحاكم العام، المكلف بالسهر على راحة الملكة خلال زيارتها؛ قائد وحدة أثناء الاستقلال؛ كولونيل أثناء الانقلاب؛ جنرال، وصاحب الفخامة، رئيس الدولة بعد ذلك. فعلا لماذا يحس بالامتعاض تجاه أي من البشر؟ الآن وأنت تسألينني، أعترف بأنني لا أعرف. لم يكن هكذا في البداية. في الحقيقة، ظل قريبا منا في الأشهر الستة الأولى. وبعد ذلك... ولكن دعينا نتحدث عن أشياء أفضل في المناسبة الذهبية لأول موعد لنا».

قفزت من فوق صدري حيث كانت ترتمي وتفحصت وجهي مليا، ثم قالت «أرجو ألا تكون هازئا». تحركت في داخلي المهابة للحدث، فجذبتها إلي وقبلتها بهدوء. قدمت لي شفتيها ثانية؛ وكنا نرتعش.

«أليس من الأفضل أن أرحل؟».

«لماذا؟ اعتقدت أنك ستبقين».

«لماذا؟».

«لأنني أرغب في ذلك».

«هل هذا سبب كاف؟».

«نعم».

«لدي سبب أفضل».

«للرحيل أو البقاء؟».

«للرحيل».

«وما هو؟».

«لأنني لا أريد ذلك...»

ضحكنا معا وحاولت تقبيلها ولكنها غطت فمي براحتها... «انتظر! لم أنته بعد... ثم شرعت في إكمال باقي الأغنية: (ولكن ساعة منتصف الليل دقت وستكون ماما غاضبة مني)، ثم أعادت تغيير ملامحها من النموذج الملائكي الذي تتطلبه الأغنية، وعرضت علي أن تبقى... بشرط واحد.

ما هو؟ لا تخبريني به فأنا أعرفه.

ما هو؟

«ألا أمارس الحب معك».

«ربما علي أن أضيف هذا بعد أن ذكرته، حاول مرة أخرى».

«أن نتحدث عن أنفسنا أولا».

«ومن يرغب في سماع المزيد عنك؟ ستنتهي، لتتحدث عن الآخرين في جميع الأحوال».

«أستسلم إذن».

«عدني بأن تذهب الآن وتطفئ مكيف الهواء في غرفة نومك». لم أستطع السيطرة على نوبة الضحك التي اجتاحتني. ها هي بي بي تتظاهر بالجدية، تخبرني أنها كادت تتجمد حتى الموت لمجرد ذهابها إلى دورة المياه منذ قليل. يا لها من فتاة رائعة، فطلباتها ليست من الجدية لتقصم ظهر الرجل!

ليست مثل بعض النساء المشبوبات العاطفة ينشدن الحب من الرجل وكأنه نمر، أثر دموي يترك منثورا في المكان مع خرق ممزقة. في المرة الأولى التي ضاجعتها فيها، وكانت قد مرت شهور منذ تعارفنا، كتبت في مذكراتي «تبدأ عاطفتها مثلما تنساب مويجات مياه نهر استوائي بنعومة مقتربة من

دوامة الشلال في مدارات بطينة، مسالمة، هائلة». فخمة؟ كلا. بل هائلة.

«كنت تخبرني عن الفتاة البيضاء، وصديقك المهم». قالت على نحو مفاجئ مشعلة المصباح الجانبي للسرير الذي كنت أطفأته لتوي، وممسكة في الوقت نفسه بيدي الباحثة ثانية عن أزرار قميص نومها. قبل أن أتمكن من الإجابة، قالت: «لماذا وصفتها بالعاملة المعجزة؟» قلت انني سأساير بي بي ولكن علي اللعنة إن أمضيت بقية الليلة أتحدث عن سام وجوين التي ذكر اسمها على الغداء مع «آيكم» وفتاته الجديدة جوي. وعليه دخلت إلى الموضوع مباشرة.

«في الصباح وبعد ليلة مرهقة، توقظه تلك الفتاة جوين راغبة في أن تبدأ من جديد. أتذكر كيف وحكى سام القصة كاملة لهما.

لم ترد بي بي مباشرة، سوى باقترابها مني أكثر ثم سألت «تعني أن الناس يقومون بهذا بالفعل»؟

«في جميع الأوقات».

«شيء مقرف».

«في الحقيقة لست متأكدا أنه كذلك».

«تبدو وكأنك لن تمانع في القيام بذلك، أو ربما قد قمت بذلك أصلا».

«كلا لم أقم بذلك. الفتيات هن من يفعلن ذلك».

«حسنا، أيها السيد المتذاكي، هل سبق وأن قامت أية فتاة بذلك لك؟»

«يجب ألا نجعل منه أمرا شخصيا».

«أوكي، لن أتطفل أكثر، ولكني أظن أنه شيء مقرف. ألا تعتقد ذلك؟ وحتى أنهما لم يستحما أولا. هل استحما؟»

«لم أكن هناك كما تعرفين. ولكن لا أعتقد أنهما فعلا. كما فهمت فقد أيقظته وبدأت في العمل مباشرة».

«بكل تلك المادة فوقه!»

«نعم مجفف كما الكعك».

«شيء مقرف. لن أقوم بذلك، ولا لأي شخص».

«لا عليك، يا حبي، لن أطلب منك ذلك أبدا».

«هل تطلب من بييترس أن تقوم بذلك؟ ولهذا تخبرني بتلك القصة. أليس كذلك؟»

«لقد أخبروني أن ذلك هو القصد النهائي.

«أنت تمزح!»

«أقسم لك».

«هل أنت متأكد أنك لم تقم بذلك، يا كريس؟»

«كلا الفتاة هي التي تقوم بذلك».

«أووه. أغلق فمك. تعرف ما أعني، ولا تقم بأية ألا عيب.

«سنستحم أولا».

«أنت تمزح. أوه يا كريس! أرجوك».

الجزء السادس

بييترس

عندما التقطت سماعة الهاتف وقال لي صوت غير معروف لدي بالمرة: «هل يمكنني التحدث إلى الآنسة بييترس أوكوه». دق قلبي بعنف من جراء ارتباك نجم عن الخوف الذي اعتراني. لست أعرف لماذا، ولكن أول ما خطر بذهني هو: أوه... ياإلهي. لابد من أنه حادث يتعلق بكريس، وأن أحدهم يطلبني من قسم الحوادث في المستشفى التعليمي. لماذا يذهب. تفكيري إلى الحادث، ذلك أمر لا أعرفه، ولكن الإحساس كان من القوة بحيث أغلق كل دروب التفكير الأخرى. ولذلك عندما قال المتحدث «انتظري للتحدث مع فخامته». كان ردي مضطربا، وشبه هستيري: «فخامة ماذا؟ من أنت؟» عندما تناهى إلى مسامعي ذلك الصوت الواثق، الرنان متسائلا إذا ما كان شخصا غير مرغوب فيه إلى هذا الحد، فأطلقت عندئذ سيلا غير متناسق من الاعتذارات. حتى مع ذلك، كانت أفكاري أثناء حديثه معي تقوم بقفزات ضفدعية فوق بعضها، ولم أتمكن من استعادة ما يكفي من توازني للتدبر في تفاصيل ما قاله إلا بعد إنهائه لمكالمته بفترة. كان يدعوني لحضور حفلة عشاء خاصة. يوم السبت. لديه شيء مهم وخصوصي ليتحادث معي حوله، وستأتي سيارة لتقلني من شقتي في السادسة والنصف. الملابس غير رسمية بالمرة. «سأراك فيما بعد» ثم أقفل الخط. هكذا بكل بساطة!

وفي الأيام الأولى لتسلمه السلطة، كنت أذهب مرارا مع كريس إلى القصر الرئاسي، وأحيانا أخرى مع كريس و«آيكم»، ولكن الأمور قد تغيرت بصورة درامية بعد مرور حوالى السنة، والآن فيما عدا رؤيته تقريبا كل ليلة، ضمن أخبار التلفزيون، فلم تقع عليه عيناي أو اتصلت به مباشرة لأكثر من عام. ولهذا كان الاتصال الهاتفي والدعوة مصدر حيرة لي وغير متوقعين على الإطلاق.

بالطبع كان كريس يطلعني دائما على التدهور المستمر في علاقتهما. هل يمكن أن تكون المحادثة المهمة والخصوصية هي حول هذا الموضوع؟ هل سأجد نفسي أنصت إلى اتهامات متبادلة بين صديقين يعرف كل منهما الآخر منذ كنت طفلة أرتدي الحفاظات ... حسنا، ليس تماما، ولكن تقريبا. قد يبرر ذلك طلبه مني الذهاب في ذلك الوقت المبكر. عندها فقط خطر لي أنني بكل بساطة أفترض أن ذهابي الى القصر الرئاسي هو عودة إلى الأيام الخوالي عندما كنت أذهب برفقة كريس، ولكن الدعوة لم تتضمن شيئا من ذلك. لذلك هرعت إلى الهاتف واتصلت بكريس في بيته، دون جدوى، ثم في مكتبه حيث كان منهمكا كعادته في العمل بعد أن يكون الجميع قد غادروا إلى بيوتهم، وتناولوا غداءهم، واستمتعوا بالنوم بفترة القيلولة، وأخبرته بالأمر. كلا لم يطلب منه الحضور إلى الحفل، ويفضل عدم الحديث على الهاتف. سيمر على شقتي عند عودته إلى بيته عما قريب. كان هذا في مساء يوم الخميس.

رن جرس بيتي في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة تماما. كنت عند طاولة الزينة واستطعت مباشرة سماع صوت أجاثا، بيقظتها

المعتادة في أيام العطلة، كما في الأيام الأخرى، في الاستجابة إلى من يطرق الباب الخارجي، وكانت تتبادل الحديث مع صوت ذكوري. وعندما احتفظت بالزائر المجهول أطول مدة ممكنة لنفسها كما تظنه ضروريا، أتت إلى باب غرفة النوم معلنة أن عسكريا من البيت الرئاسي يتواجد عند الباب؛ يقول إن الرئيس أرسله لإحضار المدام.

«أخبريه أن يجلس لحظة، فأنا جاهزة تقريبا».

سرعان ما بدأ صوتهما يتناهى إلي بينما أضع اللمسات الأخيرة لزينتي. وعندما وصلت إلى غرفة الاستقبال كانت أجاثا في طريقها إلى الاختفاء في المطبخ. أثناء دخولي أدى الجندي، الذي لا يزال واقفا، التحية العسكرية وبدأت على الفور بالاعتذار عن سلوك خادمتي لعدم دعوتها له إلى الجلوس.

«لا تكوني هكذا، يا سيدتي» قالها بشهامة «فتاتك مؤدبة كثيرا كثيرا، فقد طلبت مني الجلوس، وحتى أنها سألتني ماذا أشرب، وعليه فليست غلطتها يا سيدتي. أنا من رفض الجلوس، تعرفين أن الجندي يعمل، ويتحمل العمل مهما كان».

«إذا، ستأخذني إلي القصر؟ أنا جاهزة».

«آه يا سيدتي. لسنا ذاهبين إلى القصر. هل قالوا لك إنك ستذهبين إلى القصر؟».

«ماذا؟ وأين سنذهب الآن؟»

«تعنين أنهم لم يخبروك؟ رائع! لقد أمروني أن أحملك إلى بيت الضيافة الرئاسي على البحيرة، ولا بد من أن يكون هذا صحيحا. لماذا؟ لأن الرئيس موجود هناك منذ الأمس وغير موجود في القصر بالمرة».

بدأت المشاعر الغريبة التي كنت أحضنها منذ عشية الخميس تهدد بالانفجار في رجفات عنيفة من الغضب، بينما تضاف آخر مكونات الإهانة بشكل عادي إلى المخلوط الجاهز. يا إلهي! من يظن نفسه هذا الشخص؟ في البداية يأمرني بحضور العشاء، ويغلق الهاتف حتى قبل أن أتمكن من التعبير عن امتناني اللامحدود، ثم لا يجد ضرورة لتحذيري من أن رحلة تستغرق أربعين ميلا تنتظرني مقابل التمتع بهذا الامتياز. بحق السماء ما الذي يجري في هذه البلاد؟

أول تمرد أقوم به، والذي جعل ابتسامة باهتة ترتسم على وجهي لعدم جدواه، هو رفضي لعرض مرافقي بالجلوس في الجانب الذي عادة ما يجلس فيه المالك في سيارته «المرسيدس» السوداء الواقفة أمام بيتي. فبينما هرع أمامي وفتح لي الباب قلت ببساطة إنني آسفة، وتوجهت إلى الجانب الاخر وركبت. التفت السائق بحدة إلى الخلف، ربما ليمعن النظر جيدا في حمولة اليوم غريبة الأطوار. فوق كل ذلك وعندما قلت له عمت مساء، بدا كأنه أصيب بالدوار، ثم تركت الحيرة مكانها لابتسامة عريضة أدت إلى إسعادي لأنها أكدت لي أنني قد ضاعفت من تمردي أولا برفض الجلوس على مقعد الشرف، وثانيا أن أبدأ مجرد سائق بسيط بالتحية. هنا ضحكت على ثوراتي الفارغة، التافهة. مثل تمرد فأر في قفص.

وتذكرت نصيحة كريس لي بأن أظل هادئة مهما حصل. كان لتذمري من أن الرجل لم يزعج نفسه بالسؤال إذا كنت غير مرتبطة ذلك اليوم، أو أن ينتظر موافقتي، أن رسم ابتسامة

متساهلة على وجه كريس وقال: «انظري، يا بي بي، في أي بلد وبأي لغة في العالم فإن دعوة رئيس الدولة هي بمنزلة أمر فعلي حتى لو لم يرفع سماعة الهاتف ويوجهها بنفسه، وعليه ستذهبين يا فتاتي العزيزة، وربما ستتمكنين من القيام بشيء مفيد. أنت تعرفين أن سام ليس بأحمق. إنه يعرف الآن أنه ليس ثمة أمل وربما يرى فيك الأمل الأخير ليخلص نفسه من المحنة، وقد تساعدينه في ذلك».

«كيف؟»

«لا أعرف يا عزيزتي، ولكن دعينا نترك كل الاحتمالات مفتوحة، فهناك دائما فسحة من الوقت».

كل ما يمكنني قوله إن كريس دائما يتمسك بعقلانيته الملعونة. كل الاحتمالات؟ أعرف واحدة على الأقل لا أرغب في تجربتها.

وصلنا إلى قرية أبيتشي، ثم إلى البحيرة في حوالي السابعة والنصف. وعلى رغم زيارتي للمكان مرتين في السابق، إلا أن ذلك كان أثناء النهار. فالصعود إليها الآن مع الوميض الواهن من تلك الرقعة المنفسحة من مياه البحيرة الاصطناعية الممتدة شرقا نحو الظلمة المقتربة على شمالك، ثم الطريق الساطعة الإضاءة، تأخذك ببطء نحو السماء في دوائر عظيمة متسلقة حول المرتفع الذي يجثم المنتجع الرئاسي على قمته وكأنه منارة للسفن، كانت تجربة جميلة محركة للمشاعر حتى لمزاج نكد ومثار مثل مزاجي ذلك المساء.

العشرون مليونا التي أشيع أن النظام الراهن أنفقها على تجديد المكان منذ الإطاحة بالنظام المدني الذي شيدها بتكلفة

خمسة وأربعين مليونا، لا تزال تعد تبذيرا غير مسؤول في ظروفنا الراهنة ولكن ... ولكن ماذا؟ حذار الآن، قبل أن تجدي نفسك من دون دراية منك وببطء تميلين نحو حصافة كريس!

في الحقيقة فقد تبادل مع آيكم في حضوري واحدا من نقاشاتهما الحادة حول ما أنفق من أموال باهظة على تجديد المنتجع(*). وبالمناسبة لم تصرف تلك الأموال عن طريق وزارة الخزانة، كما هي العادة. ووجدتني أقف في صفّ آيكم في تلك المرة.

«منتجع ماذا؟ وممن؟» أتذكر سماعه مطالبا بحرارة مثيرة. «من الناس ومن احتياجاتهم الضرورية إلى الماء الخالي من دودة غينيا، وحاجتهم إلى الملجأ وبسيط الطعام، ذلك ما تلجأون منه، تلجأون إلى أعلى الجبل وتلتقون برفاقكم، وتنسون الناس الذين كانوا سببا في شرعية سلطتكم».

«لا تحملني مسؤولية ذلك». صاح به كريس، ثم بادر بالخروج عن الموضوع كليا وأشار إلى إحدى الصور التاريخية الرائعة الموجزة التي يجيدها بحكم اطلاعه الواسع. وطلاقة لسانه وقال: «تعزز الأمم ببنيانها كما تعزز بقوانينها وثوراتها، تلك الأبنية حيث تنتصب الآن هي مفخرة لأوطانها، ولكن الجميع ينسون أنها لم تشيد بواسطة رؤساء حكومات منتخبة بطريقة ديموقراطية، وإنما في الغالب من قبل الطغاة غير المحبوبين والمتعطشين للدماء كما في القرون الوسطى، فكاتدرائيات أوروبا، وتاج محل في الهند، والأهرامات في مصر، والأبراج

(*) جاءت في الاصل «Retseat» ويمكن ترجمتها كلمة «ملاذ» وعليه منتجع يمكن استبدالها بـ.. «ملاذ» (المراجع).

الصخرية في زمبابوي كلها قد شيدت من قبل أقنان الأرض، والفلاحين، والعبيد، الجوعى، وحكامنا الحاليون في أفريقيا، حتى الماركسيون منهم، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، هم ملوك من القرون الوسطى. هل تذكر مازروي وهو ينعت نكروما بأنه قيصر ستاليني؟ ربما كان على قادتنا أن يكونوا هكذا، أو ربما هم في حاجة إلى أن يكونوا كذلك».

«يا لك من إصلاحي لعين». رد آيكم حانقا، ولكنه منبهر بحديث كريس، فعلى رغم أنه كاتب كبير، إلا أنه ليس ندا لكريس عندما يتعلق الأمر بالمعارك الكلامية.

قام ميجور في الجيش ذو سحنة لطيفة بتفتيش حقيبة يدي عند وصولنا إلى البوابة، وقادني ضابط آخر فوق سلالم عريضة فرشت بالسجاد الأحمر، في نهاية السلالم يوجد باب ضخم مشرع يقود إلى صالة ضخمة، حيث كان الضيوف متواجدين في أماكنهم. ما أن دخلت حتى هرع فخامته لاستقبالي، طبع قبلة على جبيني وقادني من يدي إلى الصالة. كان الضيوف جالسون مثنى وثلاث على كراسي وآرائك، وكراسي عثمانية، يشربون ويلتقطون الأكل الخفيف المتنوع من صحون موضوعة على كراسي عالية وعلى الأرض.

«من الذي لا نعرفه من هؤلاء؟» سأل المضيف، ومن دون انتظار للجواب أضاف: «لنبدأ بالسيدات». في الوقت نفسه استوى الرجال على أقدامهم وكأنهم حراس.

«هذه هي الآنسة كرانفورد من شبكة الأخبار الأمريكية المتحدة. لوو موجودة في باسا لمعرفة إذا كانت الأخبار التي

يقولونها عنا في أميركا صحيحة». كانت الفتاة ذات الشعر الفاحم تتطابق كثيرا مع تصوري لشكل الإيطاليات، لو لم أبلغ بأنها أمريكية، تبتسم وتنفض يديها وكأنهما صحيفتا صنج مما علق بهما من ملح الكاكاوية استعدادا لمصافحتي، التي عندما حصلت كانت ستعلن بالتأكيد عن أمريكيتها وذلك لشدة حماسها. في الوقت ذاته كان فخامته يردد سيرتي الذاتية.

«لوو. أقدم لك إحدى أكثر بنات هذا الوطن تألقا، بييترس أوكوه. السكرتيرة المساعدة الأولى في وزارة الخزانة - وتعد الشخص الوحيد في الخدمة، ذكرا كان أو أنثى، الحاصل على مرتبة الشرف من الدرجة الأولى في اللغة الإنجليزية. ليس من جامعة محلية بل من جامعة كوين ماري في لندن. لقد تغلبت فتاتنا على الإنجليز في لعبتهم ونحن فخورون بها للغاية».

«ووو» قالت لوو. «أمر مدهش. كيف تمكنت من ذلك يا بييترس؟».

بقية الحديث كان عاديا. أعتقد أنه كان يوجد ثمانية رجال، وسبع نساء، بالإضافة إلي. من بين الرجال كنت أعرف واحدا فقط معرفة لا بأس بها - وهو جوو أيبي، وزير الأشغال. عندما وصل إليه فخامته قال: «ولكنك تعرف، بييترس، بالطبع». فأجابه «انا؟ آسف يا سيدي. لكني لم أرها من قبل على الإطلاق». ربما كانت تلك أكثر الدعابات سماجة وثقلا في باسا، وعلى رغم ذلك فقد أنتجت بعض الضحكات، أغلبها في هذه المناسبة من صاحب الظرف نفسه الذي أراد أن ينزل ثانية إلى مستوى أولئك غير القادرين على استيعاب درجة ظرفه العالية فأضاف مباشرة: «لم نرك منذ وقت طويل، يا بييترس

وكيف حال صديقي كريس؟» الذي أجبت عنه بمحاولة غير فعالة مني لإطلاق الدعابات: «ولكن أنا الذي يجب أن أسألك، فأنت تراه أكثر مني لأنه غالبا ما يوجد في أحد اجتماعاتكم».

«أهذا ما يقوله لك؟» وقد فجر ذلك ضحكة من الجميع.

قال فخامته غامزا بعينه «كما تعرفين، فإن جوو على حق، ولو كنت مكانك لراقبته من حين آخر».

بمجرد انتهاء التعارف، هرعت الصحافية الأميركية نحوي لتقول إنها بالاضافة إلى تعارفنا هذا المساء، فإنها تأمل أن نلتقي خلال الأيام السبعة القادمة على وجبة طعام أو ماشابهها للحديث حول أمور عامة. خاصة الجانب النسوي منها، كما تعرفين. فأجبتها بقولي: «ماذا ستستفيد مراسلة صحافية من شخص مثلي مع أن بإمكانها الحصول على ما تريد مباشرة من مصدره». ربما قلت ذلك بصورة تلقائية ولكن لوهلة بسيطة تقلصت عيناها ونظرت إلى شزرا كمن على وشك أن يبدأ مشاجرة، ثم بالسرعة نفسها غيرت أسلوبها ثانية إلى الود قائلة:

«لن أغادر البلاد الآن قبل الحديث إليك، ليس بعد كل الذي سمعت عنك وهذا وعد مني!» ثم ابتعدت وتركتني لحالي.. أعرف أنني كنت حادة بعض الشيء خلال لقائنا القصير، ولكن يبدو أني لم أكن مسيطرة بالكامل على ردود أفعالي. شيء ما في أعماقي أقوى من التربية الجيدة، أزاحها في معركة في داخلي ليضفي على كلماتي المعتادة ذلك الإلحاح الحاد لتعويذة السحر. في البداية افترضت أنني ما زلت أرد بصورة مبالغ

فيها على ظروف دعوتي غير العادية إلى الحفلة، ثم تذكرت نصيحة كريس حول الاحتفاظ بهدوئي فتعهدت أن أحاول بصورة أكبر.

إذن هؤلاء هم مراكز القوة المتحلقون حول فخامته! كنت أشاهد عن كثب مدير (م وب)، المثير للجدل للمرة الأولى، وكما توقعت فلم أتقبله على الإطلاق. يبدو أصغر في السن، وسيما وقوي البنية بشكل غير مريح. ربما كانت يداه بالغتي الضخامة مثل يدي مصارع، حيث تلاحظ على الفور أنهما أكبر مما يجب حتى بالنسبة إلى رجل ضخم مثله. أظن أن لديه إحساسا بعدم الراحة تجاههما، ولهذا يغير مكانهما باستمرار من جانبيه إلى خلفه، ثم يدسهما في جيوبه، مما يلفت إليه الأنظار بصورة أكثر. يتحدث فقط عندما يوجه إليه الحديث، وعندها يخرج صوته ناعما بصورة مضحكة. ولتدمير صورته تماما من وجهة نظري فقد كان مفرطا في الذلة لفخامته خلال العشاء. هل هو ضيف مثلنا جميعا، أم هو نوع من نادل فوق العادة؟ يترك ضيفا من دون أن يتم جملته ليتوجه نحو طاقم الخدمة، لأن كأس شراب ما لم يتبق فيها إلا ربعها.

أما رئيس أركان الجيش فقد كان مشهورا في أوساط الشعب، واثقا من نفسه، ومقبولا، بصفة عامة.

وضع السيدات كان الأكثر مدعاة للدهشة. كن يرتدين ملابس احتفالية متأنقة، وربما لم يخبرهن أحد عن الطبيعة غير الرسمية للمناسبة، ولم يكن لدى أي منهن ما تقوله. لا يمكن أن تكون هؤلاء النسوة بعضا من الطبقة البالغة التحرر

التي تقول الإشاعات إنها تهيمن على الجو الاحتفالي الراهن لفخامته. ربما كانت هذه المجموعة الكئيبة قد اختيرت بناء على نصيحة غير كفؤة ومثيرة للشفقة لإعطاء انطباع جيد للفتاة الأمريكية. أليس من الممكن أن أحد المعتوهين في إدارة الرئيس، ونتيجة لمشاهداته للوعاظ الأمريكيين أو لآخرين تلقوا تدريبهم على أيديهم في تلك البرامج الدينية التي ترعاها الشركات ليليا على شاشة التفزيون، قد رأى أن إظهار الذوق الرئاسي كان مرغوبا.

كان الطعام المقدم بسيطا ولذيذا: كوكتيل الجمبري (الروبيان)؛ دجاج مقلي مع نبتة لسان الحمل؛ وأرز جوللوف؛ وللتحلية هناك سلطة الفواكه الطازجة، أو الجبن مع البسكويت الإنجليزي المقرمش. أما النبيذ فقد كان رائعا، ولم تكن تلك الجماعة تستحقه. لم يبد كل من فخامته أو الفتاة الأمريكية، أو أنا، إلا اهتماما بسيطا بالخمر. وداوم رجال باسا على شرب البيرة التي كانوا يتجرعونها طوال اليوم. تناولت إحدى السيدات شراب الجن المزدوج مع اللايم، بينما تناولت الأخريات جعة داكنة مخلوطة بالشاندي والسفن آب التي طفقت إحداهن، وأظن أن اسمها كان أيرين، تناجي الشراب بقولها: إن الأسود لون رائع.

أما فخامته فقد كان مضيفا مثاليا. من مكانه على رأس المائدة البيضاوية الشكل أخذ يوزع مرحه ويشعر الجميع بالراحة. وكان من الممكن أن يمر المساء على خير ما يرام، لو لم يبالغ الضيوف في الموافقة على كل ما يتفوه به، ويضحكون كلما

أحسوا إنه يقول دعابة. أجلسني إلى يمينه، والأمريكية إلى يساره بحيث واجهنا بعضنا عبر النهاية الرفيعة للشكل البيضاوي. جلس إلى يميني الميجور الكتوم أوساي ويقابله وزير الأشغال. وكان رئيس أركان الجيش يسيطر على النهاية الأخرى للطاولة وكأنه مجامل رئيسي من الدرجة الثانية، كلما طلب منه الرئيس ذلك، ولكنه كان يستقل بنفسه أحيانا بهدوء، دافعا بفتاة الجن واللايم إلى إطلاق الضحكات.

فشلت جهود المضيف بشكل مريع في دفعي إلى تبادل الأحاديث مع الفتاة الأمريكية. بكل بساطة لم أستطع تجميع ما يمكن تسميته بالحماس اللازم للمحافظة على استمرارية الحديث، حتى مع قيام رئيس الدولة بالتدخل ليوقظ اللهب الخامل. أما هي فأصبحت بعد صدّي لها في البداية مجرد مؤدبة تجاهي. عندما لا أكون مشغولة بالحديث مع المضيف. أدير رأسي إلى السيد الجالس إلى جواري، وأبدو منشغلة معه بحديث عميق، أما هو فقد كان هدفا مثاليا لغرضي حيث لا رغبة لديه في المجاملات الاجتماعية أكثر مما لدى مولد طاقة احتياطي عندما يكون الخط الرئيسي يعمل بصورة طبيعية.

تناولت الفتاة الأمريكية ثلاث كؤوس من نبيذ الموزِل، بالإضافة إلى نبيذ الشيري الذي شربته في البداية مع كوكتيل الجمبري، وما يمكن أن تكون قد شربته في الصالون قبل العشاء، وقد ثبت أن كل ذلك الشراب كان أكثر مما تتحمل. فمع مرور الوقت أصبحت أقل كبتا، ومهذارة بصورة أكثر، مع أنها لا تزال تبدو مسيطرة بالكامل على ملكتها العقلية بتجنبي

قدر الإمكان. بالتأكيد فقد لاءمني ذلك كثيرا، حيث باستطاعتي الاستماع والمراقبة من دون أن يبدو علي ذلك ومن دون الجهد المطلوب للمجاملات كبديل عن الاستفزاز.

أخذ أسلوبها مع فخامته يتحول إلى حميمي مفرط ومستبد. فأحيانا تتركه ينتظر تكملة حديث بدأته له، لتتحدث مع الميجور أوساي الذي أصبحت تسميه الآن بجونسون فقط. أعجب العجائب أنها أشارت مرة إلى الجنرال لانجو، رئيس الأركان، باسم أحمد. مقابل تلك الوقاحات لم تتلق من أولئك السادة إلا ابتسامات الارتياح. شيء لا يصدق!

لكننا لم نر شيئا بعد. فمن دون مقدمات بدأت تلقي على فخامته ورعاياه محاضرة حول الحاجة إلى أن تحافظ البلاد على مستويات دفع ديونها الخارجية (لا حاجة إلى القول: إن هذه الديون لا تحظى بشعبية)، والتي تصل الآن إلى أكثر من واحد وخمسين في المائة من كل مداخيل صادرات البلاد. لماذا؟ كبدل تعويض لزيادة المساعدات الأمريكية من فائض إنتاج الحبوب لمقاطعاتنا التي ضربها الجفاف!

«هل كنت تقرئين الافتتاحيات التي تصدر في الجازيت مؤخرا؟» سألتها وأنا مشدوهة بالكامل.

«نعم. لقد تعطف جونسون وأطلعني في بداية الأسبوع على بعض التعليقات ويبدو أن رئيس التحرير الذي علمت أنه ماركسي يتخيل أن بإمكانه تناول كعكته والاحتفاظ بها في الوقت نفسه، كما يفعل الكثيرون منا في هذا الجانب من الديموقراطية. قد يكون الإعجاب بكاسترو شيئا جيدا، مالم

تضطري للعيش في كوبا، أو حتى في أنجولا. ولكن الحقيقة الغريبة هي أنه وبغض النظر عما يقوله الدكتور كاسترو، فإنه لا يتأخر أبدا في القيام بالتزاماته تجاه الهيئة المصرفية الدولية. يقول للآخرين «لاتسددوا»، بينما يعمل هو على ألا يتأخر في السداد. مايجب أن نتذكره هو أن المصارف ليست بيوتا لتوزيع الصدقات، لقد وجدت لتقرض النقود مقابل ربح مناسب. وإذا منعت عنهم هامش ربحهم عن طريق الاقتراض، ثم الامتناع عن السداد فسيضطرون عاجلا إلى وقف أعمالهم، ونعود نحن جميعا إلى توفير نقودنا في الحصالات المنزلية».

«أو داخل الفرش» أضاف فخامته، الذي أدت لامبالاته تجاه هذه الوقاحة إلى إصابتي بالصدمة، بشكل لم أعهده منذ زمن طويل. إذعان، وإقرار لتبرير معد. بدا وكأنه يقول للفتاة هيا أخبريهم. لقد بح صوتي من ترديد هذه الرسالة نفسها على مسامعهم دونما فائدة. لقد كانت هي في سياق الكلام تشير إلي أنا.

ما فعلته أثناء الرقص يحتاج إلى شيء من التوضيح. غادرنا طاولة الأكل واجتمعنا مجددا في صالة الجلوس المريحة لتناول بعض الكحول والقهوة، وخلال هذا الوقت كان فخامته غارقا في محادثة عميقة ومكثفة مع لوو فوق الأريكة. ثم فجأة سمعت اسمي «بييترس تعالي واجلسي بجانبي» أمر وهو يربت على مخدة الجلوس إلى جانبه الآخر. «نحن الزعماء الأفارقة دوما من أنصار تعدد الزوجات». بالطبع قوبل هذا القول بهوجة من الضحك. بدا لي ثملا بعض الشيء «تعدد الزوجات في أفريقيا يماثل الاختيار المفرد في أوروبا». اضاف ليذكي لهيب موجة

الضحك برعونة قد توصلها إلى أعمدة السقف. أظن أن الفتاة أضافت «وأميركا» ولكن لن أراهن على ذلك. هذا ما كانت عليه حالة الصخب.

قبل اصطدام صوته بحبل أفكاري، كنت قد وجهت اهتمامي اليهما، على رغم ما يبدو علي بحضوري الجسدي بجانب وزير الاشغال الذي كان يتصارع بوعي زائد عن اللزوم مع تعليق عادي للجنرال لانجو عن أن طرقنا السريعة يدب فيها الخراب قبل أن يتم الانتهاء من مدّها، على عكس ما شاهده في أوروبا وأمريكا، بل وحتى في كينيا. الوزير الذي عاشر المحترفين لفترة طويلة كان يشرح للجنرال، الذي يبدو أقل اهتماما الآن، شيئا عن جمولة الشاحنات الثقيلة، وبأنها ليست هي المشكلة بحد ذاتها، ولكن المشكلة هي أوزان محاور دواليبها، أو شيء من هذا القبيل.

عند هذا الحد داهمني إحساس متجدد بالتساؤل، وانكفأت على نفسي للإجابة عنه. ما سبب وجودي هنا؟ لماذا أرسل في طلبي؟ من الواضح أن السبب الذي خطر لي للوهلة الأولى، وهو المصالحة بين صديقين قديمين (رغم غياب أحدهما) لا يمكن أن يكون هو الأمر. إذن لماذا أوجد هنا؟ لألتقي بهذه الفتاة الأمريكية وأقدم لها وجهة نظر النساء. هذا هو الأمر! لقد تمت جرجرتي هنا لأقوم على خدمة هذه الفتاة الصفيقة من أريزونا أو ماشابه ذلك. حسن. سنرى!

بعد ذلك تناهى إلي صوت السيد يدعوني إلى الحضور للقيام بدوري في غرفة النوم الأفريقية لتعدد الزوجات!

في المرة الأولى التي حدث فيها مثل هذا الأمر لي، عندما كنت طالبة في إنجلترا اصطحبني صديقي لحضور حفل راقص بمناسبة نهاية السنة في قاعة مدينةً سانت بانكراس. كان المكان مزدحما وانتهينا بتقاسم طاولة مع معرفة لصديقي كانت برفقته فتاة بيضاء. بعد عدة رقصات همست في أذن جاي أن أصول اللياقة تقتضي أن نتبادل مراقصة الرفاق. وبعد رقصتين مع تلك الفتاة البيضاء تملكت جاي حالة من الهياج. كان ينسحب معها إلى ابعد مكان في قاعة الرقص الواسعة، ويظل هناك عند نهاية الرقصة، منتظرا الفرقة لتبدأ لحنا جديدا، أما صديق الفتاة البيضاء فقد راقصني عدة مرات ثم اختفى كليا، ولهذا وجدت نفسي أراقص غرباء كانوا قد أتوا إلى الحفل من دون صديقات. وأصبحت كابو - كابوو للمرة الأولى في حياتي.

أخيرا، وعندما أتى جاي والفتاة إلى طاولتنا بعد فترة استراحة طويلة، ثم ذهب لابتياع مشروب، قالت لي الفتاة بلهجتها اللندنية الثقيلة في الوقت نفسه الذي كانت تبحلق في مرآة حقيبتها وتصلح من زينتها «فتيانكم مثل فتياننا، أليس كذلك؟ تقول صديقتي إن ذلك يعود إلى عقدة ديدمونة، كلمة لطيفة هذه الد - يد - مونة، أظنها إيطالية. هل سمعتها من قبل؟»

للمرة الثانية أجد نفسي في صراع مع ديدمونة، ولكنها جوالة هذه المرة، والأنكى من ذلك أنها ليست في أثر فتى أسود تعيس في إنجلترا، ولكنها في أثر الرمز المقدس وفخر أمتي. هذا هو الأمر. سخيف؟ فليكن كذلك.

لهذا رميت بنفسي بينه وبين العدو، حرفيا بما تعنيه الكلمة، رميت بنفسي، كما يفعل الجندي برمي نفسه أمام قائده ليتلقى الرصاصة القاتلة بدلا عنه.

رخّصتُ من نفسي، وفعلت ذلك من دون خجل، يا إلهي! لقد فعلت ذلك من أجل مجدك كما يفعل الراقص في معبد هندي. مثلما فعلت إيستر، نعم، كما ضحت إيستر من أجل شعبها. سأضحي من أجل شعبي الذي عانى طويلا.

هل كنت سعيدة لأن الملك بدأ يستجيب ببطء، ولكن بصورة مؤكدة! هل كنت سعيدة!

الثعبان الكبير، بدأ الانتصاب الهائل للثعبان الملكي يتحرك على جنبات معبدي بينما كنا نرقص ملتصقين أكثر فأكثر للأجواء الملطفة. نسكن جراحنا القديمة سوية في الضوء المعتم. استُثير بالكامل وتعلق بي أكثر، أمسكت بيده وقدته إلى الشرفة بجانب السياج، إلى ذلك المنظر الأخاذ للبحيرة من قمة المرتفع. وهناك أخبرته بقصتي مع ديدمونة. شيء تملكني وأنا أقصها عليه.

«لو ذهبت إلى أمريكا اليوم، إلى واشنطن دي سي، هل يمكنني، وهل أستطيع أن أشارك في حفل عشاء خاص للبيت الأبيض، وأن آخذ الرئيس الأمريكي رهينة بالإضافة إلى وزير دفاعه، ومدير الـ سي.آي.إيه؟».

«لا يجب أن تكوني عنصرية هكذا يا بيترس. لقد فاجأتني. فتاة بمثل ثقافتك!»

ثم خرج مسرعا تاركا إياي واقفة وحدي في الشرفة. ووقفت هناك أتمعن في البحيرة، والدموع تنهمر من عيني مثل

الشلالات. كنت على وعي أن بعضهم على رغم عدم رؤيتي لهم، يأتون إلى باب الشرفة للتلصص علي، إلا أنني كنت أعي مجيئهم إلى الشرفة، وعودتهم ثانية إلى الأضواء المعتمة وإلى موسيقاهم. ثم سمعت وقع خطوات على أرضية الشرفة، أعقبها صوت الميجور أوساوي من خلفي: «هناك سيارة تنتظرك في الخارج لتقلك إلى بيتك».

الجزء السابع

لأسابيع وأشهر، منذ قررت قبول التحدي لمحاولة تجميع أكبر عدد ممكن من القطع المكسورة لهذا التاريخ المأساوي التي يمكن أن أضع عليها يدي، ما زلت غير قادرة على معرفة من أين أبدأ. كل ما حاولت تدوينه يبدو غير مقبول لمسامعي، إما أن يكون غير مترابط، أو مفرطا في الفظاظة، أو بديهيا للغاية.

لذلك أخذت في الدوران المستمر حول لب الموضوع حتى يوم السبت الماضي. فبعد رحلة عذابي الأسبوعية في السوق، كنت منفعلة ومتجهمة بعد ساعات من المساومات تحت الشمس، أكافح بشدة بحثا عن أنفاسي، بعد صعودي تلك السلالم الدائرية الجالبة للدوار، إلى أن انتهيت إلى طاولة المطبخ محملة بمشترياتي. رميت بكل شيء هناك لأحصل على مشروب بارد، ولم أعد هناك مطلقا. شيء غريب... فعادة ما أكون مهتمة للغاية باللحوم بالذات، التي أغسلها وأسلقها مباشرة، أو أغسلها بمادة مطهرة وأضعها في المجمدة. لكن بعد أن شربت نصف كوب كبير من الليمون، حملت ما تبقى منه، تدفعني قوة غريبة إلى غرفة النوم الاحتياطية التي حولتها إلى غرفة مطالعة، ثم شرعت في الكتابة حتى حلول الظلام. بصورة مبهمة وبصعوبة تناهى إليّ صوت أجاثا عند الباب تطلق تحية المساء، ولكنني لم أعرها اهتماما خاصا.

بمجرد أن تخلصت من زحمة المرور إلى المساحة الخالية بين

مباني السكرتارية ومباني السكن الحكومية سيطر على عقلي وشدني من نواصي تفكيري موضوع الفكرة الوحيدة، أو السلطة، أو شيء من ذلك، لكن على رغم إجباره لي على الجلوس إلى الطاولة، إلا أنه فشل في تلقيني بالكلمات؛ لأنني اضطررت يوم الاثنين إلى أن أرمي بعيدا بكل ما كتبته يومي السبت والأحد. ولكن العجب لم يتلاش بعد. وبدأت في العمل، بدت الأوراق المبعثرة واللحم الذي على وشك أن يفسد مثل طقوس ضرورية أو قربان لاسترضاء من لديه الجرأة على الولوج إلى البيت في الوقت الذي تنأى الملائكة بأنفسها عنه وتهابه، أو هي من أجل نزع أحد تلك الرماح التي غرسها الرجال في الأرض في لحظة خسارتهم، وتركت هناك في الدائرة حيث رقصوا معا للمرة الأخيرة. تنتسب مدبرة منزلي أجاثا إلى إحدى تلك الكنائس التي يغلب عليها طابع المرح، وتغص بها باسا هذه الأيام. تسمى طائفتها «يسيمي» وهي الأحرف الأولى لاسم البعثة الدينية الإنجيلية السبتية، ويبدو أن هذه الطائفة تحرّم عليها إشعال حتى عود ثقاب في أيام السبت لتشغيل موقد الطبخ. تترك البيت قبل مغادرتي للسرير، وتبقى خارجه طوال اليوم، ثم تعود حوالى الساعة الخامسة مثل أوراق جوز الهند الذابلة، وتشرع في التهام الخبز والطبيخ البارد أو أي شيء تقع عليه يداها، أو حتى «الجاري» مغموسا في الماء المثلج مع ثماني غرفات من السكر، وعلبة كاملة من الحليب. اكتشفت، مع ذلك، انني إذا أشعلت الموقد، وسخّنت الأكل، فهي ليست ممنوعة من أكله. ولكنني بينت لها منذ البداية أنني لست على استعداد لغسل

ومسح قدمي الفتاة التي أدفع لها لكي تخدمني. فيكفي قيامي بالتسوق الأسبوعي من سوق جيلجيلي، بينما تقوم هي بالتصفيق وتدوير عينيها وردفيها أمام كاهن يغزو صدره الشعر متدثرا بروب حمام أبيض وغطاء رأس مضاد للبلل.

لكن شيئا ما قد حدث منذ زمن ليس ببعيد ليغيّر حياتنا، وفي هذا السبت بالذات فإن أجاثا طغى عليها شيء آخر خارق للعادة يحدث في البيت حتى أنها غضت النظر عن الالتزام بقانون السبت، عندما وضعت الخضراوات الذابلة واللحم، الذي لم يعد طازجا، كلا في مكانه. أو ربما، باعتبارها ليست غريبة على قضايا التقمص الروحي، فإن باستطاعتها اكتشاف الحالة لدى الآخرين بسرعة كبيرة.

اسمي بييترس، ولكن أغلبية أصحابي ينادونني «بي» أو «بي بي». أما أعدائي، وذلك درس تعلمته من العنف غير المعقول الذي تعرضنا له، وهو أنه حتى الصغار أمثالي يمكن أن يكون لهم أعداء. لقد افترضت بكل سذاجة أن الأعداء هم من امتيازات العظماء، لكن ذلك ليس صحيحا. فها أنذا أدفع عددا لا بأس به من الأيادي الصغيرة لتنشغل في اختراع أسماء مسمومة ومؤلمة لي، بالسهولة التي يسمون بها الأبطال الذين يسقطون - من العلياء إلى البطحاء - كما يقول كتابنا نصف الأميين.

كان إلهاما مثيرا للدهشة، ذلك الذي تكشف لي، وبكل صراحة فقد أزعجني لفترة من الوقت، خاصة تلك التلميحات القاسية عما يطلق عليه رجالنا وهم يكتمون ضحكهم (تأثير -

المؤخرة). ولكن بعد ذلك قلت لنفسي لماذا أهتم، ولماذا أطلب من العالم أن يتخلى عن قضاياه، لكي يعرف ماذا فعلت أو لم تفعل أنثى غير ذات أهمية، في أثناء نكبة ذهبت بالكثير من الناس والأشياء؟ ربما تكون تلك مسألة صغيرة من الكبرياء الشخصي، ولكن ما أهمية ذلك؟

مع ذلك لا يزال هناك جانب من شخصيتي يدفع بالدموع إلى عيني، ولن أتمكن من التعود عليه إطلاقا، أنا إنسان طموح! كيف؟ هذه الصفة المنافية للحقيقة بالذات هي التي تدفعني الآن إلى الكشف عن خبايا حياتي فوق هذه الأوراق لأرى إن كنت قد نجحت في إخفاء بعض سماتي حتى عن نفسي. كان الصحافيون الطامحون إلى لفت انتباه الحكام العسكريين الجدد هم من ألصقوا بي صورة «مدام بومبادور المعاصرة» التي تتلاعب بالجنرالات وترعى الأدباء.

طوال حياتي لم أنشد الاهتمام، حتى عندما كنت طفلة، بإمكاني الآن، عند النظر إلى تلك الذكريات الماضية، أن أرى فتاة صغيرة تعيش بالكامل في عالمها الصغير الخاص بها - عالم مثل الدمى الروسية، يقع ضمن الحدود الضيقة لبيت إرساليتنا التبشيرية الذي بدوره يقع باستكانة ضمن حدود عالم الكنيسة الإنجليكانية. كان مكانا رائعا في حد ذاته، فبالإضافة إلى مبنى الكنيسة نفسه، هناك مبنيا المدرستين وبيت الكاهن، وبيت الملقن الديني، ثم البيت الطويل الذي يحتفظ فيه كل معلم بالمدرسة من الذكور - وفقا لمرتبته - بغرفة مشتركة، أو خاصة به، أو حتى غرفتين. أما المعلمات الإناث

فكن يقطن في أصغر المباني، وهو مبنى مسقوف بالقش مكون من ثلاث غرف، يقع بين بيت الكاهن وبيت الملقن، لحمايتهن ربما. في أقصى زاوية من مبنى الكنيسة، حيث تنمو الأعشاب دونما رعاية وحيث دفنت إحدى أخواتي «إيميلي».

عالم داخل عالم داخل عالم بدون نهاية. أوّا توّا في لغتنا. كم كان يطربني في صغري ذلك الصوت الغريب بما يتوافر فيه من إمكان تكراره إلى ما لا نهاية، إلى أن يبدو لآذاننا مثل مواء المطر، وهو ينفتح وينغلق، ينفتح وينغلق. «أوّا توّا أوّا توّا أوّا توّا».

أوّا توّا كان أحد مكعبات المباني ضمن قائمة ألعابي الانفرادية العديدة. بإمكاني بناؤه وتشكيل كل الأفكار معه، وبإمكاني حتى هزّه من جانب لآخر، مثلما أفعل مع طفلي الخشبي ذي الأذن المبتورة.

صداقتي مع الكلمات الغريبة بدأت دونما شك في وقت مبكر عندما انتبهت للأمر ورحبت به عند الانتهاء من الصلوات العائلية التي يؤديها أبي في بداية كل يوم ونهايته، وكانت تلك الصلوات تطول بحيث كنت أغفو وأصحو في أثنائها، وأحيانا أميل وأسقط على جانبي. وأوّا توّا دوما هي نهاية لعذاباتي، إلى أن نصيح مجتمعين آمين! عمت صباحا سيدي، وعمت صباحا سيدتي! أو تصبحون على خير في حالة الصلوات الليلية.

ذات مساء، تلبسني شيطان ما بينما كنت أردد: أوّا توّا، فقذف بي في حالة الصحو، ودون سابق تفكير بدأت في ترتيل

ترنيمة عيد الشكر الطفولية أوّا توّا أوّا توّا! أوّا توّا أوّا توّا! أوّا توّا! أدت قهقهة أخواتي إلى إذكاء نار أغنيتي الرعناء.

لم يكد أبي يتلفظ بدعاء النهاية آمين حتى قفز على قدميه ومد يده إلى عصاته التي يحتفظ بها دائما بالقرب منه ليُنزل بنا جميعا ضربات مؤلمة، وبينما بكيت أنا وأخواتي فوق أسرتنا المنفصلة، كن يتوعدنني بين شهقاتهن بأنهن سيتدبرن أمري في الصباح إلى أن غلبنا النوم.

كان والدي يتصف بالقسوة، وكان بعيدا عنا نحن أطفاله بقدر بعده عن أمنا المسكينة، وبعد أن كبرت عرفت أن شهرة سوطه لم تكن مقصورة على بيتنا أو المدرسة القريبة فحسب، بل امتدت إلى كامل منطقة الأسقفية. زاره ذات يوم شيخ المنطقة، وبينما هما يجلسان في الغرفة الخارجية الطويلة التي نسميها «الرواق المسقوف» ويأكلان ثمار الكولا ببهارات التمساح، وبينما كنت أتسكع بالقرب منهما، كما هي عادتي عند وجود أحد الزوار، كان الشيخ يثني على التعليم الذي يقدمه والدي لأطفال القرية من خلال سوطه. ارتسمت على وجه أبي نظرة كآبة لم يسبق أن شاهدتها عليه، وهو يروي للشيخ حكاية عن ناظر مدرسة معينة في العام ١٩٤٠، كان قد حصد الثناء من المفتشين البيض الذين قدموا من إنجلترا لمعرفة مستوى المدارس في مستعمراتهم، ووجدوا أن مدرسته هي الأكثر هدوءا في أفريقيا الغربية. «هذا صحيح!» قال الشيخ بالإنجليزية.

أتذكر هذه الحادثة جيدا لأننا كنا في ذلك الوقت نتعلم

ضمن درس الجغرافيا خريطة غرب أفريقيا. وعليه تركت أبي وصديقه وتوجهت إلى مكان حقيبة كتبي ثم أخرجت «أطلس غرب أفريقيا»، ودُهشت كثيرا لعظم مساحة المنطقة التي كان ناظر ١٩٤٠ بطلا لها.

مرت أوقات شككت فيها أنه ربما يستعمل سوطه على أمنا المسكينة أيضا، على رغم أنه يجب القول، كاعتراف بما تلقيه مجرد الفكرة من رهبة في النفس، إنني لم أره يقوم بذلك أمامي. ولم تره أخواتي كذلك. أو إذا كن قد رأين شيئا فقد فضلن عدم إخباري، فهن لم يثقن بي كثيرا.. عندما أنظر إلى الماضي أجدني مذهولة بما كنّ يمارسن ضدي أحيانا من التآمر، ومع ذلك فقد كانت لدي شكوكي القوية التي لا أستطيع إثباتها أو نفيها، لأن أبي في تلك المرات كان دائما يتخذ الاحتياطات لغلق باب غرفتهما. لتخرج أمي بعدها (بعد قيامها بفتح الباب، أو ربما هو من يقوم بذلك) وهي تمسح عينيها بطرف دثارها، ممتلئة بالكبرياء أو بالرشد؛ لتبكي بشدة كما نفعل نحن الأطفال. لم يكن ذلك يحدث بصورة دائمة، ولكنه كثيرا ما دفعني إلى التمني أن أكون ساحرة باستطاعتها أن تقول له «مُتْ!» ويموت فعلا كما في الحكايات الشعبية. بعدها وعندما يستوعب الدرس، أعيده إلى الحياة، وعندها لن يستعمل سوطه بعد ذلك أبدا.

وذات يوم، بعد خروج أمي من الغرفة وهي تمسح عينيها، هرعت نحوها واحتضنت ساقيها، ولكن بدلا من أن تضمني إليها كما توقعت، فقد دفعتني بعيدا عنها بقوة إلى درجة أن

رأسي ارتطمت بالهاون الخشبي. وبعد هذه الواقعة لم أعد أشعر بالرغبة في طلب الموت لأبي. لم يكن عمري آنذاك يتعدى السابعة أو الثامنة ولكن تكوّن لدي آنذاك إحساس - قوي وخارق للعادة، ويقرب للرشد - أن لأبي وأمي عالمهما الخاص، وكذلك لأخواتي الثلاث، أما أنا فوحيدة في عالمي. ولم تؤرقني وحدتي في ذلك الوقت، ولا فيما بعد.

لم أفطن - إلا لاحقا - إلى أن أمي كانت تحمل لي ضغينة كبيرة لأنني فتاة - كنت ابنتها الخامسة على رغم وفاة إحدانا - وأنها قد صلت بقنوت في أثناء ولادتي لأجل أن أولد صبيا لتهديه أبي - حصلت على هذه المعلومة على مراحل بعيدة لن أذكرها الآن. ولكن لا بد من الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى بييترس، فقد مُنحت في أثناء تعميدي اسما آخر، وهو نوانى بويفي، ويعني «الأنثى مهمة أيضا». هل يوجد أفضل من ذلك؟ حتى في طفولتي كرهت هذا الاسم بشدة، على رغم عدم معرفتي لمعناه الحقيقي. خطر على بالي فحسب أنني لا أعرف أحدا يحمل مثل هذا الاسم غيري، بدا لي اسما ملفقا! وكرهته أكثر في صيغته المختصرة «بويفي» وربما كان نوانى، أي الأنثى، الذي كرهته أكثر. وكان أبي مصرّا على استعماله. «اجلسي كأنثى!» أو «أيتها الأنثى المقاتلة!» كما أسماني وهو يرفعني عن الأرض بيده اليسرى ويعطيني ثلاث ضربات مؤلمة على مؤخرتي بيده اليمنى، في اليوم الذي سقطت فيه عن شجرة الكاشيو.

لكنني لست هنا لأكتب سيرتي الذاتية، ولا أرغب في القيام

بذلك. من أكون لأفرض قصتي على العالم؟ في الحقيقة كل ما أود قوله هو أنني كنت وحيدة طوال حياتي، ولم أنشد إطلاقا الاهتمام من أي كان. إطلاقا! ولا أذكر بتاتا قيامي بأي عمل يتطلب مني استدعاء فرض نفسي على الآخرين، ويعني ذلك أنني لم أقم بأي شيء خارج حدود إمكاناتي البسيطة. والذي يعني في النهاية أنني لا يمكن أن أكون طموحا.

أنا حساسة جدا تجاه هذا الموضوع، ولست أمانع في الاعتراف بذلك كوني قد التقيت بأشخاص أقوياء وذوي نفوذ فذلك لا يعدو أن يكون مصادفة، وليس نتيجة لتخطيط من قبلي. وفي الأساس، فقد أصبحوا أقوياء وذوي نفوذ بعد معرفتي لهم وليس قبلها. لم يكن كريس وزيرا عندما تعرفت عليه، ولكن مجرد رئيس تحرير في الجازيت الوطنية، وكان ذلك منذ أيام الحكم المدني. ولو قلت إن كريس قد قام بكل المطاردة، فلا يعني ذلك أنني أتباهى أو شيئا من هذا القبيل. بكل بساطة، كان الأمر كذلك بالفعل، ولم أكن حييّة أيضا. إنها التجربة التي حصلت عليها من عالم وحدتي الصغير والتي علمتني أن أكون يقظة. بعضهم يقول إنني ميالة إلى الارتياب بطبعي، وقد أكون كذلك، كوني فتاة تتسم بجمال فوق المتوسط، وتعليم جيد وفي وظيفة جيدة، فإنك سرعان ما تتعلم ألا تفتح بالكامل لكل متحدث لبق يبدأ في الغناء على عتبات بيتك. ليس من جديد في هذا الأمر، فكل فتاة ترضع هذه المعلومة من صدر أمها، على رغم أن البعض يخترن فيما بعد أن ينبهرن بالنسيان لسبب أو لآخر. أو، في

حالة أخرى، يصبن بالذعر الشديد فيسحقن بفكرة أن الزمن يتخطاهن. عندها تسمع كل الأحاديث التافهة من الفتيات: الزواج من وغد أفضل من تربية شارب في بيت أبيك، زواج غير سعيد أفضل من بقائك نوالة شقية، الزواج من السيد خطأ في هذا العالم أفضل من الزواج من السيد صح في الجنة، كل الزيجات عبارة عن دبري أمرك، كل الرجال يشبهون بعضهم، و... وخزانة مليئة بمثل هذه السخافات.

كنت مصممة منذ البداية أن تحتل حياتي المهنية الترتيب الأول، والأخير إذا لزم الأمر. مقولة أن كل امرأة تحتاج إلى رجل لتكتمل هو أمر رفضته بالكامل من البداية، وعددته هراء وتسلطا ذكوريا، حتى قبل أن أعرف بوجود حركة التحرر النسائية. تسمع على الدوام قومنا وهم يرددون: ولكنك تعلمت هذه الأمور في إنجلترا. هراء مطلق! لقد كان هناك من التسلط الذكوري في بيت أبي ما يكفي لسبع حيوات أخرى!

لهذا عندما التقيت بكريس لم أكن على وشك القفز بين ذراعيه لمجرد إشارة منه، على رغم أنني أعجبت به فعلا. والأغرب من ذلك فقد أعطاني هو نفسه سببا قويا لأكون حذرة: كان وسيما للغاية ومراعيا لمشاعر الآخرين، لم يكن يشبه أولئك المتهورين الذين كان يعج بهم المكان في جو الرفاه الذي حققه ظهور النفط، إلى الدرجة التي شككت فيها أنه وبكل بساطة لا بد من أن يكون زائفا!

غير منطقية؟ قد أكون كذلك. ولكن لا يمكن لومي بسبب الحالة التي يوجد عليها هذا العالم. ألم يقل قومنا إن الزوجة

العاقل هي التي تكون حبلى على الدوام؟! مبدأ الشك هو مثل رقم الحظ للفتاة، ولا يمكن لومها على ذلك، فهي لم تصنع عالمها بهذه القسوة.

إحدى صديقاتي - وهي من أكثر الفتيات اللواتي تصادفهن جاذبية وعقلانية - لم تقترف جريمة سوى بلوغها سن السادسة والعشرين من دون أن تتزوج، اصطحبها خطيبها لمقابلة أهله في إحدى القرى النائية، عندها أسمعتها عمّة له أو إحدى قريباته مثلا بما معناه: إذا كان «أوجيلي» بهارا ثمينا ما كنا تركناه للجرذان لتخطو فوقه وتحفر فيه! بإمكانك دوما الوثوق في تصرف صديقتي كومفرت، ولكن الإهانة لم تزعجها بقدر ما أزعجها صمت رفيقها. وعليه فقد التزمت الصمت حتى وصلا إلى المدينة ودخلا شقتها. عندها أخبرته أنها طالما راودتها الشكوك في كونه شبيها بالجرذان. بإمكاني سماع كومفرت تقول ذلك وهي تطرده من شقتها! وهي الآن تعيش زواجا سعيدا مع أحد الشماليين ولديها طفلان.

بالطبع فإن تجربتي مع كريس كانت مختلفة بالكامل. إنه يبدو متفهما لكل شيء يخصني من دون طرح سؤال واحد. طالما أدهشني خلال تلك الأيام الأولى بنفاذ بصيرته حول الأشياء التي أحبها أو التي لا أحبها، مثل الألوان أو الطعام أو بعض التصرفات وعندما أسأله: و«لكن كيف عرفت؟» كان يبتسم ويقول: «تذكري أنني صحافي، ومهمتي أن أكتشف الأمور». مجرد الطريقة التي نطق بها ذلك كانت كفيلة بإذابة دفاعات أية امرأة.

من الناحية العاطفية لم يكن لدي أي تحفظات تجاه كريس. ولكن الجانب العقلاني اضطرني إلى أن أستخدم ـ وبكل قوة ـ مبدأ الإحساس بالخطر. بشكل ما شعرت كأنني شخصيتان تعيشان في جسد واحد، ليس مثل مستأجرين متعاديين وإن كانا يعيشان في ألفة، بل شخصان هما على درجة من الاختلاف ليصبحا مصدر إثارة كل منهما للآخر من دون أن يكونا متنافرين.

أتذكر بوضوح أن أول ما خطر ببالي عند مقابلتي له للمرة الأولى هو إحساسي بالحسد تجاه زوجته. ورغم ذلك فقد مرت أسابيع قبل أن أسمح لنفسي بالتقصي عنها بحذر شديد، ليس مباشرة من كريس، ولكن بطريقة مستترة عن طريق طرف ثالث هو «آيكم»، ذلكم هو التناقض المتوازن بدقة الذي وجدت نفسي فيه بعد معرفتي بعدم وجود الزوجة، فبرغم اعترافي بأن ذلك قد منحني بعض الراحة، إلا أنه لم يُرضني بالكامل. ويمكن القول إنه كان هناك ترسبات قليلة من خيبة أمل في قاع التيار الهوائي البارد، أتكون خيبة أمل المقامر أو المقاتل بالسليقة، الذي تُسرق منه نشوة النزال واحتمال الفوز؟ أم أن العلاقة فقدت بعضا من بريق جاذبيتها بالنسبة إليَّ، لأنني في أعماقي لست إلا مثل تلك العمة في القرية، التي ترى أنه لا يمكن لشيء بهذا التميز أن ينتظرني كل هذه المدة لأعثر عليه بالمصادفة؟ يا له من تفكير مشين!

حتى عندما وجدت نفسي قد بدأت أبحث واختار نوع لباسي أو زينتي، كلما ظننت أنني سأقابله، كنت أصرف الفكرة

بحجة أن ذلك ما هو إلا إثارة ليس بها من ضرر، وأن من حقي التمتع بها مادمت احتفظ لنفسي بنظام رقابة جيد.

كنت في السوق صباح ذات سبت، على ما أظن، عندما أعطاني آيكم فرصة للسؤال عن زوجة كريس. لا أذكر التفاصيل بدقة ولكنني أظنها كانت إثر دعوة منه لمرافقته مع صديقته وكريس لحضور حفلة عيد ميلاد صديق ما. رفضت الدعوة لسبب أو لآخر، ولكنني تمكنت بما استطعت إبداءه من لامبالاة من السؤال، وأين زوجة كريس على كل حال؟ أم أنه أحد أولئك الذين يشحنون زوجاتهم إلى أمهاتهن أو إلى قابلة القرية بمجرد أن تغيب عادتها الشهرية؟

«بي بي!» صاح بي مدعيا الغضب، وتتطلق من عينيه الواسعتين نظرة سرور مشاكسة، «بالنظر إلى شفاهك المحتشمة...».

«أدري، أدري. ليس بإمكانك المعرفة، أليس كذلك؟ تماما مثل النظر إلى فم الملك فلا يمكنك التهكن بشيء، أليس كذلك؟».

«أو عند النظر إلى مشية سيدة ما، فلا يمكن معرفة كل شيء عنها، أليس كذلك؟».

«كفى!» صحت مدعية غضبا معاكسا، واضعة سبابتي فوق شفتي. «كل ما سألتك إياه هو أين يشحن صديقك زوجته؟».

«ليس هناك من زوجة يا عزيزتي، وعليه بإمكانك أن ترتاحي».

«أنا! هذا الموضوع لا يعنيني».

«الكثير الكثير. أرى أشياء كثيرة منذ أمد بعيد، يا عزيزتي».

«ترى ماذا؟ أرجوك ابتعد عن طريقي». وشرعت في دفع عربة مشترياتي لتخطيه والتوجه صوب فتاة الخزانة، لكنه أمسك بذراعي وجذبني نحوه، ثم طفق يقدم لي في همس مرتفع مصحوبا بنظرات تآمرية متخلفة تقريرا مطولا مضحكا عن الأفعال وردود الأفعال التي لاحظها بيني وبين كريس خلال الشهور الماضية، والتي ليس لها إلا معنى واحد، أن صديقه كريس قد وقع في الفخ!

«يبدو أنك قد جننت كثيرا، كثيرا... أرجوك تنحى عن طريقي».

كان ذلك في السنة التي عدت فيها من إنجلترا. عرفت «آيكم» لسنوات - منذ أيام وجودي في جامعة لندن. كيف قام بذلك؟ لا يمكنني القول، ولكنه أصبح على الفور مثل أخ لي. كان قد أكمل تعليمه منذ عامين أو ثلاثة، وظل يتسكع في لندن ليقوم ببعض الأعمال المختلفة للناشرين، يقرأ أشعاره في المركز الأفريقي وأمكنة أخرى مشابهة، ويكتب لمجلات العالم الثالث، قبل أن يدعوه أصدقاؤه في الوطن ويقنعوه في النهاية بالعودة ومشاركتهم في بناء الوطن. «محض هراء!»، كان يقول لاحقا وهو يتذكر.

عندما عاد إلى الوطن أخيرا، كنت قد بدأت لتوي السنة النهائية من الدراسة في جامعة الملكة ماري، وكنا قد أصبحنا صديقين حميمين. كانت هناك فترة زمنية قصيرة تعرضت العلاقة لكثير من الشد والإرخاء لتتحول إلى علاقة حب، لكننا نجحنا في إعادتها إلى بر الأمان، واستمرت علاقتي بصديقي الثابت جاي، وعادت علاقاته بعدد لا يحصى من الفتيات.

جلست وتحادثت وتناقشت مع «آيكم» حول أمور عديدة، جادة وغير جادة، أكثر مما فعلت مع أي إنسان آخر أعرفه. بالطبع فأنا أعتقد أنه شاعر وكاتب رائع، وكان إطراؤه لما أكتب أحيانا من قصة قصيرة أو قصيدة يمنحني تشجيعا رائعا، حتى أنني لم أمانع كثيرا طريقة إطرائه لأسلوبي في الكتابة بوصفه بالذكوري أحيانا وبالقوي أحيانا أخرى! وعندما نبهته إلى ذلك وقلت متندرة إن ذلك يعتبر علامة أكيدة على رؤيته الشوفينية الذكورية، فوجئ في البداية، ثم أطلق إحدى تلك الابتسامات الغامرة التي تفضح الطفل خلف ذلك القناع من اللحية والضراوة المكتسبة.

تجادلنا طويلا خلال العامين المنصرمين حول ما أسميه بالصدع الموجود في ترسانة ألمعيته وأفكاره الخلّاقة. قلت له إن النساء ليس لهن أي دور في تفكيره السياسي، ولا يبدو أن لديه القدرة على فهم ذلك، أو أنه لم يفعل إلا بالقرب من النهاية.

«كيف يمكن أن تقولي ذلك يا بي بي؟» كان يتساءل باكيا بما يشبه القنوط.

بإمكاني فهم ما يحس به من قنوط، فها هو رجل كتب رواية كاملة، ومسرحية عما يُعرف بحرب المرأة سنة ١٩٢٩، التي أوقفت فيها النساء زحف الإدارة البريطانية، وها هو يتهم بعدم إعطائه دورا سياسيا واضحا للمرأة. ولكنني أرى أن إعطاء المرأة اليوم الدور نفسه، الذي أعطي لها من قبل المجتمع التقليدي بالتدخل عندما يفشل كل شيء آخر ليس بكافٍ.

تماما مثلما شاهدنا في فيلم «سيمبيم»، حيث تقوم النساء بالتقاط الرماح التي تركها وراءهم رجالهم المهزومون. ليس كافيا أن تكون النساء ملاذا أخيرا، لأن الملاذ الأخير هو صورة ملعونة، بعيدة جدا ومتأخرة جدا.

يكاد يكون هذا هو التحفظ الجاد الوحيد لي تجاه موقف «آيكم» السياسي. لا بد لي من الاعتراف بذلك، على الرغم من العجرفة التي أبداها مع صديقاته، حتى إن صديقا حميما مثل كريس نعته بانعدام المبادئ، إلا أنه في حقيقة الأمر كان يكن احتراما عميقا لثلاثة أنواع من النساء: الفلاحات، وبائعات السوق، والمثقفات.

يمكن أن يكون مبالغا في مراعاته لشعور الآخرين، وقد عرفته يسير شوطا طويلا ويغوص في أشياء تزعجه شخصيا من أجل مساعدة امرأة في محنة. ما زلت أشعر بالقشعريرة في جلدي كلما تذكرت ليلة الشتاء قارسة البرد التي وجد نفسه فيها وقد حُبس في القطار الأخير في لندن، وكاد يلقى حتفه بسببي.

كنت من الحماقة لأهاتفه بعد أن أمضيت الليلة الأكثر مهانة في حياتي على يد صديقي جاي في أثناء المشاركة في حفلة أعياد الميلاد النيجيرية في قاعة بلدية سانت بينكراس. لم أكن في الحقيقة أطلب من آيكم أن يتجشم الصعاب ويأتي إلى مكان إقامتي في تلك الساعة المتأخرة، بل كل ما رغبت فيه هو محادثة شخص مثله، شخص مختلف عن الأميين التافهين الفوضويين وعديمي الإحساس من الشباب، الذين تصدّرهم بلادنا بكثرة في ذلك الوقت بشكل يماثل حجم صادراتها من

النفط. لكن لشعوره بأنني كنت غاية في الانزعاج، عند سماعه لصوتي، سارع إلى اعتمار قبعته وشاله ومعطفه وانطلق يخوض في الثلوج ليلحق بآخر قطار يتحرك بعد منتصف الليل في محطة جنوب لندن. عندما وصل إلى باب شقتي - في النهاية - بعد مغامرة مطولة في الحافلات الليلية، كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحا. أحسست بعدم الارتياح للأمر إلى درجة أنني لم أكن في حاجة إلى من يواسيني. كنت مستعدة لطبخ أي وجبة تساعده على الإحساس بالدفء، أرز؟ قمح مجروش؟ خضار؟ هز رأسه لأن شفتيه كانتا من التجمد بحيث لم يستطع الكلام. في النهاية كل ما استطعت إقناعه به هو تناول فنجان قهوة من دون حليب أو سكر، ثم تدثر بمعطفه واستلقى على الأريكة وتملكه النوم مباشرة. عندها قمت بنزع آخر بطانية عن سريري ووضعتها فوقه.

من بين كل الأشياء السخيفة وأكثرها منافاة للعقل التي وجدها الناس ليقولوها عنا هذه الأيام هي أن آيكم واحد من عشاقي الثلاثة. اللعنة، فالرجل لا يعدو كونه أخا لي!

لم أره كثيرا خلال العام الفائت - ربما مرتين عند ماد ميدكو، وعدة مرات في حفلات مختلفة، وزيارة أو اثنتين إلى بيتي. لم تكن زياراته المنزلية على قدر من الروعة، ولكنه كان يترك انطباعا لا ينمحي عند كل زيارة.

الزيارة الأخيرة كانت في أغسطس. أتذكر أنه شهر أغسطس؛ لأنه توجه إلى شقتي بعد تعرضه لعاصفة استوائية

ضخمة في غير موسمها. صدر عن جرس الباب صوت حاد في المطبخ، وتبع ذلك طرق عنيف مرتبك على الباب الخارجي، فقفزت من مكاني، ليس لفتح الباب، ولكن لمنع مدبرة منزلي أجاثا، التي هرعت خارج المطبخ مثل أرنب أخرج من جحره بواسطة الدخان. مهما حاولت أن أشرح لأجاثا عن تفاصيل قصص القتل والاغتصاب المروعة، إلا أنها ظلت منيعة للحكايات عن خطر اللصوص المسلحين المحيطين بنا. ببساطة تقول نعم سيدتي، وكلا سيدتي لكل ما تسمعه، ولكنها تعود وتفعل الشيء الذي كانت بصدده من قبل.

«عودي إلى المطبخ!» أرعدت في وجهها وبالصوت نفسه تحولت باهتمامي إلى الشيء الموجود خارج بابي. شعرت أخيرا إلى حد ما بحماية أكثر من قبل بعد أن دعمت كل الأبواب والنوافذ في شقتي بأسياخ حديدية، بحيث إذا قام الشخص الموجود بالخارج بكسر باب الخشب الخارجي سيجد نفسه في مواجهة الحديد، ويمنحك كل ذلك الوقت المناسب لتخطط لهروبك. مع ذلك فقد وقفت بعيدا عن الباب الخارجي، وعيني على مخرج المطبخ وسلالم الحريق الواقعة وراءه.

«من الطارق؟» صحتُ فيه. كائنا من هو، لم يكن يبدو عليه أنه سمعني واستمر في قرع الجرس وطرق الباب بقوة. حسن، لم يكن في نيتي التراجع واستمررت في المطالبة بمعرفة من يكون؟ استمر ذلك فعليا لعدة دقائق، وبدأ الخوف يتملكني، وعندها إما أن يكون قد سمعني، وإما قد خطر له من تلقاء نفسه استعمال صوته بدلا من قبضتيه، والتقطت نبرته بين

فترات الراحة البسيطة تلك، عندما تتوقف العاصفة لتلتقط نفسا عميقا. ففككت قفل الباب الحديدي وفتحت الباب.

«لم تكن تمطر في المكان الذي أتيت منه»، صرخ ببلاهة وهو يدخل: «لقد التقيت بالعاصفة مواجهة بالقرب من مبنى السكرتارية بالضبط، أتعرفين لقد بدا الأمر لي كأنني اصطدم فعليا بعمود من الماء، بإمكانك أن تقفي هناك بقدمك الأمامية مبللة، والأخرى جافة».

«ادخل... سنفقد أصواتنا من الصياح هنا».

ترك مظلته التي تقطر ماء بجانب النباتات التي احتفظ بها في الأصص بالقرب من الباب وتبعني إلى الردهة. ما إن أصبحنا في الداخل، والباب والنافذة مغلقان بإحكام، تراجع صوت المطر بطريقة درامية ليصبح مكتوما في الخلفية البعيدة.

«عندما كنا أطفالا»، قال «آيكم»، بعد أن ألقى بنفسه على كرسي الجلوس وطفق ينزع عنه حذاءه المبلل، ويضع جواربه بداخله. «كان شهر أغسطس معروفا بجفافه، وكنا نطلق عليه راحة أغسطس. كتب الجغرافيا شرحت ذلك، وتوقعه الفلاحون في القرى. لم تُخل راحة أغسطس بالنظام أبدا في تلك الأيام».

«حقاً؟».

«ما الذي حدث لأيام صباي تلك، يا بي بي؟».

«لقد ضاعت وشُتتت. أخشى أنها قد فقدت إلى الأبد، يا آيكم».

«كنت آمل ألا تقولي ذلك. ليس اليوم على الأقل. أووه، لا

عليك».

«ما خطب اليوم بالذات. أهو يوم مولدك أو شيء من ذلك؟».

«ليس لي أعياد ميلاد. فلم يكن هناك تسجيل للمواليد أو الوفيات في قريتي عندما ولدت. شهادات ميلادنا مصدق عليها من الشعب». ضحكت وشاركني هو... «لم أكن أحد أطفالكم المولودين في وسط مظاهر الدلال. لقد وصلت إلى هذا العالم فوق أوراق الموز، خلف بيت القش، وليس على ملاءات سرير بيضاء... جميلة هذه الزهور، ما اسمها؟».

«لم أعرف عنك من قبل إطلاقا اهتماما بالزهور، أو ما ترتديه النساء أو مثل هذه الترهات. ما الأمر؟».

«آسف يا بي بي، فهذا فستان جميل، وهذه زهور جميلة. ما اسمها؟».

«أجاثا تطبخ الآن ذرة مع حساء اليوبي. هل تريد منه أم تفضله مع جوز الهند؟».

«أفضل كلا من اليوبي وجوز الهند».

«أيها النهم!».

«كلا... تسمى هايدرينجا، الزهرة الكوبية».

عندما دخلت إلى المطبخ لأفتح الخزانة لأجاثا وأعطيها ثمرة جوز الهند، أخذت أسائل نفسي حول آيكم، وما الذي هو بصدده. هل يكون كريس؟ هل أخذت علاقتهما، التي تمر بمطبات خطرة في الشهور الأخيرة، انحدارا حادا نحو الاصطدام؟ طالما تجنب «آيكم» التذمر لي من كريس. هل هو

بصدد كسر أسلوبه الشكوكي هذه المرة؟ عندما عدت إلى غرفة الاستقبال كان يرفع إناء الزهور بالقرب من أنفه ويشتمه.

تناولت طبقي المكون من الذرة مع اليوبي، وجوز الهند في لقيمات متعاقبة. في الخارج، كانت العاصفة تزمجر ـ كما أحب لعواصفي أن تفعل - بعيدة جدا، رعدها وبرقها العنيف بعيد مني وخافت كما في الأفلام. كنت سأشعر بالراحة التامة لو لم تكن تصرفات «آيكم» تشوبها الغرابة. وقد صليت لأن تكون العاصفة هي السبب. عرفت منذ طفولتي أن بإمكان العواصف المدارية أن تؤثر بدرجات متفاوتة على المخلوقات المختلفة. طالما قامت أختي الكبرى أليس في غياب والدي بالجري حول الفناء، رافعة عقيرتها بأغنية طفولية للمطر:

«أوجووجو ميلي

تاكومي آيولو»

بعد أن يأخذ منها الإنهاك مأخذه، تدخل إلى البيت وهي ترتعد، عيناها حمراوان وبارزتان، وأسنانها تصطك باستمرار ثم تتجه إلى نار المطبخ. أما أنا التي كانت تلقبني بـ «ملح»، أو عندما تكون أقل احتراما تناديني بـ«الآنسة» العنز بسبب عدم قبولي للبلل، فقد كانت طريقتي المفضلة في استقبال العاصفة أن ألف نفسي في فراش على الأرض وأقوم داخل كبسولتي الدائرية المظلمة بممارسة لعبتي الصامتة بترنيم أغنية المطر عن طريق الضغط براحتي على أذني ثم نزعها بالتناسق مع النغم. لا شيء كان يشعرني بالرفاهية في تلك الأيام أكثر من النوم على صوت الأمطار ليلة الجمعة، متيقنة بعدم وجود

مدرسة أو كنيسة تشغل بالي في اليوم التالي:

«ماذا كنت تفعل في الصغر عندما تُمطر هكذا؟» سألت «آيكم».

«ولكن سبق أن أخبرتك. لم تكن تمطر أبدا في أغسطس. كنا نتمتع بشهر من دون أمطار نسميه راحة أغسطس».

«موافقة. في يوليو أو سبتمبر إذا؟».

«عندما كنت صغيرا كنت أنزع عني أسمالي البالية وأركض نحو المطر».

«وكنت تغني أوجوووجو ميلي تاكومي آيولو؟».

«كنت تغنين للمطر أيضا؟» وكاد يقفز من الإثارة.

«كلا. ولكن أختي الكبرى كانت تغني للمطر».

«أوه... وماذا فعلت أنت؟».

«كنت أصغي، فقد كان المطر يغني لي».

«فتاة محظوظة! ماذا كان المطر يقول لك؟».

«أوّا توّا توّا، توو... واااا... تووو... واا دووو - دااا... بووو - باااا... شووو... «بووو - باااا» قال «آيكم»: «أغنية رائعة!».

«ربما تعجبين يا بي بي لماذا أتصرف بغرابة شديدة هذا اليوم. حسن، لقد أتيت في مهمة لم أقم بمثلها من قبل... أتيت لأشكرك على أعظم هدية يمكن أن يقدمها إنسان لآخر ألا وهي التبصر. ذلك ما أعطيتيه، وأريد أن أقول لك شكرا».

«التبصر؟ أنا؟» «التبصر في ماذا؟».

في «عالم النساء».

كتمت ملاحظة طريفة كانت ترتعش فوق شفتي. منعها من الانطلاق التحول المفاجئ الذي طرأ على «آيكم» وأخلاقه

العالية. أمسكت عن القول وصرت أستمع إلى هذا الإعلان الغريب.

«أخبرتني منذ عامين مضيا، إذا كنت تذكرين، أن أفكاري غير واضحة ورجعية حول دور المرأة العصرية في مجتمعنا. هل تذكرين؟».

«أذكر ذلك».

«وقد قاومت هجومك...».

«لم يكن هجوما».

«لقد كان كذلك! ولكنني قاومته بشدة. ولكن الشيء العجيب هو أنني كلما قرأت فحوى هجومك...».

«أوه، يا إلهي!».

«... أصبح دفاعي غير ذي معنى. لقد كان لتنحيتي من الجازيت فعل العجب بالنسبة إليّ، حيث تمكنت من الجلوس والتفكير في جوهر الأمور. والآن أؤمن بأنك كنت على حق، وكنت مخطئا».

«أوه، لا تبالغ يا «آيكم». تعرف أنني أمقت أولئك الذين يدعون الولادة من جديد».

«لا تحاولي التفكه!».

«أعتذر. استمر ماذا حدث؟».

«لم يحدث شيء. ببساطة طرأ علي منذ صباحين أنه لا بد للراوي من أن ينصت إلى شخوصه والذين هم في النهاية قد استحدثوا ليحتذوا الحذاء ويشيروا إلى الكاتب أين يقرص».

«توقف عندك! هل تلمّح إلى أنني إحدى الشخصيات في روايتك؟».

«بي بي إما أن تلتزمي الجدية أو أغادر. وأنا أعني ما أقول. لقد بدأت أفقد تسلسل أفكاري».

«لن أنطق ببنت شفة. أرجو أن تستمر».

«أحد الأمور التي قلتها لي هو أن نظرتي إلى المرأة فيها مبالغة في الاحترام».

«لم أقل ذلك».

«اللعنة، لقد قلتها وكنت على حق. اتهمتني بأنني حددت للمرأة دور الإطفائي بعد نشوب الحريق في البيت وإتيان النيران على كل ما فيه. لقد أجبرتني تُهمتك على الجلوس والتأمل في طبيعة القهر. كم يجب أن يتعلم ليكون مرنا، وكم وجها يجب أن يتعلم ارتداؤها من أجل أن ينجح مرات ومرات؟».

أدخل يده في جيب قميصه وأخرج ورقة مطوية فردها بعناية على ركبته وقال «لقد كتبت رسالة الحب الغريبة هذه ليل البارحة. هل يمكنني قراءتها؟» فهززت رأسي.

«بُنيَ القمع الممارس ضد المرأة منذ البداية على مبدأ تشويه السمعة، فقد تسببت في سقوط الرجل، ولهذا أصبحت كبش الفداء. كلا، ليس كبش الفداء الذي قد يخلو من اللوم ولكن المتهم بالجريمة، الذي يستحق بقوة أي عذابات يرى الرجل أن يرميها بها. تلك هي حال المرأة في سفر التكوين. أما هنا، فقد قام أسلافنا، من دون أن يعرفوا بما ورد في التوراة، بصياغة القصة القديمة نفسها التي تختلف فقط في اللون المحلي. في البداية كانت السماء قريبة للغاية من الأرض. لكن في كل مساء

تقوم المرأة باقتطاع جزء من السماء لتضعه في قدر حسائها، أو في رواية أخرى كانت كلما طحنت الحبوب تضرب باستمرار بيد الهاون دونما حذر لتصل إلى السماء، أو في رواية أخرى - وهي من اختراعات الرجل المذهلة للغاية - شرعت في مسح يديها الملطختين من جراء العمل في المطبخ على وجه السماء. مهما كانت تفاصيل الاستفزاز الذي قامت به المرأة، في النهاية ابتعدت السماء غاضبة ومعها الرب.

حسن، قد يتماشى هذا النوع من الشوفينية مع الذوق الفظ للعهد القديم، ولكن العهد الجديد تطلب إستراتيجية أكثر تنورا، وأكثر نقاوة، وحتى أكثر حبا ظاهريا بالطبع، ولذلك خطرت على بال الرجل فكرة تحويل زوجه إلى أم الإله من خلال توقيرها، وأن يلتقطها من تحت قدميه، حيث ظلت منذ بدء الخليقة، ليضعها فوق قاعدة في زاوية لطيفة. هناك، حيث لا تلامس أقدامها الأرض بتاتا، ستكون بعيدة وغير ذات أهمية للقرارات الحاسمة على الأرض، كما كانت عليه في الأيام التعيسة البالية. الفارق الوحيد هو أن الرجل الآن لن يعاني أي شعور بالذنب، بل بإمكانه الاستراحة وتهنئة نفسه على نبله وكرمه.

في الوقت نفسه فإن أسلافنا هنا، من غير أن يطلعوا على ما ورد في العهد الجديد، كانوا معتمدين على أنفسهم في التخطيط لذريعة موازية خاصة بهم، أطلقوا عليها ننيكا، أي الأم فوق الجميع، لنحتفظ بها كاحتياط إلى أن تحل الأزمة الكبرى وينكسر الوسط وينحني فوق النار، وتحمل النخلة

ثمارها في نهاية سعفتها. عند ذلك، وبينما ينهار العالم حول آذان الرجل تهبط المرأة من علاها لتكنس القطع وتجمعها».

«هل يعني كلامي شيئا؟».

«كما هي عادتك دائما. استمر».

«أشكرك يا بي بي. أدين لك بهذا التبصر... لا يمكنني إخبارك بدور المرأة الجديد. لا أعرف. وكان يجب ألا أفترض المعرفة. من الضروري أن تخبرينا أنت، فنحن لم نسألك عن ذلك من قبل، ولأن أحدا لم يسألك من قبل فربما لم تفكري فيه، ربما لا يوجد لديك إجابة جاهزة. لكن في هذه الحالة يجب أن يعرف الجميع من الذي يملك زمام الأمور الآن».

«هذا لطف بالغ منك!».

«كان هذا هو الجزء الأول من رسالة الغرام، وهو بالتحديد الجزء الذي أدين به لك، وإليك البقية».

«النساء بطبيعة الحال هن أكبر مجموعة منفردة مضطهدة في العالم، وإذا صدقنا ما جاء في سفر التكوين، وهو الكتاب الأقدم. لكن النساء لسن وحيدات في وقوعهن تحت نير الاضطهاد، فهناك آخرون فلاحو الأرياف في كل العالم، وفقراء المدن في الدول الصناعية، والسود في كل أنحاء العالم بما فيها قارتهم نفسها. والأقليات العرقية والدينية والطوائف المختلفة في كل البلدان. الصعوبة العملية الواضحة هي في حجم وأصل المشكلة، فلا يوجد خليط أو تكتل للمضطهدين في العالم. قد يكون الأحرار في كل مكان متشابهين في حريتهم، لكن كلا من

المضطهدين يسكن حجمه الخاص. أصحاب الرأي التقليدي في يومنا هذا منشغلون بتوافه الأمور إلى درجة أنهم فشلوا في اكتشاف هذا الأمر. وأنت تعرفين موقفي من ذلك، فكل فنان حقيقي يشعر بذلك في النخاع. العلاجات المبسطة التي تُلقن لنا بأخلاقيات الباعة (بمن فيهم بعض ممن يسمون أنفسهم فنانين) ستفشل دائما بسبب الجسم المضاد العنيد داخل الإنسان، الذي يُدّعى المفاجأة. سيفاجأ الإنسان بسبب قدرته على التصرف بنبل، وكذلك على مقدرته على ارتكاب الشر. ولا يمكن لأي منظومة أن تغير من ذلك. لأنها مزروعة في جوهر روح الإنسان الحرة.

إن الرؤى المكتسحة والفخمة للجماهير وهي تنهض منتصرة مثل موجة مد عظيمة ضد مضطهديها، وتحويل عالمهم عن طريق النظريات والشعارات إلى جنة، وفكرة أن تعم العالم الأخوة، والعدالة والحرية، هي بحق نوع من الأوهام الكبرى. أن ينهض المد المتنامي الغالب، نعم، ولكن أن تعم بعدها فترة سعادة أو عدالة مطلقة لا تظهر فيها نقائص البشر، فلا! لأن مضطهدين جددا سيجهزون أنفسهم بكل سرية كتيار معاكس، قبل فترة طويلة من الانطلاق الفعلي لموجة المد.

يحذرنا الذكاء الطبيعي والتجربة بأن تقدم الإنسان في طريق الحرية يتم تدريجيا، بطيئا وبغير أسلوب درامي. قد تكون الثورة ضرورية لانتشال مجتمع ما من المستنقع الممتد العسير، ولكنها لا تمنح الحرية، وفي الحقيقة ربما تعرقلها.

إصلاحي لعين؟ هذه شتيمة ستكون موجودة بوفرة، لتذكرك

أنني قد عانيت أكثر مما أستحق من جراء مناشدة الآخرين خلال كل تلك السنوات. ولكنني أسأل نفسي: وراء نطاق ذلك التوهج المبهج الذي يحدثه بكل تأكيد رشق رمح النعوت في قلب الرامي الصالح... ما الفائدة الجادة التي يعود بها على حل مشكلاتنا؟ ولا أرى شيئا هنا.

قد يكون عندها الإصلاح كلمة نابية، ولكنه يبدو أكثر فأكثر وكأنه هو المسار الأكثر وعدا بالنجاح في العالم الحقيقي. وألزم نفسي هنا باستعمال الأكثر وعدا بدلا من المسار الوحيد للسبب البسيط، وهو وجوب الشك في كل اليقين.

المجتمع هو امتداد للفرد. وأكثر ما نأمل القيام به تجاه نفس منفردة لها مشكلاتها هو أن نعمل على إصلاحها. ولا يطمح أي محلل نفسي عاقل إلى القيام بأكثر من ذلك، لأنه في حالة القيام بأكثر من ذلك، والتخلص من الروح نفسها، فسيعني ذلك إطلاق سراح الجنون. كلا، إن كل ما نأمل القيام به هو إعادة ترتيب بعض تفاصيل المحيط الخارجي للشخصية الإنسانية. وأي تشويش على جوهرها هو دعوة غير مسؤولة للكارثة. حتى مولود عمره يوم واحد فقط لا يجعل نفسه متوفرا لهندستك السيكولوجية التي تبحث في مسائل الأصل والفرع، لأنه يأتي إلى هذا العالم وهو يجر وراءه سحبا من الخلود، أي خلود؟ إنها أمتعته من الجينات الموروثة المتعذر اختزالها، ذلك هو الخلود.

لا بد من أن ينطبق الأمر نفسه على المجتمع. فأنت تقوم بإصلاحه من حيث هو قائم، من حيث جوهر حقيقته، وليس من حيث فكرة التجريد الثقافي.

لا يعني هذا الرأي أن يكون ذريعة مقبولة للخمول السياسي، أو اللامبالاة. في الواقع فإن فهم هذه المسألة هو ضرورة مطلقة للتصرف ذي المعنى. إدراكنا لهذا هو الوسيلة الوحيدة التي نستطيع الحصول عليها للتطعيم ضد الآمال المزيفة، وضد أوبئة السذاجة السامة.

ينظر بعض المنظرين الراديكاليين من خلال مفرداتهم للاختلاف كشيء يماثل المرض القاتل، الذي يخضع له منافسوهم فقط. ولكن الاختلاف هو الحياة نفسها، فلو كان هناك مقدار ضئيل من الاختلاف بين خنازير «جادارين» لأنقذ بعضها من الغرق.

لو تُفهم مسألة الاختلاف جيدا وتستخدم بالقدر نفسه، فسيؤدي ذلك إلى إشعال شرارة الاختراع، فالتقليدية - سواء كانت يسارية أو يمينية - هي مقبرة الإبداع.

لست مدينا لك بهذا التبصر يا بي بي لأنني تشربته من ثدي أمي. وكل ما احتجته منذ ذلك الوقت هو توكيده. «هل أنا في تضاد مع نفسي؟» سأل والت ويتمان. «حسن جدا. أنا في خلاف مع نفسي». «صدح بتحدٍ: « أنا كبير، وبداخلي فضاءات متعددة». بداخل كل فنان فضاءات متعددة. فالقس جراهام جرين هو كاثوليكي روماني موالٍ لروما، إذا صح التعبير، فلماذا إذا يكتب بكل هذا الالتزام حول القساوسة السيئين الشاكين والمشكوك فيهم؟ لأن الفنان الحقيقي مهما يعلن عن معتقداته، فلا بد من أن يحس في دمه بالعداوة المطلقة بين روح الفن والتقليدية.

أولئك الذين لا يرون أي شائبة من النذالة في أحبائنا المضطهدين، ولا يخلعون على المضطهد الكريه أي سمات إنسانية، هم الوطنيون الموالون، المتمسكون بخط الحزب. في خاتمة الأشياء العظمى سيكون لهم أيضا قصرهم، حيث سيستقبلون وينزلون في النعيم من قبل أنصاف الآلهة أصحاب الفكرة الواحدة، الذين يعبدونهم. ولكن ذلك لن يكون في مجمع الكهوف الكبير المتناقض في ظاهره للأم أيدوتو».

رمى نحوي بالورقة المكتوبة بخط اليد قائلا: «لا بد من أن أذهب» وشرع في ارتداء حذائه. حملقت في الورقة وفي الكتابة عليها، كتابة أنيقة، ولكنها في الوقت نفسه قوية بشكل طاغ. نهض، فنهضت أيضا وسرت في اتجاهه، وباندفاع طوقني في حضنه. نظرت إلى الأعلى، إلى وجهه، وبدأ في تقبيلي. كل ما في داخلي أخذ في الذوبان، وأخذت ركبتاي تخونانى. كنت أرتعش بعنف وبدوت كأنني أجاهد لكي أتنفس.

«أعتقد أنه من الأفضل أن تغادر»، تمكنت من النطق. فتركني أنساب من يديه ببطء وسقطت على الكرسي.

«نعم. من الأفضل أن أغادر».

ثم ذهب، ليس مؤقتا كما اعتقدت، وربما كما اعتقد هو أيضا، ولكن إلى الأبد. هدأت العاصفة من دون أن ننتبه لها، وكل ما تبقى منها هو ارتعاشات ضعيفة لبرق متقطع، وتجشؤ وفواق متخم بعض الأحيان لرعد بعيد.

الجزء الثامن

البنات

إيديميلي

كوننا محاطين بالغموض وبأسرار عميقة، فذلك بديهي للجميع عدا الجُهال الذين لا يؤمل من ورائهم شيء. ولكن حتى هم يجب عليهم الاعتراف بالحقيقة وبحتمية التداخلات الأكيدة والموزعة بحكمة، وهي تداخلات في صميم تدفق فنهم الراقي للزج بأفكار من يلجأون إليه وهي الألوهية التي تسيطر عن بعد، ولكن بإتقان على تعاملات السوق الذي هو عالمهم.

في البدء عاشت القوة المطلقة خلال عالمنا هذا. لذلك فقد نظر الخالق الجبار إلى مخلوقاته من خلال عين الشمس التي لا تموت، ثم أمعن النظر وتدبر وقرر إرسال ابنته إيديميلي لتكون شاهدة على الطبيعة الأخلاقية للقوة عن طريق لف الخصر الفظ للقوة بحزام التواضع والأمن.

انحدرت على عمود الماء المتألق. لا يتذكرونها الآن إلا في الأسطورة فقط، ولكنها كما يقول البعض التقت بأخذ أكثر الأحوال النادرة لإشعاع الشمس، أندر حتى من احتفالات أديونكي التي تقام كل ثماني عشرة سنة، بتنوع المشاركين فيها، وهم يقودون مجموعات الأبقار في مسيرات خلال ممرات القرية لتقديمها كقربان. تأخذ في الارتفاع بمهابة من تجويف البحيرة المظلمة دافعة نفسها إلى الأعلى، منتصبة مثل أبي أشجار الأيروكو، لا يقتصر مجال رؤيتها على الغابة التي تحتها، بل يصل حتى إلى قبة السماء.

في البداية كانت هذه البحيرة المقدسة هي المعبد الوحيد لإيديميلي، لكن مع تزايد عدد البشر وانتشارهم عبر العالم، فقد شرعوا في بناء معابد صغيرة مبتعدين عن البحيرة أكثر فأكثر... وحيثما وجدوا أرضا طيبة وماء استقروا. مع ذلك أخذت أعدادهم في الازدياد لتفوق مقدرة كل مستعمرة جديدة؛ ولهذا استمر البحث عن الأرض والماء.

الذي حدث هو أن الأرض الطيبة كانت متوافرة أكثر من الماء الطيب، ولم يمض وقت طويل حتى أخذت بعض القرى الواقعة بعيدا عن العيون وجداول المياه في إطفاء ظمئها الشديد من عذوق الموز في أسوأ جفاف مر بهم. شاهدت إيديميلي تلك الحالة عندما كانت تسافر متنكرة في زي صياد، وعند عودتها أرسلت جدول مياه من بحيرتها ليتسلل عبر التجمعات الظمأى حتي يصل إلى أوريميلي، ذلك النهر العظيم الذي سيقوم أجانب غريبو الأطوار في أجيال لاحقة بالبحث عنه وإعادة تسميته بنهر النيجر.

لن تعدم الآلهة - التي تفعل ما تقول - من يقوم بعبادتها. وازداد مريدو إيديميلي في كامل البلاد من أومامبالا حتى ايجويدو. ولكن كيف يمكنهم أن ينقلوا إلى أقصى مدى ذكرياتهم المشتتة عن عمود الماء المهيب المنتصب في البحيرة المظلمة؟

تظل أفضل حيل الإنسان للإيقاع بعظمة الألوهية في حبائل شراكه غير ذات جدوى، وكلما أصبح متحمسا للنضال كانت النتيجة متعارضة وغير مناسبة، ولهذا كان من الأفضل ألا يحاول إطلاقا؛ بل الأفضل أن يجعل ذلك التنافر أحد الطقوس،

وعن طريق استحضار غموض الاستعارة للتلميح إلى المجد الأكثر صعوبة في النيل بالمضاد له تماما.. تعبير صارخ عن الدنيوية - جدول مياه بسيط، شجرة، صخرة، مرتفع أرضي، إناء صغير من الفخار به قطع طباشير.

هكذا تبين أن عمود الماء المتعذر وصفه الذي يصل السماء بالأرض عند سرة البحيرة السوداء، قد تحول إلى عدد لا يحصى من المعابد في كل البلاد، عصا جافة تنتصب قائمة من سطح الأرض العارية.

هذا الرمز الذي يشير إلى أن الإنسان قد حقق ما ينشده من ثروة من الحبوب والمواشي ويرغب الآن في أن يضع ريشة صقر علامة على نجاحه، عن طريق شراء عضويته في هيئة كهنوت الأوزو، لا بد من أن يقدم نفسه ويقدم القرابين قبل أن يشارك في الاحتفالات، ويقدمها مرة أخرى بعد الانتهاء منها. لا يتعدى الغرض من زيارته الأولى إعلام ابنة الرب العظيم عن مبتغاه. يصطحب معه ابنته لهذه المهمة، أو إذا كان لديه أبناء ذكور فقط فترافقه عندها ابنة أحد أقاربه؛ إذ لا بد من اصطحاب إحدى البنات.

مهمة الفتاة أن تقف بينه وبين ابنة الإله الجبار قبل أن يسمح له بطرح قضيته. تمسك بيده أمام العصا المقدسة كما لو كان طفلا، ثم تعد إلى الرقم سبعة. ثم ترتب بعناية سبع قطع من الطباشير على الأرض كرمز هش للسلام، وتطلب منه أن يجلس عليها بخفة بحيث لا ينكسر أي منها.

إذا سار كل شيء على ما يرام إلى هذا الحد، سيعود عندها إلى مقر إقامته ويشرع في إقامة احتفالات «الأوزو» المتقنة

والمكلفة بالاحتفال والرقص إلى الحد الذي يرضي قومه وعاداتهم القديمة بالكامل، ثم يتعين عليه أن يعود إلى ابنة الإله العظيم ليخبرها أنه قد حمل الآن اللقب المقدس والعالي لقومه.

ليس في المقابلة الأولى ولا في الثانية تجيبه إيديميلي مباشرة، إذ يتعين عليه أن يذهب بعيدا وينتظر إشارة منها تدل على سعادتها، فإذا وجدت أنه ليس أهلا ليحمل سلطة الأوزو، ترسل عليه بكل بساطة مصيبة الموت، وتنقذ هيئة كهنوتها من التلوث والفضيحة. ولو حدث وإن وافقت عليه إيديميلي فالإشارة الوحيدة التي تتنازل في تقديمها - تدريجيا وغير مباشرة - هي أنها ستنتظر في الأمر أنه سيظل موجودا بعد حوالى ثلاثة أعوام. ذلك هو أسلوب إيديميلي في التعبير عن تبرمها بعطش الرجل الذي لا يروى للتحكم في أقرانه.

تتحدث القصة في قديم الزمان عن رجل معين بالغ الوسامة شبق جدا كما تيس كريه الرائحة من معبد «أودو» لا يمكن كبح جماحه، يزرع حبوبه الوفيرة الدافق من جراب ضخم يتأرجح بين قائميه الخلفيين في إناث الماعز المقيدة بالطول أمام عدد لا يحصى من بيوت الأسرة. يقولون إن ذلك الرجل قد رغب أيضا في الحصول على لقب «الأوزو» وأرسل طلبا بذلك إلى إيديميلي التي لم تقل شيئا. ذهب بعيدا ونفذ الطقوس المطلوبة، تزين بريشة الصقر، وحمل اللقب الشرفي نواكيبي، ثم عاد ليخبرها بما فعل ومرة أخرى لم تقل له شيئا. ثم كطقس ختامي تتطلبه التقاليد، اتخذ له مسكنا للعزاب بعيدا عن أزواجه الكثيرات لمدة ثمانية وعشرون يوما. رغم أنه كان يبقى في المنزل خلال

ساعات النهار ليراه الجميع، إلا أنه يتسلل خلال الليل عبر مسارب لا يسقط عليها ضوء القمر مباشرة إلى كوخ أرملة معينة كان مغرما بها منذ وقت طويل. وكما في أيام العبث السالفة كان ميالا لأن يطرح مثل هذا السؤال الهزلي: لماذا يتوجب على الرجل وهو يمتطي أرملة أن يتنصت لوقع الخطى خارج كوخها، بينما هو على يقين كم بعيدة هي المسافة التي قطعها زوجها؟

في وقت صياح الديكة صباح أحد الأيام، وبينما هو عائد لمواصلة كذبته الكبرى... من سيشاهد متمددا في طريقه برأسه المندس بين الشجيرات إلى يسار الممر وذيله في الناحية اليمنى؟.. ليس غير إيكي - إيديميلي نفسه، الثعبان الملكي، رسول بنت الإله - وعلى رغم إنه لا يحمل قطرة واحدة من السم في فمه، لكنه يحدث رعبا أكثر من أكبر الثعابين ضراوة وسُمّية!

هكذا قطعت طريقه غير المباشرة إلى بيت العازب، وانصاعت أقدامه لقوة خارج إرادته لتحمله مباشرة، ودون إبطاء، كما السهم إلى أحضان الرعب في مجمعه السكني، وإلى حتفه.

لم تعرف بييترس نواني بويفي هذه الأساطير والتقاليد في قومها حيث لم يكن لها إلا دور بسيط في تنشئتها. فقد ولدت كما رأينا في عالم مختلف؛ عمدت وأرسلت لمدارس بينت لها أمورا عديدة عن الإنجليز، واليهود، والهنود، وكل ما عداهم تقريبا، ولكن ليس من كلمة عن أسلافها وما كانوا يعتقونه من معتقدات. بالكاد كانت تعي نفسها، ونقول بالكاد لأنها كانت أحيانا تحمل مشاعر مبهمة أكثر حدة في بعض الأوقات من

غيرها، بأنها في الحقيقة شخصيتان مختلفتان. استتكر أباها الفتاة المقاتلة التي سقطت عن الشجرة، ورأى كريس فيها الفتاة الهادئة الرزينة التي تختفي تحت مياهها الساكنة دوامات عاطفية عميقة ومفرطة في القوة والتي دائما ما تكاد تجذبه إلى أعماق مهلكة. ربما آيكم وحده من اقترب من الإحساس بشبهها كقسيسة القرية التي ستقوم بالتنبؤ عندما تتملكها آلهتها، تاركة إذا ما اضطرت قدر حسائها فوق النار، ولكنها تعود بعد أن تغادرها الآلهة إلى متطلبات المطبخ، أو إلى كرسي المساومة الذي تحتفظ به في السوق خلف ما تعرض من قليل الفلفل والسمك المجفف والخضروات. لقد كان يعرف ذلك أكثر من بييترس نفسها.

كوننا نعرف أو لا نعرف فذلك لا ينقذنا من معرفة الآخرين لنا،أو حتى تجنيدنا وتكليفنا بالعمل. لأنه كما يقول مثل، عرف حديثا بين قومه: إن المعمودية (تترجم في لغتهم مياه الرب) لا تحمي من التملك من قبل «أجوو» إله العرافين والفنانين المتقلب في الرأي.

نواني بويفي

عندما اقتيدت بين صفوف رفاقها السابقين في الحفلة، مثل جندي موصوم بالعار قد طردته محكمة عسكرية لتوه وانتزع منه سيفه وشارات رتبته، كانت صافية الذهن بدرجة غريبة. لقد كان ذلك بتأثير الصوت الناعم الذي حمل لها أنباء وجود السيارة التي تنتظرها تحت. تحول حس الخطر لديها إلى حساسية مفرطة بفعل الصوت المحمل بالوعيد - هادئ كما في السابق ولكنه يومض لوهلة مثل تلألؤ المعدن. أها ! هذا رجل قد عاد، كما تقول الإشاعة، بعد المشاركة في دورة مكثفة في أحد جيوش أميركا الجنوبية واخترع أبسط أساليب التعذيب الممكنة أثناء التحقيقات الأولية. ليس ثمة آلات قذرة أو مزعجة ولكن مجرد قطعة صغيرة من معدات المكتب بإمكان أي كان أن يقتنيها من أي مكتبة ويضعها في جيبه - باختصار الآلة هي دباسة أوراق، ويفضل أن تكون من نوع «سامسونايت»، ما عليك إلا وضع اليد في مكان الورقة - لا يهم أن تكون راحة اليد للأعلى أو للأسفل - ثم طاخ... والأعجب أن الحقائق تقفز للخارج بسرعة، حتى من أقوى الأشخاص وأصعبهم مراسا.

تراقصت هذه المناظر خلال لحظة وبالكامل في مخيلة بييترس عندما سارت خلف الميجور عبر الغرفة، تمكنت مثله من التقاط كل تفاصيل المشهد وكأن رادارا غير مرئي قد ركب فوق رأسها. لم يغب عن المشهد الصامت إلا فخامته. أمعن فيها كل الحاضرين بصمت من مواقع جلوسهم أو قيامهم عدا

شخص واحد، بالذات كانت عينا الفتاة الأميركية تطلان من رأسها كأنهما مقلتا شبح شرس. رجل واحد فقط أبقى عيناه مسمرتين على السجادة الجالس فوقها وبدا وكأنه يرسم شيئا بإصبعه، إنه الحاج محمود - رئيس غرفة التجارة الكنجانية الأميركية. كان الوحيد من بين الحاضرين في هذه الحفلة التي انتهت للتو، ولم تتبادل معه بييترس كلمة واحدة عدا أهلا الدافئة أثناء التعارف.

السيارة نفسها وكذلك السائق والمرافق. كان الاثنان قد قفزا لأداء التحية للميجور عندما أحضر راكبتهما، وفتح باب السيارة لها بنفسه ثم أغلقه بقوة خلفها وابتعد دون النطق بكلمة.

بطبيعة الحال فقد غلب الصمت على رحلة العودة وكان ذلك مناسبا لها. تلاشى بسرعة ذلك الوخز الحاد من القلق الحسي الذي تسببت به تلك الرنة المعدنية المختبئة في صوت الجنرال المخملي، تلاشى بسرعة وأخذ معه أيضا الأسى الذي سبقه والذي كان قد اخترقه بشكل مؤثر. لا يمكن إطلاق اسم بسيط على ما جال في خاطرها وتدفق خلال أحاسيسها. كان أكثرتعقيدا من تعاقب البرودة والسخونة على مريض الملاريا. السخط، المهانة، الحنق، الأسى، الشفقة، الغضب، الانتقام، ومشاعر أخرى أقل وضوحا كانت تروح وتجيء داخلها مثل تعاقب الأمواج تأتي وتضرب قاع الشاطئ الضحل، لتتفجر على شكل زبد أبيض ثم تعود أدراجها متعبة، منطفئة إلى حد ما.

الصحيح أنه ما كان يجب أن تنام تلك الليلة، ولكنها نامت؛ وثبت أنه نوم كامل وعميق. سقطت فيه من حاشية الصحو

بدون إعداد، مرتدية كامل ملابسها. وكان صحوها مفاجئا أيضا. في لحظة كانت غائبة عن الوعي، وفي اللحظة التي تليها كانت مستيقظة بالكامل، فكرها وعيناها صافيتان تماما. وكانت تقريبا تشعر بالهدوء. لماذا؟ ما مصدر ذلك الهدوء؟ بدت لها الآن أحداث الليلة الماضية وكأنها بعيدة، مثل ما يتذكر من حلم مزعج وطويل. الليلة الماضية؟ كلا لم تكن الليلة الماضية. بل هي الليلة نفسها. هذه الليلة. ما زالت ليلة السبت المتداخلة مع صباح الأحد. ولم يظهر ضوء النهار بعد.

تناهى إليها صياح ديك آت من بعيد. غريب، فلم تسمع صياح ديك من قبل في هذه المنطقة المخصصة للمساكن الحكومية. من المؤكد أن أحدا لم ينحدر بمستواه إلى الحد الذي يربي فيه دواجن، مثلما يفعل الفلاحون. ربما أن طباخا أو نادلا أو بستانيا قد أقام قِنا للدجاج خارج غرفته في القاطع المخصص للشغالين الذكور، عندما كان البريطانيون هنا لم يكونوا ليسمحوا بمثل هذا التصرف. لقد منعوا كلية وبتاتا الاحتفاظ بأي حيوانات أليفة في محمياتهم. عدا الكلاب بالطبع. ومن الغريب أن تلك العادة استمرت ولكن ليس للأسباب نفسها التي اتبعها البريطانيون. لن تجد أيا من خلفائهم السود اليوم وهو يقوم بترويض كلبه، ولكنك ستجد على البوابة المدعمة بالأسلاك الشائكة أو على البوابة الحديدية ملصقا يعلن عن إنذار قوي: انتبه للكلب، مزينا أحيانا بصورة رأس كلب، مبينا لسانه الأحمر، من فصيلة الإلزاسي، أو الراعي الألماني. من المؤسف أن لصوص كانجان المسلحين لا يتوقفون عند ضرب الكلاب بل يطلقون عليها الرصاص.

أن تستلقي في السرير بعيون مفتوحة، تنصت لأصوات الصباح فهي تجربة جديدة لبييترس. بينما بدأ ضوء الفجر في التسلل بهدوء عبر الفراغات الموجودة في ستارة النافذة، وعبر ضوء المروحة العلوي لغرفتها، تملكتها حالة جذل مفاجئة عندما سمعت أغنية الطائر التي طالما أنصتُّ إليها في مجمع مباني الإرسالية خلال فترة طفولتها. ولكن، حسب علمها، لم تسمع تلك الأغنية منذ ذلك الحين. بالتأكيد لم تسمعها مطلقا في باستا، ومباشرة جلست منتصبة في سريرها.

أخبرتها أمها أن هذا الطائر هو الحاجب الرئيس للملك، وفي كل صباح يسأل خزنة بيت المال: «هل أموال الملك مضبوطة؟... هل أموال الملك مضبوطة؟... أموال الملك... أموال الملك... أموال الملك... هل أموال الملك مضبوطة؟».

نهضت من سريرها واتجهت إلى صالة المعيشة، أخذت المفاتيح من الخزانة وفتحت الباب الحديدي وخرجت إلى شرفتها الضيقة، وقفت هناك بين أصص نباتاتها المنزلية وأخذت عدة أنفاس عميقة لتملأ رئتيها من هواء الصباح النقي البارد، وشرعت تراقب أشعة الضوء التي تتسلل ببطء في السماء الشرقية. ثم تحدث القهرمان المجتهد مرة أخرى: «هل أموال الملك مضبوطة؟» والآن رأته على خلفية الضوء مخلوق بني داكن بصدر أبيض وأثر لا يكاد يذكر لعرف فوق رأسه. كان يربض فوق الأطول من شجرتي الصنوبر اللتين تحرسان المدخل المؤدي إلى مجموعة الشقق.

حتى هذه اللحظة لم تبد بييترس أي اهتمام بالطيور من قبل ولم تعرف من أنواعها بالاسم سوى النسور وبلشون الأبقار. أما

الآن فقد أخذ موظف القصر صاحب الضمير الحي بلبها إلى الحد الذي قررت فيه أن تعمل على معرفة اسمه في أقرب وقت ممكن. فهي تعرف بوجود كتاب مصور باسم الطيور المعروفة في غرب أفريقيا... مرة أخرى سمعت تساؤله: «أموال الملك... أموال الملك... هل أموال الملك مضبوطة؟»

أمر غريب، لكن الدموع تدافعت إلى عيني بييترس وهي تتحدث إلى الطائر: «أيها المسكين ألم تسمع الأخبار؟ لقد اقتحمت خزانة الملك ليلة البارحة، وتم السطو على كافة ممتلكاته - تاجه وصولجانه، وكل شيء».

أثناء تمعنها في أشجار الصنوبر في ضوء النهار الآخذ في التنامي، لاحظت أن حارس مجوهرات الملك ليس لوحده. كانت هناك أعدادا هائلة من أنواع أخرى من الطيور تقفز بين الأغصان مسوية ريشها بمناقيرها ومصدرة أصواتا خفيضة سلسة أو صيحات قصيرة حادة كتعبير عن الرضا. استمر الطائر على فترات في ترديد تساؤله بنبرة حادة إلى أن ارتفعت الشمس، ثم وبناء على إشارة ما أخذت الطيور في التحليق بعيدا فرادى ومثنى ومجموعات أكبر، وسرعان ما أصبحت الشجرة خالية.

قالت في نفسها، هذه الطيور لم تأت إلى هذا المكان صباح اليوم. من الواضح أنها تنام هنا علي الدوام، فلماذا لم ألاحظ ذلك من قبل؟

حتى أمها المسكينة المروعة من قبل أقرانها من النساء أمكنها تلفيق مثل هذه الأغنية من أقاصيص الزمان الغابر عن طائر أفريقي يوقظ عالمه الجديد بكلمات من اللغة الإنجليزية. جالت

بذاكرتها الآن مثل ريح عاصفة حالة تذكر قوية واستعادت كيفية سماعها للقصة. لكن ويا للحسرة، فإن أمها لم تخترع هذه القصة وإنما روتها فقط. لا بد أن الفضل يرجع لنجار كوميدي معين كان يعزف على أكورديونه في الاحتفالات الكنسية ويؤدي بعض الحليل مثل رفع طاولة بأسنانه لكي يطرد النوم عن عيون المشاركين في الحداد، ويخفف الضجر الذي تحدثه الترانيم والشهادات الدينية.

ابتسمت بييترس بسخرية. إذن سينقضي عقدان من الزمان قبل أن يتمكن أمثالي من الحصول على شهادة نجاح من الدرجة الأولى في اللغة الانجليزية، كان هناك آنذاك بالكاد أشباه أميين وصناع من الحكم البريطاني يقومون بالتقطيع في الغابة القديمة مفسدين الأصوات ذاتها والأساطير المتعلقة بأولى النهار ويعبّدوا لي الطريق.

هل كان أبي - ليس هناك حدود للعجب كما يقول - من بين أولئك الذين يشقون الطريق في باكر الصباح خلال غابة الأصوات تلك؟ يا له من تفكير غيرمناسب! ورغم ذلك فكل تلك الأمثال المدوية التي يستخدمها ببراعة الرجل نفسها الذي يهوي بقوة بفأسه. النظافة نوع من التقوى! التقيد بالمواعيد هو أساس العمل! (تذكرت الآن وهي تبتسم أن ذلك يعد بمثابة استهلال لاستعمال السوط ضد المتأخرين عن المدرسة في الأيام الماطرة) أما جوهرة هذه الأمثال والمفضل لديه منها فهو: المماطلة هي حجة الكسول! وهي حكمة مختلطة المعنى مثل الثمار الأولى المعطوبة الناتجة عن اتحاد غير ملائم أو كما يمكن أن يقول آيكم: الطعام المهروس للمبشرين!

نشطت بسرعة وبصورة غير متوقعة عند تذكرها لهذا الرجل الذي هو أباها ومع ذلك فهو غريب عنها بالكامل، مثل الطائر الذي عاش، وغنى فوق شجرتها ولم تعرفه إلا الآن.

كانت لا تزال واقفة عند حاجز شرفتها عندما أتت أجاثا لتبدأ طقوس يومها. «لا أريد إفطارا اليوم يا أجاتا».. اخبرتها بجذل. «ولكن جهزي لي فنجانا من القهوة من فضلك وتناولتها في عين المكان الذي وقفت فيه فجرا.

ذكر سحلية، برأسه وذيله الأحمر وبدنه الأزرق، يطارد بعزم أنثى ذات لون رمادي فاتح كما يفعل ذكر السحالي عادة. عبر ممر السيارة المرصوف. شقت الأنثى طريقها بسرعة خلال كوم الشجيرات وكأن حياتها تعتمد على ذلك. بهدوء اتخذ الذكر موقعا في منتصف المكان وشرع في القيام بتمرينات ضغط لا تنتهي أملا كما يبدو في إظهار قوة تحمله الجسمانية للتأثير، بلا ريب، في الأنثى الخجول.

أخيرا غادرت الشرفة ودخلت البيت لتأخذ دوشا باردا ثم ارتدت لباسا طويلا فضفاضا من الأديري الأزرق مزخرفا عند العنق والصدر والأكمام والحواشي بخطوط بيضاء متقنة. عندما نظرت إلى خيالها في مرآة غرفة النوم وراقها ما رأت، قالت لنفسها: في مسائل زينة الإناث بإمكاننا بكل ثقة أن نترك اللون الأسمر الفاتح لعائلة السحالي والصحافيات الأميركيات الزائرات. قد تكون قضية أنثى السحالي مفهومة، فنظرا للقوة الجنسية العنيفة التي يبديها ذكرها، فإنها في حاجة إلى كل ما تستطيع إظهاره من لون أسمر فاتح ليكون بمثابة درعها الواقية.

تناولت قطعة جريب فروت وشربت كوبا ثانيا من القهوة وهي تتصفح في الوقت نفسه جرائد الأحد، أغلبها تحتوي على صور نعي شخصية للمتوفين، حتى لو كان بعضهم طاعنين في السن قد مضت على وفاتهم أكثر من خمسين سنة، ولكن يبدو أنهم ما زالوا يعيشون في ذاكرة سلالتهم المخلصة في كل دقيقة تمر. وتوجد كذلك صور شخصية مكبرة للأحياء، لأولئك الذين نجحوا في الحصول على الثروة أو اللقب أو العمر الطويل، كما يمكن العثور أحيانا بين هؤلاء المشهورين من الأحياء الأموات على إعلان إنكار وتبرؤ من شخص قد انثلمت سمعته حديثا، ويكون من وضع الإعلان رب عمل أو شريك سابق، مع إرفاقه بصورة فوتوغرافية بنفس جاذبية صور المطلوبين التي تعلن عنها الشرطة.

ألقت بالصحف بعيدا وتساءلت لماذا يستمر المرء في شراء وقراءة مثل هذه الترهات، عدا أنك لو لم تفعل فلن تتجنب الإحساس باحتمال أن يفوتك أمر هام، لكن واحسرتاه... فإن قليلين منا يقاومون هذا الإحساس المزيف. نهضت وشغلت مدور الاسطوانات ووضعت أغنية «أونيكا أونوينو» حب وحيد ثم عادت للجلوس على الأريكة، طوحت برأسها على المسند الخلفي وأغمضت عينيها.

مع انقضاء الصباح أصبحت تشعر بعدم الراحة كلما مر الوقت. وأخذت تنظر في ساعة يدها بين الفينة والأخرى، مرة وبعد تغييرها للأسطوانة التقطت سماعة الهاتف، سمعت طنين النداء وأرجعتها إلى مكانها.

أخيرا بعد أن رن جرس الهاتف نظرت في ساعتها ثانية ووجدت أنها الساعة الحادية عشرة تماما تركته يرن خمس أو ست مرات وكان يمكن أن لا تجيبه بالمرة لو لم تهرع أجاثا من المطبخ للرد عليه.

كان من اعتقدت أنه هو: كريس.

«إذا لقد عدت». قال متندرا:

«نعم لقد عدت». أجابته:

«هل هناك شيء ما؟»

«مثل ماذا؟»

«هل أنت بخير يا بي بي؟»

«بالطبع. هل يبدو على أنني لست بخير؟»

«نعم يبدو عليك ذلك... هل أنت لوحدك؟»

«ماذا تعني؟»

«أنا قادم إليك. أراك فيما بعد».

بعد عشرين دقيقة أوقف سيارته أمام المبنى لم تذهب بييترس إلى الباب الخارجي ولكن إلى المطبخ أولا، فتحته وأخبرت أجاثا أنها تنتظر شخصا ولا ترغب في أن يزعجها أحد عند حضوره. دفعت النظرة المحملة بالتلميح الوقح على وجه أجاثا بييترس إلى إغلاق باب المطبخ كلية، ثم ذهبت للرد على جرس الباب.

قرر كريس إمساك الثور من قرنيه، وبمجرد أن دخل سألها: «كيف كانت الحفلة؟»

«حفلة؟ ولكن ذلك كان ليلة البارحة».

«نعم، لقد كانت ليلة البارحة وأنا أسألك كيف انقضت؟»

«على ما يرام».

كانا جالسين الآن. هي فوق الأريكة، وهو على الكرسي خلف الطاولة الصغيرة التي تتوسط سجادة بنية دائرية. جلسا يحدقان في بعضهما لدقائق إن لم يكن لساعات. كان كريس مرتبكا بالكامل فلم يسبق أن تعامل مع بييترس وهي في مثل هذه الحال ولم يكن قد جهز نفسه لذلك. أخيرا نهض، سار بضع خطوات ووقف قبالتها.

«هل يمكن أن تخبريني، يا بي بي، فيم أغضبتك؟»

«أغضبتني؟ من قال إنك أغضبتني؟»

«إذا لماذا تتصرفين بغرابة هكذا؟!»

«أنا لا أتصرف بغرابة، أنت الذي تفعل يا كريس! تتصرف بمنتهى الغرابة. اسمعني ودعني أطرح عليك سؤالا بسيطا. أنا الفتاة التي تقول أنت إنك ستتزوجها. صحيح؟ حسن. اصطُحِبتُ ليلة البارحة في ظروف غريبة، غريبة للغاية. أطلبك قبل ذلك لأخبرك بما يحدث، فتأتي إلى هنا وكل ما تقوله لي هو: لا تقلقي فكل شيء على ما يرام».

«لم يصدر عني إطلاقا شيء من هذا القبيل».

«كريس. لقد طلبت ذلك مني، طلبت من الفتاة التي ستتزوج أن تنتقل مسافة أربعين ميلا إلى أبيتشي...»

«إلى أبيتشي؟ لم تخبريني أنها في أبيتشي. هل قلت ذلك؟»

«ليس ذلك هو المهم لقد طلبت من الفتاة التي تزمع الزواج منها أن تترك جميع الخيارات مفتوحة... هل تذكر ذلك؟ آسفة

لإبلاغك إنني لم أعمل بنصيحتك».

«إنك...»

«لا تقاطعني أرجوك، أقطع مسافة أربعين ميلا لأشارك في تلك الحفلة الغريبة».

«بي بي، لم تقولي لي على الإطلاق إنها في أبيتشي».

«دعني أتم حديثي أرجوك. أُحمل إلى ذلك المكان الغريب وزوجي المستقبلي يأوي إلى فراشه، ينام بعمق، ثم يصحو في السابعة يستمع إلى إذاعة «بي بي سي»، يأخذ حمامه ويتناول إفطاره ثم يجلس بعد ذلك لقراءة الصحف. وحتى ربما يتمشى قليلا في الحديقة. لا تزال الساعة تشير إلى التاسعة، لذلك ربما تذهب إلى غرفة المطالعة وتراجع بعض العمل الذي أحضرته معك للبيت. وأخيرا، عند منتصف النهار تتذكر الفتاة التي طلبت منها أن تترك كافة الخيارات مفتوحة، تلتقط سماعة الهاتف وتقول لها: أوه، أرى أنك قد عدت!»

«إذا كان ذلك ما تتذمرين بشأنه فلم أرغب في مكالمتك مبكرا..»

«إنني لا أتذمر من شيء. فأنت لم تشأ أن تكلمني أبكر من ذلك. تماما. أنت لم تفعل! وهل تدري لماذا؟ لأنك لم تكن ترغب في معرفة ما إذا كنت قد نمت في أبيتشي مع زعيمك».

«ما الذي تتحدثين عنه بحق الجحيم؟»

«لم ترغب في الإمساك بي متلبسة. لماذا؟... لأنك رجل حصيف يا كريس. أنت رجل تراعي مشاعر الآخرين جيدا. لن تؤذي حتى ذبابة، حسن، لدي أخبار سيئة لك، بالنسبة

الى هذه الفتاة، فأنت مراع لها أكثر من اللازم. أريد رجلا يهتم لأمري، لا رجلا..»

«لقد فقدت عقلك يا بي بي!»

«إنها تريد رجلا يهتم إلى الدرجة التي يكون فيها فضوليا لمعرفة أين تنام فتاته. ذلك هو نوعية الرجل الذي تريده هذه الفتاة».

«عجبا، عجبا!»

«عجبا، عجبا. بالفعل. عجبا، عجبا. وقد آن الأوان لذلك».

«أصغ إلي، يا بي بي»: (سار نحوها الخطوات التي تفصلهما وكان على وشك أن يضع يده على كتفها).

«أبعد يدك عني». صاحت في وجهه.

«لا تنبحي في وجهي يا بي بي».

«أنا لا أنبح».

«بل تنبحين. لست أدري ما الذي حل بك. تصيحين بي وكأنك نبية «ساروفيم» و«شيروبيم»(*) أو شيء من ذلك. ما الأمر؟ لست أفهم شيئا».

وقف هناك حيث رفضت اليد التي حاول بها تطويق كتفها ونظر إليها من فوق. أما هي فقد ضمت يديها فوق صدرها ومالت برأسها إلى الأمام وكأنها في صلاة صامتة. لم يتحرك أي منهما أو يتحدث لفترة طويلة. ثم لاحظ كريس جيشانا طفيفا لصدرها وكتفيها فجلس بجانبها، ووضع ذراعه الأيسر حول كتفها، وبلطف رفع ذقنها بيده اليمنى فعرف أنها تبكي. لم تمانع عندما جذبها إليها، وبكل توقير تذوق الملح في دموعها.

(*) ساروفيم وشيروبيم: هما طائفتان من الملائكة حسب المعتقد اليهودي.

بينما تنامت مجهوداتهما للدخول في بعضهما البعض ليذوبا، ويفقدا انفصالهما عن بعضهما فوق تلك الأريكة، همست وأنفاسها تخرج سريعة لجوجة «دعنا نذهب في الداخل فالمكان ضيق هنا» اندفعا في عجالة إلى غرفة النوم، ورميا بعيدا بثيابهما وكأنما قد أمسكت بها النيران، وقعا سوية في فضاء سريرها الواسع الفسيح وطفقا يتقلبان ويتقلبان إلى الحد الذي لم تعد قادرة معه على الاستمرار، وطلبت منه أن يدخل وعندما فعل ندت عنها صرخة مكتومة. لم تكن تلك مجرد صرخة بل هي بمثابة أمر أو كلمة سر للولوج إلى معبدها. منذ تلك اللحظة استلمت قيادته وأخذت بيده صامتة خلال بساتين من الجيشان مرقشة بأشعة الشمس الصفراء اللطيفة، يدوسان على الأوراق الجافة حتى وصلا إلى جداول من المياه الزرقاء الصافية. أكثر من مرة ينزلق من فوق تلك الروابي شديدة الانحدار، فترفعه إليها بقوة وثقة لم يعهدها فيها من قبل. من الواضح أن هذه هي أيكتها وتلك هي طقوسها التي تملك التحكم فيها بالكامل. أهي الكاهنة أم الربة نفسها؟ لا يهم. ولكن هل سيكون هو ذا فائدة؟ هل سينجو؟ تلك المتعة اللانهائية المدشنة بالعذاب في منطقة ما بين الضحك والدموع. نعم، يجب أن، أوه نعم يجب أن، نعم نعم نعم، يجب يجب يجب، احضنيني الآن أيتها الكاهنة المقدسة، إني أنزلق، أنزلق، أنزلق، والآن فهو لا ينزلق فقط، ولكنه يسقط ويتقوض داخل نفسه.

في اللحظة التي كان فيها على وشك طلب الرحمة مرة أخرى صرخت آمره «الآن!» فانفجر على شكل نجوم، وسبح بين سحب بيضاء كالزغب، وبدأ في مرحلة سقوط طويلة انعدم فيها وزنه، ثم غرق في نوم أزرق عميق.

عندما صحا من نومه وجد نفسه في أحضانها كالطفل، ترقبه عيناها بقلق، فسألها بوهن إذا كانت قد نامت.

«الكاهنات لا ينمن».

قبل شفتاها و«صدرها» وأغلق عيناه مرة أخرى.

«أعتقد أنك سميتني كاهنة، كلا. بل نبية. أنا لا أعترض إلا على الجزء الخاص بشيروبيم وسيرافيم. في الحقيقة أنا أحس أحيانا بالشبه «بشيليو» كاهنة ونبية الجبال والكهوف كما في الرواية».

«أتخيل أن ذلك الشعور يروح ويغدو».

«أشعر بذلك الآن. وبإمكاني رؤية المتاعب تستفحل في طريقنا. ستطال «آيكم» أولا، أنا لا أمزح يا كريس. سيكون هو النذير الذي سيسلك تلك الطريق. ولكنك ستكون من يلحقه فنحن جميعا في وسط تلك الدوامة، «آيكم»، أنت، وأنا، وحتى هو. والمسألة لم تعد مجرد دعابة».

كما كان يقول أبي، لم تعد رقصة يمكن تأديتها وأنت تحمل سعوطك في قبضة يدك. «عليكما أنت و«آيكم» أن تسويا هذه المسألة السخيفة بينكما، التي لم يتمكن أحد حتى الآن من تفسيرها لي».

«لا أستطيع التواصل مع آيكم مجددا، فأنا متعب وخائر القوى».

«كلا يا كريس، فلديك رصيد من قوة التحمل أكثر مما تعتقد».

«حسن، يبدو علي ذلك. ولكن كما تعرفين فذلك يتم تحت قيادتك فقط». ابتسم عابثا، وقبلها.

«تعرف أنني لا أتحدث عن ذلك الأمر، أيها الأبله».

تركته في الفراش وأخذت حماما سريعا وعندها فقط عادت واستعادت ثوبها من حيث رمت به ولبسته. خلال تلك الفترة كانت عينا كريس مثبتتان على جسدها المتناسق وكانت تعي ذلك. بعد ذلك التقطت ملابسه ورتبتها له على طرف السرير. ثم غادرت الغرفة لتستفسر عن الغداء. أجاثا التي تغلي من الغيظ كانت جالسة على كرسي المطبخ، تضع برأسها على الطاولة متظاهرة بالنوم. «نعم لقد انتهيت من طهو الغداء»، أجابتها بينما عيناها الحادتان المتظاهرتان بالتقوى تقولان شيئا مثل: بينما أنت غارقة في الخطيئة.

أعدت بييترس طبق سلطة خضراء بالإضافة إلى الفاصوليا البنية ولسان الحمل المقلي وطبيخ لحم البقر. لم تكلف أجاثا نفسها بإعداد طبق الحلو مؤملة، بدون شك، أن تسمع سيدتها تشكو. وببساطة تجاهلتها بييترس وأخرجت بعض الكعك وأشياء أخرى من المجمدة وأعدت صحنين من بقايا ثمار الكرز. ثم رجعت إلى الغرفة لتوقظ كريس.

يبدو من النظرة التي وجهتها أجاثا إليه عندما جلس إلى المائدة، أنها لا تشمله ضمن قائمتها الأخلاقية. فتيات في حرب! فكرت بييترس مبتسمة لنفسها، ويبدو أن المرأة الأخرى قد لاحظتها وأجابتها بتكشيرة خاطفة. حتي كريس لاحظ التقلص المفاجئ لقسمات وجهها.

«ما الذي يغضب خادمتك؟» سألها بمجرد عودتها إلى المطبخ.
«لا شيء... فكلها ابتسامات تجاهك».
«التعود الذي ينجب الازدراء إذن؟»
«لا، أكثر من ذلك. إنها رسولة يهوذا».
«وأنت رسولة بيت بعل؟».
«تماما. بل أسوأ من ذلك».

على الغداء أخبرته بما دار في أبيتشي ليلة البارحة، أو بأغلب ما أمكنها قوله. تلقى كريس حديثها باحتراس، وهو يعرف أن نبرتها تخبئ أمرا مروعا. وأخيرا عندما قالت كل شيء كان الغضب قد تمكن منه إلى درجة أنه قفز من كرسيه لا شعوريا.

«أرجو أن تجلس وتتناول طعامك». عاد للجلوس، ولكن لم يتناول لقمة واحدة.

«لا يمكنني تصديق ذلك». ظل يردد. وفشلت بالكامل محاولات بييترس لإقناعه بالاستمرار في الأكل. كان قد دفع طبقه بعيدا برفق.

«هذا الطبق لم تعده أجاثا، يا كريس، لقد أعددته خصيصا لك».

لان بعض الشيء، وألقى في فيه بلقمتين أو ثلاثا من السلطة ثم وضع الملعقة جانبا مرة أخرى. أخيرا تخلّت عن محاولاتها، قائلة انها كان يجب أن تكون أكثر دراية وتقفل فمها حتى ينتهي من تناول طعامه. نادت على أجاثا وطلبت منها إعادة وضع طبقي الحلو في البراد وأن تحضر لهما قهوة. ودون أن تجيبها شرعت أجاثا في تنظيف الطاولة.

«أجاثا!»

«سيدتي!»

«أرجو أن تتركي الطاولة لشأنها وتحضري لنا القهوة، وبعد ذلك يمكنك تنظيف الطاولة».

«نعم، يا سيدتي».

«دعنا نجلس في مكان أكثر راحة» قالت لكريس «سنتناول القهوة والبراندي. أنا مصرة علي ذلك. أرغب في إقامة احتفال بسيط ولا تسألني لماذا. مجرد احتفال. «كابيسا!»».

ببطء، وببطء شديد بفعل الإنعاش الذي قامت به بييترس، بدأت معنوياته في العودة إليه من جديد، طرقت قدر الإمكان أولا بعض الأمور البسيطة المسلية ولم تركز على الصدمات. ولكن مهارتها كمنت في جعله يشارك بنشاط في استعادة الأحداث.

«ومن هذا المدعو الحاج، أظن أنه رئيس غرفة التجارة الكنجانية الأميركية؟» سألته.

«أوه ذلك الشخص. إنه الحاج عبدالمحمود. ألم تعرفيه من قبل؟ لقد ظننت أنك تعرفينه».

«ها أنت ترين مشكلة أن يكون الشخص منعزلا عن العالم. لو أنك حضرت حفلة واحدة فقط في الشهر لعرفت ما يدور حولك... على رغم أن الحاج محمود يعتبر ناسكا في حد ذاته. فهو نادرا ما يظهر في أي مكان، وعندما يفعل، فبالكاد يتفوه بكلمة. وتقول الإشاعة أنه قد قام خلال السنة الماضية بالتفوق على كل مليونيرات كنجان. يقولون إن لديه ثماني سفن محيطية،

واثنتان أو ثلاث طائرات خاصة ورصيف بحري خاص به. لا أحد من مسؤولي الجمارك يمكنه الاقتراب من رصيفه الخاص، وكما يقول المتاجرون بالإشاعات فهو أمير المهربين. ماذا أيضا؟ خمسون شركة مختلفة بالإضافة إلى ملكية مصرف. كما أنه يحتكر واردات الحكومة من الأسمدة. وهذا كل شيء. هادئ للغاية، ولا يحاول حتى الظهور ولكنه كما يقال، قاس بصورة مطلقة. كل ما سبق قد يكون أمورا معتادة أو غير معتادة للبليونيرات، ولكن ما يقلقني، وأعتقد أنني لا أكاد أصدقه هو أنه - خفّض من صوته - قد يكون يعمل كواجهة لـ... مُضيفك».

«كلا!»

«لا تنقلي ذلك عني. إشاعات إشاعات إشاعات، وعلى رغم أنني يجب أن أعرف فبعد كل شيء أنا هو وزير الإعلام، أليس كذلك؟ ولكن أخشى أن ما لدي من معلومات هو قليل جدا... بالمناسبة يا بي بي كيف يمكن أن تكوني شريرة هكذا؟ تخيلي وأنت تواجهينني بقائمة نشاطاتي اليومية بما فيها الاستماع إلى «بي بي سي» عند السابعة! مطلق الشر... ولكن يوجد الأسوأ. مثلا كان باستطاعتك أن تضيفي أنه وبينما تعمل الوزارة التي أشرف عليها على تقديم كل ذلك الهراء للجمهور في محطة الإذاعة الرسمية، أتسلل بعيدا كل صباح، عندما لا يراني أحد، لأستمع إلى صوت الأعداء».

«كان ذلك أداء ممتازا من ناحيتي. أليس كذلك؟»

«في غاية البراعة، ومدمرا أيضا. لست أدري لماذا لم تكتبي مسرحية بعد. كنت ستقضين على «آيكم» بالكامل».

«ذلك يتطلب عملا كثيرا. ولكن شكرا على أي حال».

وقبل أن يغادر شقتها أخيرا بعد السادسة بقليل، كانت قد توسلت إليه بقوة ليوافق على تسوية الأمور مع «آيكم».

«لقد أخافني ما سمعت ورأيت ليلة البارحة فقد حوكم وأدين «آيكم» غيابيا هناك. لا بد أن تنقذه يا كريس. أعرف كم هو صعب وما إلى ذلك. صدقني إنني أعرف ذلك. ولكنك يجب وبكل بساطة أن تتغاضى عن كل ذلك، فليس «لأيكم» صديق آخر، وليس عنده حس بالخطر. أو أن لديه ذلك الحس ولكنه لا يعرف كيف يستجيب له. أعرف إنك حاولت بجميع الطرق، ولكنك ملزم بالمحاولة من جديد، لهذا الأمر يكون الأصدقاء ولم يتبق إلا القليل من الوقت يا كريس».

«القليل؟ قد لا يكون هناك وقت على الإطلاق... لا بد من القيام بشيء، أوافق على ذلك، ولكن ماذا؟ فكما تعرفين لا يوجد شيء أساسي نختصم أنا وآيكم حوله. ما يفرق بيننا هو الشكل وليس الجوهر، ولعمري فتلك مسألة لا يمكن الاتفاق حولها. غريب أليس كذلك؟»

«غريب جدا».

«مع ذلك... وبعد التفكير في الأمر... المسألة ليست بالغة الغرابة. كما ترين، فلو كان لي معك خلاف حول برتقالة، فسيكون بإمكاننا حسم الخلاف باقتسامها، أو أن يتركها أحدنا للآخر، أو بإعطائها لطرف ثالث أو حتى رميها بعيدا. ولكن بافتراض أن خلافنا يدور حول حبي للبرتقال، وكرهك له، فكيف تحسمين هذا الخلاف؟ ستكرهين البرتقال على الدوام،

بينما أظل أحبه، وليس من خيار تجاه ذلك».

«ورغم ذلك، ففي إمكاننا الاقرار بأنه من السخيف وغير المجدي أن نتنازع حول ما نحب وما لانحب. أليس كذلك؟»

«نعم»، أجابها بلهفة، «طالما ابتعدنا عن التطرف. إذا كان أي منا متطرفا فليس ثمة أمل في تسوية الأمر. سنختلف طوال حياتنا، وإن مجرد توقع هذا يستفزني عاطفيا بل ويشلني أيضا... لِمَ أظل في هذه الوزارة؟ يطلق علينا آيكم عرض السيرك، وهو محق بدرجة كبيرة. فنحن لسنا وزارة... لأن الوزارة الحقيقية هي بعض هؤلاء المهرجين الذين رأيتهم ليلة البارحة. لماذا إذا أظل في هذا المكان؟ الشرف وأمور أخرى تدعوني لأن أقدم استقالتي. ولكن هل في إمكاني أن أفعل؟»

«نعم في إمكانك»

«لقد أخبرتك لتوي أنه القدرة على القيام بذلك».

«هراء!»

«حتى لوبذلت مجهودا جبارا وقدمت استقالتي اليوم، ماذا سأفعل بعد ذلك؟ أذهب إلى المنفى وأتجرع كميات كبيرة من الخمر في العواصم الأوروبية، وأضاجع الكثير من الفتيات البيض، بعد أن أكون قد ألقيت محاضرات ثورية على مستمعين معجبين بي، على بعد سبعة عوالم من مكمن مشكلتي. لقد نظرت في هذا الاحتمال يا بي بي ودرسته، ولكن صدقيني فهو أقل جاذبية من هذه التمثيلية التحزيرية التي تجري هنا».

«إذن؟»

«إذن سألازم مكاني، وهل تعرفين أمرا آخر؛ لن يكون من السهل ترك الوزارة حتى لو أردت ذلك، هل تدرين ما صرح به من خلال ذلك الحوار المرعب حول مسألة تعيينه رئيسا مدى الحياة؟ ألم أخبرك؟ للحظة تظاهر بهدوئه وهددني قائلا: إذا اعتقد أحد أن بإمكانه ترك الوزارة بسبب هذا الموضوع فسيرتكب خطأ محزنا».

«كل من سيخرج من هذا الباب لن يذهب إلى بيته بل إلى الاعتقال مباشرة. نعم أذكر ذلك».

«ولكن ماذا بعد؟»

«لا أقول إن مثل هذا التهديد السخيف هو ما يجبرني على البقاء في منصبي. إني أذكره فقط لتوضيح كيف يمكن أن تصبح الأمور فجأة دقيقة جدا وتتطلب حذرا شديدا. ولهذا السبب قلت لآيكم مائة مليون مرة: اهدأ لفترة وجيزة وربما يعصف هذا الإعصار الآخذ في التجمع فيمر فوق الرؤوس حاملا الأسقف وربما ... ربما فقط ... يتركنا معطوبين ولكن احياء ولكن أوه، كلا! «آيكم» غاضب جدا لاقتراحي مثل هذا التصرف الحقير والجبان بالنسبة إليه. وقد كنت أنت بنفسك شاهدة على ذلك مرات ومرات، وها أنت تطلبين مني الآن أن أجثو على ركبتي مرة أخرى لأطلب من فنان يجعل من دون كيشوت، وأمثاله من الشخصيات الخيالية، مثلا أعلى له».

«هذا ليس بعدل يا كريس، غير عادل بالمرة فآيكم واقع أرضا مثل أي واحد منا وربما أكثر قليلا، فما عليك إلا مقارنة تلك السلسلة من صديقاته اللواتي يتسمن بالفظاظة بصديقتك...».

بعد أن نطقت بييرتس بتلك الكلمات ندمت على قولها، كان يجب أن تقاوم التصريح بمثل هذه الملاحظة، التي قصدت منها صرف أنظاره عن فكرته الرئيسية. غادرتها القوة فجأة تاركة مقصدها الحماسي منهكا... تحدثا لفترة بسيطة بدون منهج أو هدف ثم افترقا دون سبرغور المشكلة، كل ما فعله كريس عند مغادرته أنه أعاد طرح موقفه:

«تطلبين من رجل يئس من المعارك منذ مدة طويلة أن يوقف محاربا متطرفا في أوج اندفاعه؟... ولكن ياعزيزتي فكل ما سيحصد مقابل متاعبه هو الإطاحة به على وجهه».

التاسع

آراء في النضال

لم تكن رحلة آيكم بالسيارة في ذلك العصر الحار تنفيذا لتعليمات كريس بتكليف مراسل صحافي للذهاب إلى القصر الرئاسي. أرسل الصحافي بالفعل ولا بد من أنه قد نفذ مهمته. لكن آيكم ذهب لأسباب خاصة به للبحث عن المزيد من المعرفة.

وصل إلى القصر في الوقت نفسه الذي بدأ ينفض فيه الاحتفال، لذا فليس لديه الآن سوى تبادل بعض الكلمات مع قائد الوفد الأبازوني ذي اللحية البيضاء وترتيب لقاء لاحق معه ومع مجموعته في الفندق الذي ينزلون به.

فندق هارموني هو مؤسسة غير أخلاقية في الحي الشمالي الفقير من العاصمة، وقد قدر «آيكم» ذلك من السهولة التي تمكن بها من العثور على المكان بعد أن سأل ليعرف أنه منتجع مشهور في المنطقة. إنه ذلك النوع من الأمكنة التي تؤوي عددا من المؤسسات، وفيه عدة غرف مشغولة من قبل مجموعة من الشباب ذوي الأوقات غير المنتظمة والوظائف غير المعروفة، وينامون أغلب ساعات النهار. وفيه، أيضا عدد كبير من الباعة الجوالين من مناطق شمالية يأتون إلى باسا دوريا، للتزود ببضائع التجزئة. فهو فندق مزدحم وغير مكلف إلى حد ما وبطريقة غريبة.

اكتشف «آيكم» أثناء وجوده في القصر الرئاسي، أن الوفد لا يتكون من خمسمائة كما سبق أن أعلم، بل مجرد ستة أعضاء، وأن الكثير من الذين رافقوا الوفد إلى القصر الرئاسي هم ممن

يتحدرون من «أبازون» وموجودون في باسا: ميكانيكيون، تجار تجزئة، وخياطون وباعة متجولون، سائقو الحافلات والأجرة الذين قدموا مركباتهم لهذا الغرض، وآخرون يقومون بكافة الأعمال المختلفة في المدينة أو لا يقومون بعمل على الإطلاق. نسيج متنافر بحق! لا عجب أن فخامته قد استقبل أنباء وصولهم إلى القصر برهبة شديدة. وقد اعترف آيكم لنفسه عابثا إنه كان سيفعل الشيء لو كان في موقعه.

كانوا يجلسون حول خمس أو ست طاولات قد ضم بعضها إلى بعض في فناء الفندق، لم يكونوا خمسمائة الآن، ربما عشرون فقط يشربون ويناقشون بإثارة نتائج زيارتهم للقصر.

بمجرد أن شاهدوا «آيكم» وهو يدخل عبر البوابة الحديدية الرئيسية عند الشارع إلى الفناء المرصوف بغير عناية، وقف الجميع بمن فيهم الزوار الستة الكبار واستقبلوه بما يقرب من الترحيب الاحتفائي. صافح الجميع، وأخذ يبحث عن كرسي شاغر عندما أشار شخص يشبه مدير المراسم، إلى المكان الشرقي الخالي بجانب الشيخ الملتحي. ثم صاح بأهمية «خدمات!» وعندما ظهر نادل مترهل يرتدي سترة ضيقة قذرة زرقاء، أمره بإحضار ست زجاجات بيرة وثلاث دجاجات مشوية إضافية وهو يردد «أسرع، أسرع!» ثم تفحّص الموجودين، والتقط زجاجة بيرة فارغة وخبط قاعدتها على الطاولة طالبا التزام الصمت:

«يقول قومنا: عندما يحضر رجل مهم إلى الاجتماع، يجب التوقف عن الحديث حتى يتخذ له مجلسا. لقد حضر منذ قليل شخص مهم غني عن التعريف. ومع ذلك فلا بد من القيام بالأمور حسب ما يطلق عليه الأوروبيون البروتوكول. أطلب من ابننا المتميز ورئيس تحرير الجازيت الوطنية الوقوف».

نهض آيكم ليُقابل بترحيب حماسي مرة أخرى.

«عندما تسمعون «آيكم» أ«وسودي» في كل مكان ستظنون أن رأسه يطاول السقف، لكن انظروا إليه. كم هو بسيط.. حتى من هو غبي مثلي أكثر منه طولا. يقول قومنا: «إن الحيوان الذي يشتهر اسمه لا يملأ بالضرورة سلة الصياد دائما».

عند هذا الحد تدخل «آيكم» قائلا إنه يتوقع الآن تعرضه للضرب من قبل الكثيرين بعد أن عُرف حجمه الحقيقي، وأطلقت هذه الملاحظة المزيد من الضحك.

لكن رغم تناول الأكل والخمر وتبادل الضحك وجو المرح فقد سجل المتحدث خيبة أمله من أن أشهر أبناء الأبازون لم يجد الإمكان للاشتراك في اجتماعاتهم الشهرية ومناسباتهم الاجتماعية الأخرى ليرشد بمعرفته الواسعة جهالتهم في تلمس الطريق. استمر في هذا الحديث عن عثراته لمدة طويلة من دون لين إلى الحد الذي دفع في النهاية بالشيخ الملتحي لأن يوقفه عندما نهض قائما. كان طويل القامة هزيلها بانحناء بسيط في الكتفين.

النغمة الحادة في صوت الرجل الآخر كانت غائبة بالمرة هنا، ولكن القوة الكامنة في ملكة الكلام لديه هي التي أسرت كل الموجودين بمجرد تفوهه بكلماته الأولى. بدأ بتوجيه الشكر إلى الأبازونيين في باسا الذين استقبلوه مع القادة الخمسة الآخرين من المقاطعة. شكر الكثير من الشباب الذين لا يوجد منهم الآن سوى القليل لقدومهم بالمئات ومرافقة الوفد إلى القصر الرئاسي ليبينوا لباسا أن لأبازون جمهورا يُحسب له حساب، ثم عرج بحدة على شكوى المتحدث الأخير.

«لقد استمعت لما قلت عن هذا الرجل الفتيّ، «أوسودي»، الذي طبقت شهرة أفعاله الآفاق وهي تملأ قلوبنا بالفخر. إن المشاركة في اللقاءات والأفراح وحفلات تسمية الأبناء لقومك شيء جيد، لكن لا تنس أن حكماءنا قالوا إن الرجل الذي يستجيب لكل صيحة من منادي القرية لن يتمكن من غرس الذرة في حقله. وعليه فنصيحتي لكم هي: استمروا في الذهاب إلى اجتماعاتكم وأفراحكم وحفلات منح الأسماء لأن القيام بذلك شيء جيد. ولكن اتركوا هذا الرجل وشأنه ليقوم بما يقوم به لأبازون ولكانجان بأسرها؟ فالديك الذي يصيح في الصباح يتبع بيتا معينا ولكن صوته ملك للجيرة بأكملها. ويجب أن تفخروا بأن هذا الديك الصغير الذي يوقظ القرية بأكملها يتبع منطقتكم».

صوته مليء بالسحر والقوة المخضعة وحتى مدير المراسم الذي تفوه بتلك الشكاوى قد بدأ الآن يهز رأسه موافقا مثل كل الآخرين.

«إذا رغب أخاك في الذهاب بعيدا عبرالنهر ليجد ما يقيم به أوده، فلا تطلب منه الجلوس مع العاطلين الذين يحكون مؤخراتهم ويشمون أصابعهم. لم أقابل هذا الرجل قبل عشية اليوم عندما جاء يبحث عنا في مقر الزعيم الكبير. لم يسبق لي أن قابلته. لم يسبق أن قرأت ما يقولون إنه يكتبه لأنني لا أستطيع تهجي الأبجدية. ولكنني سمعت عن المعارك التي خاضها نيابة عن الفقراء في هذه البلاد. ولن يسعدني أن أسمع أنه تخلي عن معاركه ليشارك في احتفال منح اسم لابن «اوكيكي» وابنة «مجبافو».

«الأمر أيضا يبدو كالآتي، لأن للحقيقة أوجُهاً عديدة احياناً... قبل وقت طويل من شروق الشمس في موسم الزرع أو الحصاد، في

ذلك الوقت عندما يقيدنا النعاس إلى خلاوة هي أكثر من العسل نفسه، عندها وفي جو السكون والبرودة الذي يطغى على المكان، يُفزع طائر الغابة الفلاح بصياحه: «او-او-اي! او-او-اي!». وأسألكم هنا: هل يقفز الفلاح مباشرة ويجهز نفسه للذهاب للحقول أم أنه يصيح في طائر الغابة، اخرس من أخبرك بالوقت؟ فلم يسبق وأن عزقت تلة نبات «المنيهوت» في حياتك، أو زرعت حبة دخن. كلا! لو كان فلاحا يرغب في النجاح فلن يتحدى طائر الغابة، لن يناقش صيحته لبدء المعركة، بل سينهض ويطيع».

«هل سبق وأن فكرتم في ذلك؟ أقول لكم إن تلك هي الطريقة التي اختار بها الإله العظيم أن يوزع الأعمال في العالم. كل فرد وما عليه القيام به! طائر الغابة وعمله، والفلاح وعمله».

«يرى البعض أن مالك هذا الكون قد وزع الهبات وفقا لحصص معينة ليخبر أصحابها أن وقت الصحو قد حان. يمنح للبعض التوق للنهوض عندما يسمعون النداء، ينهضون والدم يجري في عروقهم ليرتدوا لباس الحرب ويتجهوا إلى حدود مدينتهم ليشتبكوا بجسارة في معركة مع العدو المحتل. وهناك الآخرون الذين تتحصر مهمتهم في الانتظار، وعند انتهاء المعركة يأخذون على عاتقهم سرد ما جرى خلالها».

«إذن فقرع طبول الحرب مهم، وخوض أتونها مهم، ورواية أحداثها مهم أيضا - كل مهم من ناحيته. وأقول لكم إنه لا يمكن الاستغناء عن أي منها ولو سئلت أيها يحق له أن يرتدي ريشة الصقر، سأقول بكل جرأة إنها رواية القصة. هل تسمعونني؟ والآن لو وجهتم لي السؤال نفسه في أيام شبابي لكنت أجبت بدون تردد إنها المعركة، لكن التقدم في السن يعطي الرجل بعض الأشياء باليد اليمنى، حتى

وهو يسحب منه أشياء أخرى باليسرى. قد لا يعود باستطاعة بول المسن أن يضرب جذع الشجرة على قارعة الطريق بقوة كما كان يفعل في السابق، بل يسقط بجانبه مثل المرأة، ولكن بالمقابل فهو يمنح بصيرته أجنحة للتحليق وراء المناظر المألوفة لمنطقة سكناه».

«لماذا إذن أقول إن الحكاية تأخذ أسبقية بين قريناتها؟ أعتقد أنه للسبب نفسه الذي يخلع به قومنا اسم «أنكوليكا »على بناتهم - التذكر أعظم شيء - لماذا؟ لأن الحكاية وحدها هي التي تستطيع البقاء بعد الحرب وبعد المحارب. الحكاية هي التي تعمّر بعد تلاشي صوت طبول الحرب وبطولات المقاتلين الشجعان. الحكاية وليس غيرها هي التي ستنقذ سلالاتنا من السير بارتباك نحو أشواك سور شجيرات الصبار مثل شحاذ أعمى. الحكاية هي حارسنا، وبدونها، نحن مثل العميان. هل يملك الأعمى مرافقهُ؟ كلا، وبالمثل فنحن لا نملك الحكاية، بل الحكاية هي التي تملكنا وتقودنا كما تشاء. هذا هو الشيء الذي يجعلنا مختلفين عن البقر، إنها مثل العلامة على الوجه، تسهل تمييز الناس عن جيرانهم».

أخذ صوت وقع أقدام النّدُل على أرضية الفناء الإسمنتية يبرز خلال الصمت العميق الذي ساد المكان.

«لذلك فالأحمق المغرور، الذي يجلس منفرج الساقين فوق الحكاية وكأنما هي طبق من «الفوفو» وضعته زوجته أمامه، لا يفهم من هذا العالم إلا القليل. ستطويه الحكاية على هيئة كرة، تغطسه في الحساء ثم تبلعه أولا. أقول لكم إنه مثل الجرو الذي يدور بجسمه حولالنار المتأججة قاصدا إطفاءها. فهل يستطيع؟ كلا، فالحكاية تبقى على الدوام... مثل النار، عندما لا تكون مشتعلة

فهي كامنة تحت رمادها أو تستريح وتنام في جوف حجر القدح».

«في صبانا عندما لم تعركنا التجارب بعد، نتخيل جميعنا أن حكاية هذه البلاد بسيطة، وأن باستطاعة أي منا أن ينهض ويرويها، لكن الأمر ليس كذلك. صحيح أن داخل كل منا القليل من المقدرة على الثرثرة ببعض الحكايات. لكن ما نرويه يشبه جزءا من جسم أفعى البوا الضخمة التي يظنها حطابا أحمق جذع شجرة فيجلس عليها ليأخذ سعوطه... نعم، فنحن نرتمي في حكاياتنا البسيطة بعيون هائجة ولسان قوي. ثم ذات يوم يأتي «أجوو»، ويطيح بها من أفواهنا ومن فكوكنا محرّفة لما أبديناه من تهور، وبعد ذلك يسلم القصة لمن يختاره من الرجال... لا يدعو أجوو إلى أي اجتماع لمعرفة عرافية ومتنبئيه وفنانيه، أجوو هو رب المعالجين، وشقيق الجنون! لكنه على رغم أنه والجنون قد ولدا من الرحم نفسها، إلا أنهما لم يخلقا من قبل نفس «التشي» الإله الخاص. أجوو هو اليد اليمنى التي يقدمها الإنسان لرفاقه، أما الجنون فهو اليد المحرمة. فالجنون ينطق ويركب صاحبه بخشونة إلى البطحاء الموحشة أما أجوو فانه يتملك صاحبه بالقدر نفسه، ولكنه يطوقه ليخدم المكان. يختار أجوو حواريّه ويحيط عينه بدائرة من الطباشير الأبيض وينقع لسانه، شاء أو أبى، بخمر النبوءة، ومباشرة يتكلم الرجل ويلصق الرأس والذيل إلى جذع الحكاية المبتور. قد يبهرنا هذا الرجل العجيب لأنه قد يكون شخصا لا شأن له، ليس بالمحارب الجسور الذي نعرف، ولا حتى بالذي يدق طبول الحرب. ولكن بمقدرته الجديدة على النطق والرواية سنتمكن من إعادة تجسيد نضالنا. إنه الكذاب الذي بإمكانه الجلوس تحت سقف داره المصنوع من القش. ويرى القمر معلقا في

السماء في الخارج. ودون أن يبرح مكانه يمكنه أن يخبرك بأسعار البضائع في سوق بعيدة. وبعينه المحاطة بالطباشير يمكنه رؤية كل ضربة في المعركة. التي لم يشارك فيها مطلقا، يتملكه عالم السرد أحيانا إلي الحد الذي يقوم فيه - خصوصا عندما ينظر حوله ولا يرى أيا من يماثله في العمر رؤية لتكذيب روايته - بالإشارة إلي العلامات التي تركها مرض الجدري الذي أصيب به في صباه، وبعض التشوهات الأخرى، على أنها ندوب من أثر الإصابة بطلقات الرصاص... نعم إنها ندوب حدثت في ذلك اليوم عندما قام رجالنا بدك رجالهم كما تدك ثمار النخيل في هاون «الأبروكو!».

فجأة انطلقت ضحكات عالية في ذلك الجو المشحون، وندت عن الشيخ نفسه ابتسامة لا تخلو من الانزعاج الخفيف.

«لكن الكذبات التي تصدر عن أولئك الذين يتملكهم أجوو لا تلحق الأذى بأحد. إنها تطفو فوق الحكاية كما تطفو الرغوة البيضاء في قدح مملوء بخمر البلح الطازج. أما العصير الحقيقي لتلك الشجرة فيتكور في الداخل منتظرا أن تسنح له الفرصة ليضرب...».

«لا أدري لماذا يطقطق لساني هذه الليلة مثل بذور «الأوكوا» وهي تحمّص في قدر من صلصال فوق النار. لماذا أشعر كما رجل قد أعين لتوه على إنزال حمولة ثقيلة من فوق رأسه، ليفرد رقبته ثانية ويهزها ليتخلص من الألم. نعم يا أبنائي، أشعر بخفة في الرأس مثل من أنجز لتوه كافة مهامه ويشعر بالسعادة وبأنه حر في الانصراف. ولكن لا أريدكم أن تغادروا ولديكم شعور بأن أيا منكم يُدفع بعيدا عن أداء عمله المناسب، العمل الذي رتبه له خالقه قبل أن يطلقه في هذا العالم...».

توقف عن الحديث، كان الصمت مطبقا إلى درجة أن بالإمكان سماع صرير أسنانه. واكتشف «آيكم» أن قاطنين آخرين لفندق هارموني يشربون البيرة على طاولات منفردة في أماكن متفرقة من الفناء وقعوا أيضا تحت تأثير سحره، وأن عيونهم مسلطة عليه الآن.

«عندما قيل لنا منذ عامين أننا يجب أن نصوّت للزعيم ليحكم مدى الحياة، وجاء إلينا أنواع عدة من الناس لم نرهم من قبل أبدا يطلبون منا التصويت بنعم، قلت لقومي: لدينا أوسودي في باسا. إذا أتى وأمرنا بالتصويت بنعم، سنفعل لأنه موجود هناك بمثابة أذن وعين لنا. قلت: لقومي إذا كان ما يخبرنا به هؤلاء الغرباء هو الحقيقة فسيأتي أوسودي أو سيكتب في صحيفته، وسيقرأ أبناؤنا ما كتب ويعرفون أنه الحقيقة. لكنه لم يأت لإخبارنا ولم يكتب في صحيفته. عرفنا أن المكر قد دخل إلى الحديث».

«أمر آخر بين لي أن في حديثهم خداعا. أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين يعج بهم المكان ويطلبون منا أن نصوت بنعم، أتوا إلينا ذات يوم وقالوا لنا إن الزعيم نفسه لا يريد أن يحكم إلى الأبد ولكنه أجبر على ذلك. فسألت: ومن هو الذي يجبره؟ فأجابوا، الشعب. وسألت عندها: أيعني ذلك نحن؟ وتحولوا بنظراتهم من جانب لآخر. وفي النهاية أيقنت أن المكر قد دخل في الأمر، وقد شكرتهم ورحلوا. جمعت قومي وقلت لهم: الزعيم لا يرغب في أن يحكم إلي الأبد لأنه رجل عاقل. لأنه حتى بعد أن يتخذ الرجل له زوجا، فهو لا يفعل ذلك إلى الأبد، فيوما ما سيموت أحدهما وعندها سينتهي الزواج. ولهذا كان رأيي مع قومي. لا».

انطلق تصفيق عال. ليس فقط من الطاولات حيث يجلس الأبازونين بل من طاولات أخرى كذلك.

«ولكن، تلك لم تكن النهاية. أتى إلينا المزيد من الذين يحركون أعينهم وقالوا: الزعيم غاضب جدا لأنكم قلتم له لا، وقد أمر بإغلاق جميع الآبار التي يتم حفرها في منطقتكم، لتعرفوا معنى أن تغضبوا الشمس. ستعانون كثيرا لدرجة أنكم خلال تجسدكم القادم لن تحتاجوا إلى أحد ليخبركم لتقولوا نعم، سواء كانت المسألة واضحة لكم أو لا».

«لن يرضى الله بذلك». رددت أصوات كثيرة.

«ولهذا أتينا إلى باسا لنقول نعم خاصة بنا، وعندها ربما سيستأنف العمل في آبارنا ولن نحترق جميعا بسبب غضب الشمس. لم نكن نعرف من قبل ولكننا عرفنا الآن أن قول نعم لا يسبب المشاكل. لم نفهم بالكامل طرق التعامل السائدة اليوم ولكننا نتعلم. اعتاد راقص متنكر في مدينتي أن يقول: صحيح أنني لا أفهم الإنجليزية، ولكنني عندما أسمع أحدهم يقول «كاتشهم»: لا أحتاج إلى من يخبرني لأبتعد بأسرع وقت ممكن».

ندت ضحكات عالية من أنحاء الفناء كافة، ويستمتع بعضهم بالفكاهة بإعادتها لأنفسهم أو للقريبين منهم، ثم يضحكون مجددا .

«وعليه فنحن جاهزون لتعلم بعض الأمور الجديدة ولأن نُصلح من أساليبنا العقيمة البالية. إذا عبرت النهر العظيم للزواج من امرأة فيلزم أن تكون مستعدا لرحلة ليلية بقارب «الكانوو»... لست أدري إذا كان الناس الذين حضرنا لرؤيتهم سيستمعون إلي صراخنا من أجل الماء أو لا. لقد علمنا في وقت مضى أن الزعيم يخطط للقيام

بزيارة لقرانا ليقف على معاناتنا، ثم أخبرونا أنه لن يأتي، لأنه تذكر لتوه أننا قلنا له لا منذ عامين. وعليه قلنا لأنفسنا: إذا لم يأت فدعونا نذهب ونزوره في بيته. فمن الطبيعي أن يزور الشحاذ الملك. عندما يمرض الغني يذهب الفقير لزيارته ويعبر عن أسفه، وعندما يمرض الفقير ينتظر إلى أن يتعافى ثم يذهب إلى الغني ويعلمه أنه كان مريضا. من واجب الفقير أن يقوم بزيارة الغني الذي يمتلك البطاطس والسكين».

«ذلك هو العالم بالفعل». أجاب الحاضرون.

«لا نعرف إذا كان قدومنا لمقر إقامة الزعيم سيكون ذا فائدة أم لا. فلم نقابله وجها لوجه لأنه كان يتحدث إلى زعيم آخر مثله يزوره من بلد ما ... ولكن بإمكاننا العودة إلى قومنا وأن نعلمهم أننا قد ناضلنا من أجلهم بما تبقى لنا من قوة... يروى في قديم الزمان أن نمرا كان يحاول لمدة طويلة الإمساك بالسلحف، وأخيرا تمكن من العثور عليه ذات يوم على طريق منعزلة فقال له: أها، وأخيرا! جهّز نفسك للموت. فقال السحلف: هل لي بمعروف أخير قبل أن تقتلني؟ لم يجد النمر غضاضة في ذلك ووافق على طلبه. فقال السحلف: اعطني بضع دقائق لأعد ذهني لهذا الأمر. مرة أخرى لم ير النمر ضررا في ذلك وأجابه إلى طلبه. لكن بدلا من الثبات في مكانه كما توقع النمر، فقد بدأ السلحف يقوم بحركة غريبة على الطريق، يخربش الأرض بيديه وقدميه ويبعثر التربة بعنف في جميع الاتجاهات. «لماذا تقوم بكل ذلك؟» سأل النمر متعجبا. فأجاب السحلف: «حتى بعد موتي، أرغب أن يقول كل من يمر بهذه البقعة، بالفعل يبدو أن شخصين نِّدين لبعضهما قد خاضا نزالا هنا».

«يا أهلنا. هذا ما نقوم به الآن. نناضل. ربما لغيرما سبب سوى رغبتنا أن يقول عنا من سيأتي بعدنا: حقا، لقد هُزم آباؤنا، ولكنهم حاولوا».

عندما وصل «آيكم» إلى سيارته الواقفة على قارعة الطريق خارج البوابة الحديدية الكبيرة المقوسة التي يبرز عليها اسم فندق هارموني بحروف مشعة من الإضاءة النيون، وجد دراجة نارية ضخمة تتبع الشرطة واقفة وراء سيارته وكأنما لتمنعها من الحركة. وبينما أخذ ينظر حوله مدهوشا، خرج عليه من بين الظلال المظلمة معاون شرطة، وسأله:

«هل هذه سيارتك؟».

«نعم، هل من شيء؟».

«لماذا لم تستعمل أضواء التوقف؟».

أضواء التوقف.؟... جديدة هذه، فلم يُسأل من قبل قط عن أضواء التوقف في باسا. ولكن لا يهم.

«حسناً، لم أر أي ضرورة لاستعمالها مع وجود كل أضواء النيون المتلألئة هذه». وأشار بيده إلى أنابيب النيون المضيئة على المحيط الخارجي لفندق هارموني.

«إذن عندما ترى كهرباء على جدار أحد ما، لا تعتقد أن هناك ضرورة لتشغيل أضواء التوقف؟ أي بند هذا من قانون المرور؟».

«إنها مسألة حصافة».

«حصافة! إذا فليس لدي شيء من الحصافة، هذا هو معنى كلامك. حسنٌ أيها السيد الحصيف أرني أوراقك».

خرج العديد من الناس من أنحاء الفندق لمشاهدة هذا اللغو وانضم إليهم بعض المارة. وسرعان ما انضم كل أبازوني في المنطقة

إلى المشهد، وتقدم مدير المراسم وسأل الشرطي إذا لم يتعرف على رئيس تحرير الجازيت الوطنية.

«لا أعرفه! وهل لأنه محرر الصحيفة يقوم بإهانتي أثناء قيامي بواجبي. قد يكون محررا في مكتبه، ولكن ليس في الطريق».

«لم يهنك. وقد كنت هنا من البداية».

«من الأفضل تغلق فمك كريه الرائحة يا سيادة المحامي. هل تريدني أن أصطحبك إلى مكتب الادعاء لتشرح موقفك؟ أنت لم تسمعه عندما قال إنني لست حصيفا. أليس هذا بإهانة في بلدكم؟ أريد رؤية أوراقك يا «أوجا» فأنتم الذين تضعون القوانين وأنتم من يخرقها».

دون أن ينطق بكلمة أخرى، أخرج «آيكم» أوراقه، وسلمها إلى الشرطي.

«أين بوليصة التأمين؟».

«هي التي تنظر إليها الآن».

فتح دفتر ملاحظاته، وضعه على بدن السيارة وشرع في الكتابة وهو ينظر بين الفينة والأخرى إلى مستندات «آيكم». وقف جمع المتفرجين الآخذ في الازدياد في صمت على شكل دائرة حول السيارة والممثلين الرئيسيين. الشرطي يلعب دوره في كتابة مصير شخص، بما يمثله من أهمية ذاتية ونصف أمية... وأخيرا نزع ورقة من دفتر ملاحظاته وسلمها كأنها حكم بالموت إلى «آيكم».

«عليك بالحضور إلى مكتب المرور صباح الاثنين في الثامنة تماما. وفي حال عدم حضورك أو تأخّرك عن الموعد ستواجه المحكمة. كابيسا».

«هل يمكن أن تعيد لي أوراقي؟».

ضحك الشرطي بتسامح على هذا الرجل الذكي والغبي في آن واحد.

«هذه الورقة التي أعطيتك إياها الآن ستوفر لك تغطية حتى يوم الاثنين. إذا طلب منك أي شرطي أوراقك فأره تلك الورقة، وأحضرها معك إذا أتيت يوم الاثنين».

ثنى مستندات آيكم وأودعها مع دفتر ملاحظاته، جيب صديريته وزرّرها متباهيا كما قاض يستعمل مطرقته.

أراد مدير المراسم الاحتجاج، ولكن أيكم وضع إصبعه على شفتيه وأومأ إليه بالسكوت ثم أشار بالإصبع نفسها إلى جراب الشرطي حيث يحتفظ بسلاحه قائلا:

«لا تستفز رجلا يقوم بواجبه، فلدى رجال الشرطة شيئا يسمونه خروج الإطلاقات بشكل غير مقصود».

«لست أنا من سيقتلك، يا صديقي».

أطلق الشرطي هذا الرد الحاسم في وجه «آيكم» مباشرة، ثم ارتسمت على وجهه علامات الكراهية والاستهزاء وهو يمتطي دراجته النارية ويغادر المكان محدثا ضجيجا. سأل مدير المراسم «آيكم»:

«هل دونت رقمه؟».

«أخشى أنني لم أفكر الأمر، وعلى العموم فذلك لا يهم».

«ها هو الرقم».

وأراه الرقم مكتوبا بقلم الحبر على راحة يده اليسرى، فدونه «آيكم» في ورقة الاستدعاء.

صباح الاثنين في مكتب المرور قرر «آيكم» استعمال نفوذه وهو نادرا ما يفعل. لديه أشياء أهم من الانشغال بالعراك مع شرطي مرور، ولذلك هاتف مدير شرطة المرور ورتب معه موعدا عند

التاسعة والنصف. كان في انتظاره ضابط كبير عند المكتب الخارجي اصطحبه مباشرة إلى مكتب المدير.

«لم تسبق لي مقابلتك شخصيا، يا سيدي». قال المدير وهو ينط من خلف مكتبه الخشبي الكبير. «سعيد بمقابلتك يا سيدي... كنت أتوقع شخصا ضخما هكذا». وأشار بيديه إلى الجانبين ثم إلى أعلى.

«كلا، فأنا من الحجم الصغير، وبإمكان كل من يرغب في ضربي أن يفعل ذلك بسهولة».

«أوه كلا. فالقلم أمضى من السيف، وبإمكانك تدميرأي شخص بجملة واحدة من قلمك الحاد. سيدي... ماذا يمكنني أن أفعل لك فأنا أعرف أنك مشغول، ولا أريد إضاعة وقتك». وبينما هو يروي له القصة، رأى «آيكم» شيئا يشبه نظرة ارتياح ترتسم على وجه الرجل.

«هذا كل ما في الأمر؟ ما كان يجب أن تأتي كل هذه المسافة من أجل ذلك. كان عليك إخباري عن طريق الهاتف وكنت سأرسل لك ذلك الغبي ليسلمك أوراقك شخصيا، ويغسل لك سيارتك قبل أن يعود. ليس لدى هؤلاء الأولاد أي حصافة».

«أعتقد أنه ما كان يؤدي إلا واجبه».

«أي واجب أحمق هذا؟ أن يقوم الشخص بمشاكسة أناس مهمين؟».

ضرب بيده المفتوحة على جرس المكتب بقوة إلى الدرجة التي أفزعت الحاجب المتواجد في المكتب الخارجي وأتت به مهرولا يحاول أن يصلح من غطاء رأسه وممسكا بحزام سرواله وهو يحاول أداء التحية في نفس الوقت.

«أذهب وآتني فورا بكل من كان يعمل في وردية الخارج ليلة السبت».

«أرجو المعذرة. إنها مساء الجمعة».

«عُذرا. الجمعة! ليحضر الجميع بسرعة عدا القائمين بأعمال مهمة... مرة أخرى يا سيد أوسودي لا بد أن أعتذر لك عن هذا التصرف المُخجل».

«لا توجد مشكلة أيها المفتش». وحاول أوسودي يقول كلمة ملطفة لصالح الشرطي ولكنه تذكر تصرفه البغيض جدا وقررالسكوت.

في هذه اللحظة أدخل إلى المكان ثمانية من أفراد الشرطة، يبدو القلق واضحا على وجوههم. ورأى آيكم صاحبه على الفور ولكنه قرر أن مجرد النظر في عينيه سيكون بمثابة إعلان صداقة. أدوا التحية العسكرية ووقفوا متراصين بدون حراك، عدا عيونهم القلقة التي تدور في محاجرها وكأن لها حياة خاصة بها.

نظر المفتش إليهم بالدور دون التفوه بكلمة. وفقا لقانونه فجميعهم مذنبون في هذه المرحلة. «هل تعرفون هذا السيد؟».

هزّ الجميع برؤوسهم نفيا.

«وكيف لكم أن تعرفوا، أيها الأغبياء الجهولين. من منكم اعترضه مساء الجمعة عند... أين حدث ذلك يا سيد أو سودي؟».

«خارج فندق هارموني في شارع نورث ويست».

تلا هذا الإعلان فترة مفاجأة، أو صدمة في منتهى القصر، قطعها، لحسن الحظ، الشرطي المعني الذي قرّ.

«أنا يا سيدي».

«أنت! ولا تعرف من يكون هذا الرجل؟ ولكن أنى لك أن تعرف وأنت لا تقرأ الصحف؟ هل اجتزت الصف السادس؟».

«نعم، يا سيدي».

«أكذوبة تلك! إلا إذا كان ذلك في التعليم المجاني. هذا الرجل هو السيد أوسودي، رئيس تحرير الجازيت الوطنية. كل من في هذا البلد يعرفه سواك. ولهذا تحمل معك حماقتك وتعترض رجلا بهذه الأهمية. إذا قام هذا السيد غدا باستخدام قلمه ليوبخ الشرطة فستأخذون في الشكوى مثل قرد قد ماتت أمه... أذهب فورا لإحضار مستنداته بأقصى سرعة، يا رأس البطاطس».

هرول المسكين إلى خارج الغرفة.

«والآن ليسمعني الجميع جيدا. انظروا إلى هذا الرجل وتمعنوا في وجهه جيدا. إذا قام أي منكم بالاقتراب من سيارته في المستقبل، فسيتعرض لضرب الفلقة شخصيا. مفهوم؟».

«نعم يا سيدي».

«شرطة حمقى. تعتقدون أنني وصلت إلى منصب المفتش بسهولة. قد تعترضون غدا صاحب الفخامة نفسه بحجة عدم معرفتكم إياه. انصرفوا أيها الأنذال»!

بسبب زيارته لمقر شرطة المرور في الجانب البعيد من المدينة أضطر «آيكم» لإجراء اجتماع هيئة التحرير اليومي بعد موعده بساعتين. بينما كان يقدم اعتذاره على التأخير تطرق لما حصل له مع شرطة المرور، وقد أضفت تفاصيل الحادثة بعض المتعة على ذلك اللقاء اليومي المضجر. الوحيد الذي لم يجد الأمر مسليا هو المساعد الأول «لآيكم». يعمل بجد ولكنه شخص كان خنوعا في السابق إلا أنه في الأشهر الأخيرة أدهش «آيكم» عندما أصبح فجأة شخصا متحفظا ويميل إلى الاعتراض علنا على كل ما يقوله.

بعد دخوله مكتبه قدمت له سكرتيرته الفضولية رسالتين. الأولى من جون كنت، ماد ميدكو يطلب فيها من «آيكم» أن يهاتفه، والأخرى من إليوا التي بينت أنها ستتصل ثانية.

التقط «أم أم »الهاتف مع أول رنة للجرس ودخل مباشرة في حديث مهم يخصه. وتساءل إن كان لدى آيكم الوقت ليعرج على بيته في العشية لتناول مشروب ولقاء صديق له، شاعر ومحرر صحيفة من إنجلترا. وقد قبل آيكم الدعوة بكل حماسة.

«بالطبع! فلم أرك منذ مدة طويلة. ماذا كنت تفعل بنفسك خلال المدة الماضية؟ بالنسبة لمقابلة شاعر ومحرر مباشرة، فلست أصدق كم أنا محظوظ. هل يمكنني إحضار صديقتي؟».

«بكل تأكيد. ولكن بالمناسبة أيّهن؟ ليس مهما، أحضر معك من ترغب... حوالي الخامسة ... أراك بخير، مع السلامة».

مذهل، فكر «آيكم». كم هي قصيرة وجادة محادثة «أم أم» عندما يكون في العمل، ليس ثمة من أثر لجنونه بمجرد أن يجلس على كرسي إدارة المستشفى. عدا تلك الانتكاسة التي كادت أن تقضي عليه (قضية الجرافيتي الغريبة) كما سماها آيكم في افتتاحية شهيرة له.

الجزء العاشر

الابن المتهور

أفريقيا أخبريني، يا أفريقيا
أهذه أنت، هذا الظهر المنحني
هذا الظهرُ الذي ينوء بحمل الإذلال
الظهر المرتعش بفعل الندوب الحمراء
يقول نعم للسوط تحت شمس الظهيرة
لكنّ صوتا وقورا يجيبني
أيها الابن المتهورّ، تلك الشجرة يافعة وقوية
تلك الشجرة المنتصبة هناك
في وحدة رائعة وسط الأزهار البيضاء والأزهار الباهتة
هي ذي أفريقيا، أفريقيتك
تكبر ثانية بصبر وعناد
وتكتسب ثمارها شيئا فشيئا
طعم الحرية المر

(ديفد ديوب - «أفريقيا»)

كانا في طريقهما للمغادرة إلى بيت «أم أم» عندما قرع جرس الباب ووجد عنده رجلان غريبان يبتسمان من الأذن إلى الأذن أمام المدخل. وقف «آيكم» في مكانه يسد عليهما الطريق. كان لتلك الخشية ما يبررها ولم يخفف من وطئها إلا ابتسامات الغريبين العريضة.

«هل يمكنني مساعدتكما؟»

«لقد أتينا لتحيتك فقط».

«أنا؟ من أنتما؟ لا يبدو أنني أتذكركما».

«نحن سائقا سيارات أجرة».

«هكذا».

في هذه اللحظة انضمت إليه إليوا عند الباب، ولا يزال الزائران يبتسمان بشجاعة رغم الاستقبال البارد. وما إن ظهرت عليهما إليوا حتي قال أحدهما:

«آه، هذا أنت يا سيدتي».

«آه، ألم تكن أنت الذي نقلتني إلى البيت من هنا في تلك الليلة؟»

«أنا هو يا سيدتي، أرى أنك تتذكرينني. حسن فلم أكن أظن أنك تتذكرينني».

«إذا ما الذي يأتي بك هنا ثانية يا «آبي»؟ هل اكتشفت لتوك أنني لم أنقدك أجرك بالكامل؟ أو ربما قد أعطيتك نقودا مزورة؟».

«كلا يا سيدتي لقد أتينا فقط لتحية هذا الأوجا».

عند هذا الحد لم يعد ممكنا الاستمرار في إغفال المجاملات المعتادة، التي كادت تختفي بسبب انتشار أعمال السطو المسلح في باسا، فاتجه كل من آيكم وإليوا إلى غرفة الاستقبال وتبعهما الزائران.

«آه، لم أظن أنني سأجدك هنا يا سيدتي».

«ولماذا تظن ذلك. هل هذا الرجل زوج لأختك مثلا؟»

«كلا يا سيدتي لم أكن أعني الأمر بهذه الصورة».

«لا تشغل بالك. إنها مجرد دعابة خطرت لي فجأة. كنا نزمع الخروج قبل قدومكما».

في هذه اللحظة تذكر «آيكم» من يكون أحد هذين الزائرين. إنه سائق سيارة الأجرة الذي أقل إليوا إلى بيتها في آخر الليل منذ أسبوع مضى، ولكن لماذا يعود مع رجل آخر، مبتسما بإسراف كأحد الركاب على متن طائرات الخطوط الكنجانية قد حصل لتوه على بطاقة صعود. يظل الأمر يكتنفه الغموض، وقد طرحت إليوا السؤال بطريقة مختلفة.

«عندما أرى ابتسامتكما أتذكر الأشخاص الذين يحاولون بيعك أوراق اليانصيب وأقول لنفسي: من يكون هؤلاء؟ وفجأة يصحو عقلي وأتذكر... ولكن من هو صديقك؟»

«سائق أجرة مثلي، وهو عضو في اللجنة المركزية لنقابة سائقي سيارات الأجرة.

«أهلا وسهلا».

«أشكرك يا سيدتي، أشكرك يا أوجا».

«حتى صديقي هنا قال لي ذلك اليوم أن الأوجا هو رئيس تحرير صحيفة الجازيت. أمر رائع! وأنا لم أعرف ذلك».

«وكيف لك أن تعرف؟ هل تقرأ الصحف؟»

«آه، أقرأ قليلا يا سيدتي. فنحن نحب الأشياء التي يكتب عنها هذا الأوجا».

«أخبرني عن شيء واحد قرأته له».

«كيف يمكنني إحصاء ذلك، فالمواضيع التي يكتبها الأوجا كثيرة جدا، ولكنه يكتب كثيرا من أجلنا نحن البسطاء. قد

لا أتذكر قراءة كتاب، ولكنني أقول إن هذا السيد يخوض المعارك من أجلنا نحن وليس لصالحه. هو ليس بالرجل الضخم، ولكي لا يقربه أحد بإمكانه أن يبقى في بيته، يتناول قطعة كبيرة من اللحم، ويشرب البيرة الباردة في غرفة مكيفة الهواء وينسى كل شيء عنا، ولأن ذلك ليس من طبعه فقد أتينا لتحيته».

تملكت «آيكم» مشاعر الامتنان فأجابهما. «أشكركما كثيرا هل يمكن أن أقدم لكما مشروبا، أو شيئا آخر».

ردا عليه: «لا تشغل بالك يا سيدي». لقد فهما أنه كان على وشك الخروج ولا يرغبان في تعطيله أكثر. عند ذلك بان له السبب الحقيقي لزيارتهما. لم يكن هذا الرجل فقط هو السائق الذي نقل إليوا إلى منزلها في تلك الليلة منذ أسبوع مضى، ولكن ولغرابة الصدف أيضا فهو السائق نفسه الذي دخل معه «آيكم» في نزال محموم على ذلك الحيز الضئيل من الطريق في زحام المرور المزعج. وها هو الآن يأتي إليه مع صديق له ليعتذر منه!

«يا إلهي. لست مدينا لي على الإطلاق بأي اعتذار، أنا من يتوجب عليه الاعتذار لك يا صديقي».

تقدم آيكم نحوه ليصافحه وكدليل على الاحترام استعمل كلتا يديه، وقام النقابي بالفعل نفسه. شعر «آيكم» بالإحراج، ولكنه أحس بنوع من التيه في الوقت نفسه. لم يكن من المريح تذكيره أنه وبالرغم من ثقافته

ومركزه فمن السهل تورطه في صراع سخيف بالكامل مثل الذي حدث مع سائق الأجرة. أما التيه بنفسه فقد يكون مصدره هذا الاتصال الإنساني الذي يخترق حاجز المركز والطبقة مع هذين الاثنين الذين يملكان كل المبررات ليشعرا بالكراهية تجاهه، ومع ذلك فقد جاء محملين بالود، يتصرفان بتلقائية من دون المبررات الأخلاقية الذاتية التي طالما نادي بها الأحسن منهم حالا ولكن نادرا ما يعملون بها.

يبدو أن النقابي هو من كان يقود السيارة التي كانت خلف السيارة الواقعة خلف سيارة آيكم في ذلك الازدحام وهو أيضا من تعرف على «آيكم» عندما انعطف بسيارته نحو القصر الرئاسي ثم أخبر رفيقه بالقصة، ولهذا قرر الاثنان على الفور القيام بزيارة اعتذار. وقد أخذ منهما البحث عن العنوان وقتا طويلا ليكتشفا بعد ذلك أن أحدهما قد كان في المكان نفسه منذ زمن غير بعيد. إن ذلك من عمل الله. هكذا لخص الرجل تلك السلسلة من المصادفات.

النقابي الذي لعب، حتى تلك اللحظة، دور المساندة لصديقه، تكلم الآن:

«أرغب في الإجابة عن السؤال الذي طرحته سيدتي على صديقي: أن تقول إننا لا نقرأ الجازيت. مثلا أنا أرغب في إنجاز مائة عمل ولكنني في النهاية لا أفعل شيئا. ولذلك أذهب وأتحدث عن شيء يعرفه كل سائق سيارة أجرة. منذ زمن بعيد جدا كان المكان حيث توجد

المحطة الرئيسية لسيارات الأجرة في شارع المجزر يعبق بالروائح الكريهة. أو منذ أيام جدودي كان من عادة الأبقار التي تساق إلى ذلك المسلخ أن تقوم بآخر تبرز لها في حياتها في ذلك الشارع. ثم يأخذ هذا السيد قلمه ويكتب، ثم يكتب، داعيا المجلس البلدي لأن يصحو من غفوته ويحضر جرافة لإزالة الفضلات ومسح الطريق بصورة جيدة. والآن إذا أوقفت سيارة الأجرة هناك لا يصاب المرء بالتقلص في معدته أو يغلق أنفه بخرقة. وهو من النظافة إلى درجة أنه لو سقطت منك لقمة وأنت تأكل في الطريق فيمكنك التقاطها ووضعها في فمك مباشرة. والآن هذا هو المحترم الذي فعل كل ذلك لأجلنا، وهو من جعلني وصديقي أحضر لتحيته. سيدتي. أستعطفك أن ترعيه جيدا، فهو شخصية مهمة لهذه البلاد».

«لا تشغل بالك بذلك». قال صديقه «فالسيدة ترعاه بشكل جيدا، في ذلك اليوم الذي أتيت فيه هنا لاحظت أنهما قد تشاجرا قليلا...»

«أغلق فمك. ومن قال لك أننا قد تشاجرنا قليلا؟»

«سيدتي. لست أحتاج إلى أحد ليخبرني أن رجلا وامرأة قد تشاجرا، فعندما ترى أن عيون المرأة تومض مثل سيارة الإسعاف تعرف ذلك. ولكن في تلك الليلة عندما كنت غاضبا لأن الأوجا قد اشعل مصباحه اليدوي في وجهي طلبت مني السيدة نفسها ألا أغضب لأن الأوجا قد يتحدث بقسوة ولكنه رجل عطوف في

الوقت نفسه . أليس هذا ما قلته لي ونحن في طريقنا إلى بيتك؟»

هزت إليوا برأسها.

«ولكن لماذا لم تخبريني في ذلك الوقت أنه رئيس التحرير في الجازيت؟»

«ولماذا أخبرك؟ وإذا أخبرتك ماذا ستفعل بتلك المعلومة؟ وأنت جاهل لا تقرأ صحف بلادك»؟

«رائع، ها أنت ترين لأنك لم تخبريني فقد ارتكبت خطأ آخر، لو كنت أعرف أن هذا الأوجا المهم هو من كان أمامي يسير بسيارته مبطئا، فكيف كنت سأتسبب في مشكلة لنفسي. هل أنا مجنون؟ ولكن الشيء الذي يحيرني هو نوع تلك السيارة التي يقود. لم أر مثيلا لها من قبل! أولا السيارة عتيقة جدا، ثانيا، أنت الذي تقوم بقيادتها بنفسك. رائع! كيف لي أن أعرف أن الذي أمامي هو شخصية عظيمة؟ كل ما اعتقدته أنه شخص بخيل يسد الطريق على الجميع ولا يرغب في دفع بعض المال كأجرة لسائق. وحق الرب ذلك ما فكرته به».

«لا عليك» رد «آيكم» «بعد كل حساب فتلك المشكلة في الطريق ليست أمرا سيئا لأنها جعلت منا أصدقاء الآن في هذا البيت».

بينما هو في طريقه إلى بيت «أم أم» في تلك العشية، قلب «آيكم» في ذهنه مرات ومرات جانبا معينا من زيارة سائق الأجرة ورفيقه، وكيف بدا الأمر غاية في الأهمية

بالنسبة لذلك الرجل أن يشرح فشله في التعرف إلى «شخصية» محبوبة مثل «آيكم»؛ وكيف حمّل ببراعة ذنبه، فيما يخص فشله، على ذات سبب الإعجاب به، وهو امتلاك سيارة عتيقة بالية من نوع «داتسون» بدلا من سيارة مثل «المرسيدس»، وعلى قيادته للسيارة بنفسه بدلا من الجلوس في مقعد المالك وقيام آخر بالقيادة. من بين كل ما أبدياه من إطراء بغيض وغير زائف «لآيكم»، فإنهما تمكنا في الوقت ذاته من تمرير لكمتين قويتين إليه في البدن.

بإمكان «آيكم» أن يعي جيدا جذور التناقض الذي يكمن في أن الاختيار الشخصي للإنسان للعيش ببساطة دون بعض الكماليات، مثل سائق للسيارة، يمكن أن يميزه؛ ليس كمواطن مثالي متواضع، بل كشخص مجبول على البخل يأبى منح فرصة عمل لسائق من المئات الذين يجوبون الشوارع دون عمل ذلك التناقض هو من الانحراف في مضمونه إلي الحد الذي يبرر الدعوة إلى تفكيك بالكامل لذلك العالم غير الحقيقي الذي ينمو فيه هذا التناقض ويزدهر.

لكن حتى في عالم مثل ذلك، كيف للمرء أن يبدأ في شرح تأييد أولئك السائقين المداسين بالأقدام لزعيم لا يقود سيارة بالية مدمدمة مثل سياراتهم، ولكن لأن يكون مختلفا يركب بفخامة سيارة مرسيدس، والأكد من ذلك أن يستخدم كسائق مضطهدا آخر مثلهم. ربما سيؤدي هجوم شامل على الأصل

والفـرع إلي عـلاج هذا الإذعـان المريض، إنه إذعـان مـتـاخم للإعـجـاب من قـبل أولئك المسـحـوقين ذوي الأقدام المجـهـدة المليئـة بالبـراغيث لمضطهـديهم بسـيـاراتهم «المرسـيـدس بنز»، وطائراتهم ويخوتهم الخاصة. اصرار المضطهدين على أن يرفل مضطهدوهم في نوع من الترف، كيف يمكن لأي تدابير مبتورة أن تعـالج مـثل هذا الأمـر؟ كـلا. لا بد أن تكون التـدابيـر كـاملة غيـر منقوصـة تضغط بقوة وبكثافة حتى تفيض ... سوى أنه في بعض ديكتـاتوريات البـروليـتـاريا، حـيث اقتلعت الجذور في الأعـمـاق، وحـيث قطعت الأغـصـان كـافـة، فـيـبـدو أن قـبـولا بالتـخلف قـد بقي، على غـيـر المتـوقـع، حـيث البـيـوت الريفـيـة الأنيقة والمتاجر ... الخ التي تعود إلى النخبة من الثوار.

إذا فـأسـاس القـضـيـة هنا قـد لا يكون الأنظمـة نـفـسـهـا ولكنه فـشل إنسـان أسـاسي لا يمكن أن يـخـفـف منه سـوى انتشـار واسع للتجربة السيـاسية العامـة، وبالنمو ببطء ولكن بصبر عنيد مثل الشجرة الصغيرة التي غرسها ديفيد ديوب على حدود الصحراء البدائية مباشرة قبل سنة العجائب حين تفرعت أفريقيا بشكل مثير إلى سلسلة متلاحقة من الدول المستقلة!

عندمـا خـرجت أفكار «آيكم» أخـيـرا على شكل كلمـات تستطلع رأي إليـوا حول الأمر، جاء ردها حـاسـمـا وحـادا في صف الطبيعة الأساسية لسائقي الأجرة:

«لم أخبرك بذلك من قبل، ولكن سيارتك هذه تجعل المرء يشعر بالخجل. اليوم لا تملك بطارية وغدا ينفجر أحد

إطارات السيارة. أقول إذا لم يوجد لدينا نقود لشراء سيارة جديدة. لماذا لا تستعمل سيارة «بيجو» جيدة من الوظيفة كما يفعل الآخرون، وتستفيد من خدمات أحد السائقين ليقلني إلى بيتك. هل عملك مختلف عن بقية الناس؟ أليس هو العمل الحكومي نفسه؟ أم انا التي لا أفهم؟».

الجزء الحادي عشر

حس الابتهاج الذي رافق «آيكم» بعد زيارة سائقَي الأجرة، ظل معه طوال فترة ما بعد الظهر وحتى الليل. ليل شعرت فيه إليوا بلهيب مشاعر الإثارة الجديدة عليه، ففتحت خزائن الرقة والحنان لديها وقد أحست -حتى هي- بأن ما حدث كان شيئا استثنائيا. بعد أن عاد لتوه من توصيلها إلى بيتها صنع له فنجانا من القهوة السوداء القوية ليرد ما يشعر به من وهن جسدي عن تخوم عقله المشحون واليقظ، ثم جلس ليفكر. في مثل هذه الحالات يأتي جل تفكيره قويا، وحتى على شكل صور مبالغ فيها.

رأى نفسه كمكتشف قد تخلص لتوه من سلسلة من العوائق في حملة شاقة ليجني في نهايتها، بالحدس أكثر منه عن طريق المنطق، نتيجة مفادها أنه على رغم أن الهدف النهائي لبحثه لا يزال يختفي وراء مزيد من طبقات الخطورة والمغامرة، إلا أن الألغاز التي تبينت حولها للتو قد أشارت دون أي غموض إلى نجاحات محتومة.

قد لا تكون زيارة السائقين هي السبب ولكنها كانت فقط المناسبة التي ملأته بحس المتعة والتوقع الذي يجتاحه الآن، قد تكون الزيارة ذروة لمجموعة من الحوادث ذات العلاقة التي بدأت بأحداث الجمعة الماضية، أو ربما قد أثارت حالة وعي تضرب بجذورها بعيدا عن عقله الباطن، مثل بذرة تحت التربة في حالة سبات أثناء موسم الجفاف تنتظر أول الغيث، ذلك الساحر ذي الأصابع الخضراء.

في جميع الأحوال فلطالما أحس بالحاجة بشكل غامض وملح، وشعر بتوق غير محدد تماما لأن يربط جوهره بالأرض وبالعاملين فيها. لم تكن مشكلته أبدا حول ما إذا كان ينبغي القيام بذلك، بل بكيفية القيام به بأمانة.

افترض بسذاجة في وقت ما أن «العمل العام» - كما يُدعى - يمكن أن يوفر له ما يحتاجه. ولكن انخراطه في هذه الأعمال العامة لم يحصل منه على أي نتيجة سوى الإحساس بأنه لم يعد مفتتنا بالأمر أكثر، وأصبحت لديه قناعة نهائية بالتنافر في لفظة «العام» نفسها عند تطبيقها على تلك الأعمال التي يغطيها بشكل مبهم ضباب الزيف، فتطفو عاليا وبعيدا عن اهتمامات وحيوات تسع وتسعين في المائة من الناس. أي أعمال عامة تلك؟ إنها لا تعدو أن تكون معاملات أولئك العسكريين الذين تحولوا إلى سياسيين، بالإضافة إلى جماعتهم من رجال الأعمال والبيروقراطيين. ولا يستطيع «آيكم» الآن حتى ضمان أن مشاركته المحدودة لم تكن خطأ حاسما. فأغلب افتتاحياته اللاذعة، مثل إدانته لتلك الرياضة الدموية التي تُدعى الإعدامات العلنية، واختلافه في العموم مع السياسات الحكومية، وشجاره وجدله مع كريس، كل شيء أصبح يتخذ الآن شكل الغموض المصاحب للسراب. طبعا اعترف، بمرارة، بأننا دائما نأخذ الحذر عندما نستشهد بالشعب في كل ما نفعله، ولكن ألسنا نقوم في الوقت نفسه بالتأكد من تغييب الناس، موقنين بأنهم إذا ظهروا بصورة شخصية على شكل فزاعة مجابهة لما نقوم به من تضرع ورع سيجعل كلماتنا في غاية القبح حتى بالنسبة لعقلانية قوية كالتي نتبعها؟

بدأ الفشل الرئيس لهذه الحكومة يتخذ معاني أوضح بالنسبة إليه. لا يمكن أن يكون الفساد الهائل، رغم أن حجمه وانتشاره الكبير لم يعد يطاق على الإطلاق، لم يكن الخنوع للتلاعب الأجنبي، وهو مهين في حد ذاته، وليس حتى هذه الرأسمالية المرتبكة من الدرجة الثانية، المشؤومة والمضحكة بالقدر نفسه، ولا حتى إطلاق الرصاص اللعين - على عمال السكك الحديدية المضربين والطلبة المتظاهرين - الذي تبعه تدمير ومنع إقامة الاتحادات والتجمعات المهنية المستقلة. إنه فشل حكامنا في إعادة توطيد الروابط الداخلية الحيوية مع الفقراء والمعوزين لهذه البلاد وهمّ القلب المليء بالرضوض والكدمات الذي ينبض بالألم في جوهر كيان هذه الأمة.

يسعى العاطفيون السذج لإقناعنا بأن جوهر هذا القلب هو في أحسن حال... كيف يمكن ذلك.. وقد استُنزفت حيويته وأضعف من قبل أنظمة من الطفيليين؟ ويجهل أبسط الأمور رغم حذقه في أمور أخرى، معاق أكثر من أي شيء، بفعل تلك الرقة الشاذة تجاه الاضطهاد الممارس ضده من طغاة يعتمرون قبعات من ريش! كيف يمكن له أن يكون في أتم صحة؟ مستحيل! لكن رغم تلك الصدوع الكثيرة فيمكن القول إنه يملك استقامة طبيعية، وحس عنيد بالمصالح المشتركة للجماعة، وهو الذي يمكن إليوا من توطيد علاقة مشاكسة ودية تلقائية مع السائقين، وذلك ما لا يستطيعه «آيكم».

تساءل في نفسه: كيف يمكنه إذن أن يصبح جزءا من مصدر الاستقرار هذا ومن المعنى الاجتماعي؟ ليس عن طريق الادعاء -

كما يريده الرومانتيكيون أن يفعل - بأنه لا يختلف عن الفقراء بارتداء ملابس الجينز الخاصة الباهظة الأثمان الملطخة عن قصد بعلامات تقليدا لأسمال الفقراء البالية. لماذا يضيف المزيد للإهانات التي يواجهونها في الطبيعة؟ فكيف إذن؟

ماذا لو تبرأت من تجربتي الذاتية، ومن الضرورات وكل المعرفة التي حصلت عليها؟ هل يمكنني ذلك؟ وهل يجب علي أن أفعل، قد يمكنني اعتزال الضرورات... ولكن ماذا عن المعرفة والتجربة؟ لا توجد وسيلة أصبح بها مثل الفقراء سوى بالتلفيق والتظاهر. معرفتي هي نفسها صالحة كانت أو طالحة. ولذلك سأظل أنا نفسي بخيري وشري، ولكن بذلك الاستعداد المقصود لتقديم المساعدة وتقبلها في الوقت نفسه. مثل تلك الذرات المعقدة متعددة التكافؤ التي نقرأ عنها في كتب الكيمياء الحيوية. لدي أذرع تنتشر في كافة الاتجاهات - وأيد تشير إلى جاهزيتها لتقديم المساعدة. سأستخدم يدا لألمس بها الأرض وأترك الأخرى حرة لتلوح للسماء.

أها! عندما أفكر في ذلك الأمر فقد أجد تفسيرا لإصرار المضطهَدين على عدم السماح لمضطهديهم بإخفاء مظهرهم أو إرباك الفقراء عن طريق السرقة ثم التخفي في ملابس مشابهة لما يرتدونه، ربما ذلك هو مطلب الاستقامة البدائية من قبل الأرض... أو، من يدري، ربما يكون أيضا شيئا أقل براءة - لأن للأرض حالات تبين فيها دهاء الفلاحين - إصرار على ألا تغادر صدرك العلامة الدالة على تمتعك بالامتيازات، وألا تخلع معطفك متعدد الألوان، من أجل أن تكون واضحا للعيان مثل طاووس في يوم الحساب العسير!

كان فخامته مهتاجا يذرع المكان الضيق بين مكتبه والجدار الخلفي مثل نمر حبيس، يداه متشابكتان خلف ظهره، القبضة اليمنى تحتويها راحة يده اليسرى. أشار إلى كرسي بالجلوس واستمر في ذرع المكان لما يكاد يكون دقيقة كاملة قبل أن يتكلم:

«وأخيرا! ولكن يشهد الله أنني لم أسع في سبيل ذلك. أنتما يا رفيقاي القديمان، أنت و«آيكم» اللذان أقسمتما بدون سبب واضح لدي على المجابهة. ماذا باستطاعتي القول سوى: فليكن ذلك... وبينما تستمر التحريات في مسألة علاقة «آيكم» بمثيري الشغب الأبازونيين، فإني أرى عدم إمكان استمراره في رئاسة تحرير الجازيت الوطنية. ولكن مهما تكن درجة الاستفزاز فلا بد من القيام بالإجراء بطريقة دستورية ومناسبة ولهذا أرسلت في طلبك. وأريدك بصفتك وزيرا للإعلام أن تصدر قرارا بإيقافه عن العمل فورا».

«على رسلك يا صاحب الفخامة فلست أفهم. ما الذي يفترض أنه قد فعل؟».

«أجاد أنت؟ ألا تعرف حقا؟».

«أخشى أنني لا أعرف شيئا».

«حسنا، دعنا لا نضيع الوقت بالدخول في قضية من يعرف ماذا. لقد بينت التقارير الاستخباراتية أنه كان متورطا في التخطيط للمسيرة التي جرت مؤخرا إلى هذا القصر من قبل مثيري شغب يدعون إنهم من أبازون. في الواقع وبعد تحريات دقيقة فقد اكتشف أن أغلبهم من المنادين في مواقف السيارات، وبائعو مخدرات، ومجرمون آخرون في باسا».

«عذرا، ولكن لا يمكنني تصديق ذلك».

«في موقعي هذا يا كريس، فالاعتقاد بالأمور ليس من اهتماماتي الرئيسة. لست بكاهن. ما يشغلني هو أمن هذه الدولة، ومن الأجدر أن تعرف ذلك فأنت وزير الإعلام. على كل حال، دعني أؤكد لك، فهناك أدلة لا تقبل الجدل بأن «آيكم» كان على صلة بهؤلاء الأشخاص في الساحة الرباعية هنا، وذهب بعد ذلك ليعقد معهم اجتماعا سريا في فندق ما شمال باسا. كيف ذلك؟ حسنا يبدو أن مزاجك يغلب عليه الشك، ماذا ستقول اذن لو أخبرتك أن أعوان الأمن الذين كانوا يتعقبونه قد قبضوا عليه لارتكابه مخالفة مرورية خارج الفندق عندما كان يهم بمغادرته؟ وكان ذلك للتأكيد على عدم تمكنه من تقديم شهود بعدم تواجده في المكان عينه... جميل أن يعرف المرء أن بعض أجهزة الدولة ما زالت تعمل بكفاءة. أليس كذلك؟».

«هل يمكنني التحدث معه؟».

«ماذا تعني؟ ألم تكن تتحدث معه؟ أووه، أعتقد أنني أرى ما تقصد. إنه ليس موقوفا أو شيئا مثل ذلك. ليس بعد. ولهذا أعتقد أنك يجب أن تراه. ولكن في البداية أريد إيقافه عن العمل ومنعه بالكامل من الاقتراب من مقر الجازيت. هل هذا واضح؟».

«كلا، ليس واضحا. أعتذر يا صاحب الفخامة ولكنني لن أكتب رسالة أوقف فيها رئيس تحرير الجازيت عن العمل لأن أحد الضباط المخلصين وبكل بساطة أتانا بقصة...».

«يبدو أنني كنت أضيع أنفاسي بلا طائل...».

«إذا كانوا يظنون أن لديهم إثباتات ضده، فدعهم يرسلون له استفسارا يجيب عنه. أو يوقفونه عن العمل إذا لم يكن لديهم صبر لاتباع مثل تلك اللطافات البيروقراطية مثل الاستفسار منه. لست أدري ما علاقتي بهذا الأمر؟».

«استمع إلي. كما يبدو لي فهذه القضية لن تنتهي بمجرد إيقاف أحدهم عن العمل بتهمة التواطؤ مع مجرمين لغزو القصر الرئاسي. قد يكون ذلك هو فقط قمة جبل الجليد. هناك بعض الدلائل تشير أن «آيكم» قد يكون تواطأ مع هؤلاء القوم أنفسهم لإفشال الاستفتاء الرئاسي منذ عامين. وليس لدي مانع من إخبارك أن دورك أيضا في ذلك الإخفاق التام لم يتضح بعد بدرجة مقنعة وقد يبرز اسمك في تحقيق مستقبلي».

«ما الذي تتحدث عنه...؟».

«ولهذا أتمنى مخلصا - وأصلي - أن لا تجعل موقفك... كما تعرف... أكثر صعوبة في هذه المرحلة. أؤكد لك أن ذلك لن يكون من الحكمة في شيء. لو كنت مكانك لذهبت وأصدرت تلك الرسالة كما قيل لي، ثم انتظرت تطورات جديدة».

«وإذا رفضت؟».

«لن أفعل لو كنت مكانك».

«حسن يا صاحب الفخامة، لمرة واحدة سوف أخيب أملك، فلن أنفذ هذه التعليمات، وها أنذا أقدم استقالتي».

«استقالة! ها ها ها. أين تظن نفسك؟ في مقر الحكومة البريطانية أو الأمريكية؟ أفق من نومك! فهذه حكومة عسكرية في بلد متخلف في غربي أفريقيا، يسمى كانجان...».

«لم نكن لنصبح متخلفين لو لم...».

«يوما ما ستكون لديك فرصة لتغيير كل هذا عندما تصبح الزعيم، ولكن الزعيم الآن لن يقبل بأي استقالات إلا إذا تجشم الصعاب وطالب بها. أليس كذلك؟ أعرف أن ذلك قد يبدو غريبا لك لأن هذا الزعيم نفسه قد سمح لك وللآخرين حتى هذه اللحظة بأن تتصرفوا كما تشاؤون. ولكن ذلك لن يستمر يا كريس. من الآن فصاعدا سأستلم زمام الأمور، وأنوي القيام بعديد من الإجراءات قبل أن أنتهي من المهمة. والآن هل هذا واضح؟ أريد لتلك الرسالة أن تصل دون إبطاء إلى يدي آيكم قبل انتهاء العمل لهذا اليوم. بإمكانك الانصراف الآن».

غادر كريس المكان دون أن ينطق بكلمة أخرى ولكن تحديه لم يهتز. اتجه إلى مكتبه لكي يبدأ على الفور في نقل أوراقه وأشيائه الخاصة إلى مقر إقامته وحتى يغادره هو أيضا. لكن بمجرد أن دخل المكتب سلمته سكرتيرته المرتبكة سماعة الهاتف. كان فخامته على الخط.

«نعم يا كريس. لقد أعدت النظر في المسألة وأرى أن لديك وجهة نظر في عدم رغبتك في كتابة رسالة الإيقاف عن العمل. رغبت في منحك شرف الظهور كما لو أنك تسيطر على وزارتك، ولكن لا عليك سنهتم بالأمر. أما في الوقت الراهن فسيدردش معك رئيس «م ب و» حول بعض الأدلة التي تكشفت أخيرا بخصوص سوء تنظيم الاستفتاء وأمور أخرى، وبحق الإله تعاون معه إلى أقصى مدى».

نفذ فخامته وعيده بالقيام بالإجراءات بالطريقة الدستورية بالرغم من كل تلك الاستفزازات. فالرسالة التي سُلمت إلى «آيكم» في شقته بواسطة شرطي مراسل يركب دراجة كانت بتوقيع رئيس مجلس إدارة مؤسسة صحف كانجان القومية، التي تشرف على طباعة الجازيت الوطنية. وكان ذلك بصفته كرئيس لأن مجلس إدارة الهيئة المذكورة كان شبه مجمد منذ أكثر من ثلاث سنوات. يا له من أمر غريب! «فآيكم» لم يقابل ذلك الرئيس قط، أو يرى له رسالة واحدة بتوقيعه منذ استلامه لرئاسة التحرير.

بعد معرفته أن كريس ترك له ملاحظة يطلب منه أن يراه على وجه السرعة، حمل الرسالة إلى منزل كريس وكأنه يحمل جائزة. كانت بييترس متواجدة عند وصوله وارتسمت على وجهها ابتسامة حائرة عندما حيته. ربما توقعت رؤيته عدوانيا على وشك البدء في عراك بدلا من حالة التوازن الغريب التي يبدو عليها الآن، بل ويبدو رائق المزاج أيضا. هل هي نظرة شهيد مستقبلي تمكن بكل نجاح من تدريب روحه على التطلع بعيدا، مركزا نظره على ما وراء المحنة المشوشة صعبة الاختراق لتصل إلى تاج الفخار الواضح الملامح. لاحظت ذلك ولم تعلق على هذا الإنسان الجديد، أو على التأثير الذي بدأ يحدثه في مضيفه. لقد كان أمرا خارقا للعادة تلك الطريقة التي جلس بها الاثنان في هدوء يتبادلان التفاصيل عن مأزق كل منهما الخاص وكذلك الذي له علاقة بالآخر، مثل اثنين مصابين بالوساوس يستعيدان ذكريات إصاباتهما.

دون دراية منها، كان رد فعل بيترس أنها اتخذت وضعيتها الانعزالية المتميزة: جالسة بتصلب وقد ضمت ذراعيها بقوة حول

صدرها. ولكن بدلا من تركيز نظرها بعيدا في الفراغ لتكملة الوضع الجسماني المعروف عنها، فقد تنازلت عن ذلك التقليد بنقل نظرها بصورة دائمة من وجه لآخر بينما استمر الرجلان في أداء لحنهما الثنائي العجيب. أخيرا لاحظ كريس صمتها المشحون.

«أنت لاتقولين شيئا يا بي بي».

«ماذا تريدني أن أقول؟».

«لقد قالت بي بي كل ما يجب أن يقال، عندما كان يمكن أن يفيد».

«ولكننا كنا منشغلين في حربنا المضللة الخاصة».

«لا تكن قاسيا كثيرا علينا، فلم نكن وحدنا في هذا الأمر. كل الحروب التي تم خوضها في هذه البلاد كانت ولا تزال حروبا مضللة. إذن لماذا لا تكون الحروب الصغيرة المتواصلة، التي خضناها من وقت لآخر لنحتفظ بتوازننا، كذلك؟... يبدو أنك تشك فيما أقول؟ حسنا، إذا أخبرني بشيء واحد قمنا به... أو قامت به هذه الحكومة... أو أي منا في السنوات الثلاث الأخيرة... أو حتى في السنوات التسع الأخيرة من الحكم المدني مما لا يمكن اعتباره تضليلا».

«أعتقد أن التضليل قد انتهى». قالت بييترس.

«حقا؟ لست متأكدا من ذلك. فهذه الرسالة ومسرح اللامعقول هذا الذي يخرجه سام ليتخلص مني ويرعب كريس. لماذا كل ذلك؟ إنه ببساطة ليس أكثر من تضليل كامل. حتى الخطر الذي أراه يلوح من بعيد عندما سيفلت زمام هذه المسرحية، وما علاقة كل هذا بحيوات واهتمامات والواقع الذي يعيشه تسع وتسعون في المائة من شعب كانجان؟ لاشيء على الإطلاق».

«مازلت أظن لو أنك وكريس أنصتّما إلي وأوقفتما معارككما المتواصلة كما تطلقان عليها في وقت مبكر فلم يكن ليحاول إلحاق الخزي بكما كما يفعل الآن».

«الخزي؟ أنت تفاجئينني يا بي بي. لم أكن أظن أنك تستطيعين أن تكوني بهذا التفاؤل الشديد. إلحاق الخزي بنا؟ الرجل يرغب في قتلنا! أؤكد لك إنه مجنون، ففي النهاية اختلط لديه التمثيل بالحقيقة».

«أعتقد أن بي بي قريبة من الهدف كعادتها. أوافق أن الرجل مضلل بالكامل ولذلك يمكن أن يكون خطرا لأبعد الحدود، ولكن هدفه في هذه المرحلة ليس قتلنا، بل أن يجعلنا نبدو أقزاما. وأعتقد أن ما قاله لي عبر الهاتف هذا الصباح بالغ الأهمية. فقد قال إنه كان يمنحني فرصة لأظل أظهر كوزير للإعلام».

«قال ذلك؟ وماذا يعني؟».

«حسنا، التظاهر مهم جدا بالنسبة إليه، وبالطبع فعدم التظاهر هو أسوأ أنواع الخزي. وكل ذلك مرتبط في ذهنه بفشل مشروع الاستفتاء على رئاسته مدى الحياة. الألم ما زال يعتمل. لا أعتقد أنني أخبرتكم بذلك في حينه ولكن بعد فشل الاستفتاء اشتكى بمرارة للبروفيسور أوكونج بأنني لم أقم بدوري كوزير للإعلام كما يجب، للتأكد من إنجاح ذلك المشروع، وأنك رأيت أنه من المناسب أن تتخلى عن منصب رئاسة التحرير لتذهب في إجازة سنوية في ذلك الوقت الحرج».

«البروفيسور أوكونج هو من قال لك ذلك؟».

«نعم، ولكنني لاحقا واجهته بذلك. في البداية تظاهر بالتعامل

مع الأمر بدون جدية ولكني لم أتراجع، ولهذا أظهر في النهاية ما يشعر به من مرارة. قال إنه قد شعر بجرح لأننا بصفتنا أصدقاءه القدامى اخترنا التخلي عنه وسمحنا بأن يُلحق به الخزي. لقد كانت تلك كلماته».

«هل قال ذلك حقا؟».

«ذكرته بأنه لم يكن يرغب في الرئاسة مدى الحياة، وقد جعله ذلك يقفز كالمجنون، وقال لي: «لم أرغب فيها وأنت تعلم ذلك، ولكن منذ اللحظة التي تقرر فيها هذا الأمر كان عليك مسؤولية واضحة أنت و«آيكم» في العمل على نجاحي، وقد اخترتما ألا تفعلا». لم ألمس من قبل، إطلاقا، مثل تلك المرارة في صوته».

«ولم تذكر هذه الواقعة «لآيكم»؟ لا أتحدث عن نفسي... فمن أكون لتخبرني؟ ولكن آيكم. لا؟... لا حدود لمفاجآتك لي يا كريس، فلا شيء في هذا العالم يجعل قلبك ينبض بقوة!».

«كان ذلك لأكثر من عامين خليا. لم أكن أظن في وقتها أن الأمر بهذه الأهمية. وفي الحقيقة لم أفكر في الأمر بهذه الصورة إلي أن سمعتك الآن تستعملين تعبير الخزي».

«لا يدل ذلك على وجود ملكة التبصر والتحليل لديك وهذا ما قلته لك على الدوام».

«أرجوك يا «آيكم»، أرجوك. يجب ألا ننزلق مرة أخرى إلي معاركنا المتواصلة، ولكن...».

«كلا يا بي بي. أنا أتكلم بجد فلو أن كريس أخبرني عن الأمر في حينه، لكنت أصررت أن يستقيل كلانا مباشرة في حينها، ولن نكون عندها في هذه الورطة التي نحن فيها الآن. هل ترين ما أعنيه؟».

«ربما، ولكننا ضيعنا الفرصة. وما أريد معرفته هو ماذا ينوي كريس أن يفعل الآن وماذا يقترح عليك أن تفعل؟».

«الأمر بسيط. سأكتب استقالتي هذه الليلة وأرسلها له في الصباح، أما «لآيكم» فأقترح بكل جدية وقوة أن يلتزم الصمت لفترة معينة إلى...».

«هراء يا كريس، هراء! أسوأ وصفة لمحرر موقوف عن العمل هي الصمت. ذلك ما يريده رئيسك، ولأنه يوفر لك لفات كبيرة من الورق، فهو يعتقد انه يملك صوتك. ويسحب الورق عندما يحلو له ذلك ليبين لك كيف تكون أخرس من دونه. لايجب أن تسمح له بالفوز».

«إذا ستقوم بإصدار صحيفتك الخاصة؟».

«لا تكن سخيفا. إذا لم تتمكن من الكتابة فيمكنك بالتأكيد النهوض والكلام، فأنت لم تفقد حبالك الصوتية بعد».

«وأين تزمع أن تتحدث؟ في أحد جنبات سوق جيليجيلي؟».

«كريس !».

«لا عليك. كل ما أقوله لك خذ حذرك فقط! هذا كل شيء. أو كابيسا. رغم أنني لم أسمعه يستعمل هذه الكلمة في الآونة الأخيرة».

«ليس بعد أن وصل استعمالها حتى في صفوف ميكانيكيي السيارات». قالت بييترس.

«هذا صحصح».

«أعتقد يا «آيكم» أن كريس على حق. لا بد أن تهدّئ الأمور خلال الأسبوعين القادمين لنتمكن من التخطيط لخطوتنا القادمة كما يجب. كريس محق. فيما قال، رغم أنك أقرب للدقة فيما يتعلق بالخطر المحدق».

«بالرغم من تلميحات كريس، فلم يكن في نيتي تأسيس زاوية مثل «هايد بارك» في سوق جيليجيلي. ولكن الناس سيطرحون علي أسئلة وحتما سأجيبهم عنها. لن أزحف إلى حفرة...».

يبدو أن سيارة أجرة كانت تواجه مشاكل مع شرطي الحراسة. نهض كريس الذي كان باستطاعته رؤية المشهد من مكان جلوسه وصفق بيديه للفت انتباه الشرطي مشيرا له بالسماح للشخص أيا كان، من الدخول، لكن صبر سائق سيارة الأجرة كان قد نفد، كما يبدو، فراح ينزل الراكب معه وهو يفور.

إليوا هي من كانت تركب معه، دفعت النقود وتسلمت الباقي وهي غاضبة جدا ويمكن لكريس رؤيتها بوضوح من مكان وقوفه، ثم هرولت إلى البيت في حالة هياج شديدة متجاهلة عبارات الترحيب بها من الجميع، راحت ترمي بنفسها على «آيكم».

«ما هذا الذي سمعته يا «آيكم»؟ هل حقيقة أنهم طردوك؟».

هز «آيكم» برأسه وهو يضمها إليه. انفجرت تذرف الدمع في بكاء عنيف، وفي تلك اللحظة نفسها تفجر جو الغرف. شعر الثلاثة وخاصة الرجلان بالخجل من ذلك الموقف العاطفي الدخيل، وقد حاول كل منهم النطق بأيما كلمة لمواساة الفتاة واستعادة الهدوء في الغرفة.

«لا عليك يا إليوا فأنا لم أُطرد وإنما جرى إيقافي عن العمل فقط. وعلى كل من الذي أخبرك؟».

فجأة تغير كل شيء. توقفت عن البكاء بصورة درامية كما بدأته، لكن عندما واصلت الحديث كان صوتها يخرج متقطعا يملأه الأسى.

«الجميع يتحدثون عن ذلك في فناء مجمعنا السكني، حتى أمي أصابها المرض عندما سمعت أن جارنا سيستمع للأخبار في الساعة السادسة على جهاز الراديو، ولكنني كنت ذهبت إلى الصيدلية لشراء دواء لي».

«لا عليك يا عزيزتي. فكما ترين ما زلت حيا وبخير».

«أشكر الله على ذلك».

«وكيف حال أمك اليوم؟».

«أحسن قليلا... قلت أنك لم تُطرد، وماذا تسمي ما حصل، أليس طردا؟».

«إيقاف عن العمل فقط. لقد أوقفوني عن العمل».

«ما هو الإيقاف عن العمل... أرجوك يا بي بي... ما هو الإيقاف؟».

«لا تشغلي بالك يا أختاه، طالما نحن أحياء كل الأمور ستسير على ما يرام... سمعت أن أمك ليست بصحة جيدة. هل أخذتها إلى المستشفى؟».

«مستشفى؟ من لديه مال لتغطية تكاليفه؟ وحتى لو وجد المال... المشاكل الموجودة هناك يا أختاه... نحن البسطاء لانذهب هناك».

سمِعُ إليوا الحاد هو أول من التقط إشارة المقدمة لنشرة الأخبار على مذياع بعيد قد أُدير بصوت عال، ربما يكون صادرا عن مقر إقامة فتيان الخدمات في الجيرة. صاحت فجأة «الأخبار» فقفز كريس من مكانه وأسرع إلى جهاز التلفزيون، شغّله وتطلع إلى ساعته في الوقت نفسه. إليوا كانت على حق، فأخبار الساعة الثامنة كانت على وشك البدء. وجلس جميعهم متجهمي الوجوه للمشاهدة.

كان إيقاف آيكم هو الخبر الأول في النشرة. لوهلة تسلل إلى ملامحه شيء يقرب من النظرة اللاهية - لقد تمت إذاعة النبأ دون أي زخرفة، ثم فجأة بدا وكأنما لدغه عقرب فصرخ وقفز واقفا على قدميه.

«أوه، لا»، صرخ: «لا يمكنهم القيام بهذا! هل سمعت ذلك يا كريس؟ وتقول لي يجب أن أهدأ لفترة. أهدأ وأترك أكلة اللحوم هؤلاء يضعون أيديهم القذرة على رجل البساطة المقدس؟ أطفئ هذا الجهاز اللعين!». كان بالفعل في طريقه إلى جهاز التلفاز عندما سمع صوت كريس يأمره أن يتمالك نفسه، ويذكره بأن الجهاز ليس ملكا له وأن هذا المكان ليس بيته. رجع وارتمى على كرسيه واضعا ضفر إبهامه الأيسر بين أسنانه، ثم نهض ثانية قائلا:

«هيا بنا. يا إليوا!».

سبب كل هذا الهياج هو جزئية صغيرة ألحقت بالخبر عن «آيكم»، ولعدم أهميتها فقد قُدم لها بهذه الصيغة: وفي تطور آخر...

نعم. وفي تطور آخر، وفقا لهذا المذيع المعتد بنفسه، الذي ينشر كروب الوطن بجرعات محددة، ألقي القبض على ستة من قادة الأبازون عند قيامهم بمسيرة غير قانونية إلى القصر الرئاسي دون الحصول على إذن من الشرطة، حسب ما ينص عليه القانون. (وفي التطورات نفسها) أبلغ مكتب مدير «م ب و» مراسل الإذاعة لشؤون الجريمة أن الرجال الستة، الذين أدلوا بأقوال مفيدة، لا يزالون موقوفين في سجن المجرمين الخطرين.

الجزء الثاني عشر

في المرتين السابقتين عندما تحدث «آيكم» إلى جمهور في جامعة باسا كان قد اجتذب إليه الكثير من الحضور، ولكن ليس بكثافة الحضور في هذه المناسبة في الوقت الحاضر، فقد شغلت المقاعد الألفين في تلك الصالة الرئيسية بالكامل وجلس، أو وقف، الذين لم يجدوا مقاعد في الممرات، بينما أخذ آخرون يحاولون إلقاء نظرة من خلال الأبواب أو النوافذ المطلة على الممرين الواقعين على جانبي القاعة بالطول. من الواضح إن إيقافه عن العمل في الجازيت قد رفع من مستوى شعبيته - التي كانت مرتفعة في الأصل - إلى أعلى مستوياتها. كان تحلي الحضور بالصبر أكثر جدارة بالملاحظة من حجم عددهم، لأن المحاضرة بدأت بعد أربعين دقيقة على الأقل من موعدها المقرر، بينما كان مسؤولون في اتحاد الطلبة يتصببون عرقا، يدخلون إلى القاعة ليخرجوا منها ويصيحون أحيانا في الميكروفونات التي هربت منها الحياة «تجريب ! تجريب! تجريب!» وقد تحلى الحاضرون كثيرا بروح الدعابة حتى إنهم صفقوا في دويّ عندما عادت مكبرات الصوت للحياة.

مشاورات اللحظة الأخيرة، وبدا كأن المحاضرة ستبدأ، ولكن ذلك لم يحدث. فهناك التقديم في البداية. استلم الميكروفون أحد أعضاء الاتحاد ليقدم مذيع الاحتفال، وهو رجل وسيم فاره الطول يرتدي بدلة بيضاء من ثلاثة قطع، والذي قدّم بدوره، في زمن أطول، رئيس اتحاد الطلبة، الذي قام بدوره مستغلا زمنا أطول ليقدم رئيس الاحتفال، والذي بدوره قدم - أخيرا - السيد «آيكم أوسودي». كان

الذي يحدث الآن عبارة عن استعادة لاجتماعات السياسيين التحضيرية للحملات في أيام السياسيين البيزنطيين الذين لو قدر لهم أن ينهضوا في هذه اللحظة من الحفر التي يقبعون فيها، إلى مكان بالقرب من السطح، لشاهدوا هذا المنظر بعيون لامعة وهم ينتفون شعر لحاهم ويتذكرون الأيام الخوالي بسعادة.

عنوان محاضرة «آيكم» هو «السلحف والنمر - رؤية سياسية حول ضرورة النضال». وقد قوبل الإعلان عن عنوان المحاضرة بتأييد صاخب. لاشك في أن ذلك يظهر ما لهذا العنوان من هالة ثورية مناسبة مما حدا بآيكم للابتسام في داخله لذلك الانقلاب الذي سيقوم به ضد الحضور وضد نظرتهم المقلوبة عن النضال، كما هي نظرتهم لكل ما عداه.

«سيادة الرئيس، سيدي ...» نطق بذلك وانحنى باحترام ساخر نحو البروفيسور الذي امتُدح لتوه من قبل رئيس الاتحاد ووُصِف بالأكاديمي الذي يتمتع بشعبية واسعة ويحوز إعجاب الجميع ويعد مختلفا لوضوح رؤيته ولاتجاهه الماركسي، ورغم كونه أصغر بروفيسور في كانجان، فقد تمكن من إعادة توجيه مادة العلوم السياسية من ميلها إلى جانب البورجوازية، تحت إشراف البروفيسور أوكونج، والخروج بها إلى آفاق جديدة من المادية السياسية.

«هل لي أن أستغل تسامحكم وأبدأ هذا التأمل - بالمناسبة فهي ليست محاضرة، لأنني لم أكن لأحظى بهذا العدد من الحضور للاستماع لمحاضرة - أنا أتأمل فقط، وسأبدا بحكاية صغيرة».

ثم روى لهم حكاية السلحف الذي كان على وشك الموت، وقد أحدثت القصة تأثيرا دراميا وعاطفيا عظيما.

«لقد استمعت إلى هذه الحكاية من شيخ عجوز، وبينما أقف أمامكم الآن يقبع ذلك العجوز في الحبس الانفرادي في سجن باسا المخصص للمجرمين الخطرين».

كلا! لماذا! نعترض! مستحيل! وتطايرت أصوات أخرى، لتملأ جو القاعة مثل الشرار معبرة عن الصدمة والغضب.

«أسمعكم تسألون لماذا؟ حسنا ... ذلك هو السبب... لأن الذين يروون الحكايات يعتبرون مصدر تهديد. إنهم يهددون كل أبطال السيطرة، ويخوفون الذين يغتصبون حق الروح البشرية في الحرية، في الدولة أو الكنيسة أو المسجد أو في مؤتمر الحزب أو في الجامعة أو أي مكان آخر. ذلكم هو السبب». كانت محاضرة قصيرة لم تزد على عشرين إلى خمس وعشرين دقيقة؛ ولكنها كانت قد أعدت جيدا وألقيت بقوة متخذة صفة وشكل الشعر الملحمي. كانت جادة دون أن تشوبها الكآبة، فكهة أحيانا دون أن تسقط في فخ الإسفاف.

وقف الحاضرون أو جلسوا وقد عمهم الصمت. وكان لانتهاء المحاضرة المفاجئ فعل الضربة العنيفة التي رجتهم في صيحات احتجاج. وقد تحولت صيحات مثل النار! النار! المزيد! المزيد!، وحتى، نحن نعترض! تحولت إلى نوع من الأهازيج عندما جلس «آيكم».

التفت الرئيس إليه وقال «يرغبون في المزيد!»

«أشكركم يا أصدقائي على هذا الإطراء، ولكن كما قال أحدهم ذات مرة: لم يعد هناك المزيد في الأنبوب!».

«لا! لا! نعترض!»

«في جميع الأحوال فقد أنصتّم إلى بصبر. أما الآن فأريد أن أسمع منكم. فالمحاورة دائما أكثر إثارة من الحديث من جانب واحد.

وعليه ألقوا بأسئلتكم وتعليقاتكم ودعونا نتبادل بعض وجهات النظر الحادة. كنتم طوال الوقت في جانب المتلقي، ولكن كما يقول الكتاب المقدس «لأن تعطي أفضل من أن تتلقى» ولذلك دعونا نستقبل بعض الضربات من جهتكم لأن ذلك هو ما أتيت من أجله».

بالفعل، فقد تمكن أخيرا خلال وقت الأسئلة من خوض الصراع المباشر والقريب الذي يستمتع به كثيرا. وبطبيعته، فإنه نادرا ما يكون في الجانب نفسه الذي يقف فيه مستمعوه، مهما كان نوعهم. فإذا كانوا يمثلون الراديكالية، فإنه يضع نفسه في مكان المحافظين. وإذا اقترحوا معتقدات يمينية، يطلق عليهم خمم الثورة! ولم يكن أي من ذلك بفعل تفكر في الأمر وتدبير مسبق ولكنه يتم تلقائيا. وبشكل ما كان يعي ذلك بعد الحدث، وبإمكانه حتى أن يقدم بعض التبرير لو طلب منه، ويتلخص في: مهما تكن فذلك لا يكفي، ولا بد أن تجد طريقة ما لقبول شيء من الآخر، مهما كان ضئيلا، لكي يجعلك كاملا وينقذك من الخطأ القاتل، المتمثل بالإحساس بأنك دائما على حق وكذلك يجنبك التطرف.

منذ شهرين أُجبر، خلافا لقناعته الشخصية، على أن يلقي خطبة في حفل الغداء الأسبوعي الذي يقيمه نادي الروتاري في باسا. في تلك المناسبة بالذات كان لأعضاء النادي أكثر من سبب للسعادة فقد اشترى النادي ناقلة مياه وتبرع بها إلى مستوصف يقع في أحد أفقر الأحياء في شمال باسا، ولم يسبق لهذه المنطقة أن وصلت إليها الكهرباء أو المياه من قبل. في الجو الذي يعبق برائحة الدخان والخمر والإحساس بالإنجاز، جلس مضيفوه بعد تناول الطعام ليستمعوا إلى ما سيقوله لهم ضيفهم المميز ... حسنا، وكعادته، ترك ما يجب أن يخبرهم به ودخل في موضوع

غير متوقع من قبلهم: «الهبات»، أرعد قائلا، «هي أفيون الموسرين: من المواطن الخير الذي يعتاد رمي كمية من نقود العملة الصغيرة التي يملكها من مسافة آمنة من فوق إلى وعاء المجذوم الجالس أمام السوق؛ إلى المواطنين الصالحين مثلكم الذين يتبرعون بالماء ليتمكن أحد المبتلين بمرض بغيض في الأحياء الفقيرة من غلي الحقنة لوخزه بها، أما قروحه فهي ملفوفة بشاش أكثر نظافة من باقي جسمه، إلى الأشرطة اللاصقة التي تستعمل لتغطية الجروح من ماركة «باند إيد» التي أنارت، بطريقة درامية كبيرة، سماء أعياد الميلاد المظلمة في أثيوبيا. وبينما نحن نقوم بالأعمال الطيبة، دعونا نتذكر أن الحل الحقيقي للمسألة يكمن في عالم تصبح فيه التبرعات غير ضرورية».

على الفور تبدد الكرم الواسع لمضيفيه وتحول إلى إشارات عدائية حادة وواضحة. نخر أحد السادة الحضور في وجهه قائلا: «أن العالم الذي تنشده لا يوجد إلا في السماء». ورد آخر بأنه حتى في السماء توجد أفضليات، فالملائكة المقربون هم أعلى مقاما من الملائكة العاديين.

اقتيد «آيكم» خارج المكان بأسرع ما يمكن بواسطة اثنين من إدارة النادي - وهو إجراء معتاد بالفعل - ولكن في هذه الحالة فقد تم بكياسة تماثل الجليد، بدت على هيئة طرد لضيف غير محترم مباشرة من فوق الطاولة التي أهان جلساءه عليها. لكن هذا التجمع ليس بناد للروتاري، وسيكون التعامل معه سهلا في بعض الأمور وصعبا في أمور أخرى.

لم يكن المتدخل الأول طالبا وإنما أحد الشباب من أعضاء هيئة التدريس. قدّم لسؤاله بمحاضرة بسيطة عن حتمية فشل

الإصلاحات البورجوازية لعلاج القضايا الأساسية للعالم الثالث ككل وفي كانجان على وجه الخصوص «..وبناء على ما تقدم ألا يعتبر السيد أوسودي بضرورة وضع الأمة تحت المظلة الديموقراطية لديكتاتورية البروليتاريا؟»

«كلا. لا أعتقد ذلك. لن أضع نفسي تحت ديموقراطية ديكتاتورية حتى ولو كانت للملائكة العاديين أو المقربين. أما فيما يخص البروليتاريين فلست أدري من هم في حالة كانجان».

«هم العمال والفلاحون». قال الرئيس محاولا مد يد المساعدة.

«قيل لي للتو، هم العمال والفلاحون»، ردد «آيكم» عبر ناقل الصوت الميكرفون.

«والطلبة»... صاح صوت من الحاضرين مسببا تفجر موجة من الضحك.

«كلام معقول، فالصدقات تبدأ من البيت». قال «آيكم»، مسببا ضحكا أكثر «هل من اقتراحات أخرى، لدينا العمال والفلاحون والطلبة ... عظيم! هل يمكن أن يقف الفلاحون المتواجدون في القاعة الآن».

انطلقت في اللحظة نفسها ضحكات صاخبة من كافة أرجاء القاعة، خاصة بعد أن وقف أحدهم مرتديا بدلة من ثلاث قطع وقدم نفسه علي إنه فلاح.

«كلا، لست بفلاح يا صديقي العزيز، اجلس، أريد فلاحا مناسبا ... يبدو أيها السيدات والسادة عدم وجود فلاحين معنا الليلة، ربما لا يعرفون أصلا أننا نعقد هذا الاجتماع. علمت من الذين يشاركون في الاجتماعات السنوية العامة لحملة الأسهم أن هناك

مايسمى بنموذج تفويض ترسله وتحدد فيه شخصا آخر ليحل مكانك عند تعذّر حضورك، فهل يوجد معنا الآن أي شخص يحمل مثل تلك الوثيقة نيابة عن الفلاحين؟ سيادة الرئيس. هل قدمت لك أي وثيقة تفويض؟»

على الرغم من مسؤولية الجد الثقيلة فقد أحس البروفيسور المثقف بضرورة انضمامه إلى هذا الهزل الأخرق. هز رأسه بغير شدة ولكن بالقدر الكافي لدفع ذلك الجمع المرح إلى الضحك.

«حسن، فيجب علينا إذن أن نترك الفلاحين خارج المناقشة لأنهم غير موجودين ولم يرسلوا أحدا لينوب عنهم ... وهكذا يتبقى لدينا العمال والطلبة».

«والبائعات في السوق». تدخل صوت أنثوي حاد من بين الحضور، ليتجدد الضحك. «نساء السوق، يا فتاتي العزيزة هن من فئة الفلاحين. وهن لسن هنا أيضا ... سأخبرك بسر لا يعرفه أحد، وهو أن أم زوجتي المستقبلية هي إحدى البائعات في السوق». ضحك!

«هل تتاجر في العملة؟».

«كلا. ليست تاجرة عملة، بل هي عاملة بسيطة في السوق ... أنا جاد بالفعل والأمر ليس دعابة الآن، فحماتي المستقبلية تبيع الملابس القديمة في سوق جيليجيلي. هي ليست تاجرة عملة كما أسلفت، وبإمكانها أن تحمل جميع ثروتها في صرة فوق رأسها. لهذا تستحق مع الفلاحين مقعدا بين البروليتاريا، ولكنها لم تعطني، أنا... زوج ابنتها في المستقبل، أي تفويض لأكون ممثلا عنها في لقاء حملة الأسهم هذا. لهذا دعونا ننتقل من هذه النقطة ونتعامل مع الذين يستحقون أن نتحدث باسمهم وأعني أنفسنا، أي العمال والطلبة.

لنأخذ العمال في البداية. من العمال؟ هم العمال أنفسهم الذين يضربون عن العمل عندما تهدَّد الامتيازات البالية وغير المناسبة حول السلف الخاصة بالسيارات وبعض العلاوات التي تعود للفترة الاستعمارية، وهم العمال أنفسهم الذين ليس في مقدور زعمائهم تقديم بيان مرض عن الملايين التي يجمعونها شهريا من البرنامج الإلزامي للمقتطع من مرتبات العمال، هؤلاء الزعماء الذين لم يحدث أن هاجموا، في مجلسهم، عملية التغيب عن العمل، والبطالة المقنعة، والأرقام الفضائحية للإنتاج المحلي. فوق كل شيء، هم العمال الذين قام رئيس اتحادهم في العام الماضي خلال انعقاد مؤتمر عمال عموم أفريقيا برفض مغادرة غرفته بالفندق إلى أن يتم استبدال سيارة «البيجو فئة 504» المخصصة له بأخرى من نوع «مرسيدس». وكما تذكرون فالسبب الذي أبداه هو أن زعماء العمال ليسوا - وفقا لكلامه بالحرف - من الرعاع العاديين، أتجدون هذا مضحكا؟ حسنا، أنا لا أجده كذلك، بل أجد الأمر حقيقيا ومأساويا. فزعماء العمال هم بالفعل رعاع غير عاديين. هناك معركة قائمة منذ عدة سنوات بيني وبين نقابة الموظفين. تعرفون بالأمر أليس كذلك؟»، وأجاب الحضور بنعم مصحوبة بضحك مدوٍّ. «سبب معركتي المستمرة معهم أنني لم أخف رأيي فيهم باعتبارهم مجرد طفيليين». المزيد من الضحك، «الذين يتتبعون منكم معاركنا قد يذكرون أن الأمور وصلت إلى مواجهة في السنة الماضية عندما كتبت افتتاحية لاذعة عشية انعقاد مؤتمرهم». ظهرت ابتسامات على وجوه بعض العارفين بالأمر، بينما هز آخرون رؤوسهم وسمعت بعض الضحكات المتفرقة. «في البيان الذي أصدروه بعد انتهاء المؤتمر، أشاروا إلى أن

بورجوازيا معينا، وكتابا نخبويين هدامين ليسوا أكثر من كلاب تابعة للإمبريالية! (ضحك عال) من المحتمل أنكم لم تعرفوا حينها إلى من يشيرون ولكن ذلك كان أسلوبهم في الرد على افتتاحيتي، وهو أسلوب بالغ الغرابة بالفعل. يقول أحد أمثالنا إن دودة الأرض لا ترقص ولكن تلك هي طريقتها في المشي». حالة ضحك.

لا تنفك تهمة النخبوية تذهلني لأن الذين يطلقونها أنفسهم سينتقدونك أيضا لعدم تقديمك النصيحة وتسويق النوع الخاص من ثورتهم إلى الجماهير. الكاتب يرغب في طرح الأسئلة وهؤلاء الملاعين يريدونه أن يقدم الأجوبة. والآن أخبروني بحق المسيح. هل هناك نخبوية، بل أقول هل هناك نخبوية عدوانية أكثر من شخص يفترض أن يقدم أجوبة عن أسئلة لم تطرح بعد؟ أعطونا الأجوبة! أعطونا الأجوبة! تعرفون أنها الصيحة نفسها التي سمعها المسيح من الطفيليين المحيطين به، بطيئي الفهم الجوعى في الجليل أو في مكان آخر أو شيء من ذلك» صوت تهليل مدو... «قدم لنا المعجزة! أرنا معجزة وسنصدقك! توقف عن التعليقات اللاذعة وتقدم صوب الهدف، فالوقت قصير! ونريد النتائج! الآن، الآن» استقبل ذلك الاستغلال الدون كيشوتي وغير المتوقع للنص المقدس بالمزيد من التهليل. «لا، ليس بإمكاني إعطاؤكم أي إجابات من التي تطالبون بها في صخب. عودوا إلى بيوتكم وتدبروا الأمر! لا أستطيع الحكم على ثورتكم المدللة المستمدة من الكتب المدرسية، وما أريده بدلا من ذلك هو إثارة التنوير العام عن طريق إجبار الناس على فحص ظروف حيواتهم، لأنه وكما يقول المثل، فالحياة بدون تدبر غير جديرة بأن تعاش ... وكل ما أطمح إليه ككاتب هو أن أعمل على توسيع مجال

هذا التدبر والفحص الذاتي. لا أرغب في إعاقته بأرثوذوكسية منمقة غير ناضجة. يقول من ينتقدونني أنه لا يوجد وقت لبرنامجك التعليمي الجميل هذا؛ وأن الجماهير مستعدة وستتعلم أثناء ممارستها للنضال، ويقتبسون أقوال فرانز فانون فيما يخص خطيئة خيانة الثورة، وهم لا يعرفون أن خيانة الثورات تتم بالقدر نفسه بسبب الغباوة، وعدم الكفاءة، والإجراءات المتهورة، بالقدر نفسه الذي يخونون به الثورة حين لا يعملون شيئا البتة»... هناك تصفيق بدرجة مختلفة وبحذر، توقف «آيكم» للتفكير في تصرفه التالي.

«أعتقد أنني يجب أن أستغل هذا اللقاء للترويج للراديكالية الجديدة التي أؤمن بأن علينا اعتناقها»... شرعوا في التصفيق لما يتوقعون منه «أولا وقبل كل شيء، يجب أن تكون عيون هذه الراديكالية من الوضوح لترى ما وراء الهراء الممارس حاليا الذي سيكوم كافة مشاكلنا على باب الرأسمالية والإمبريالية ... أرجوكم لا تسيئوا فهمي. أنا لا أنكر أن عوامل خارجية لا تزال أساسا للكثير من مشاكلنا، ولكنني ما زلت أقول إنه حتى لو كانت عوامل خارجية هي السبب في مشاكلنا كلها، فلابد، لأغراض عملية، من أن نكون على استعداد للتفرقة بين الأسباب البعيدة والمباشرة، كما كان يقول مدرسونا في مادة التاريخ. (ابتسامات الإدراك) هل لي بتذكيركم بأن أسلافنا - وبالمناسبة لا يجب أن نبخسهم حقهم من التقدير، رغم أنني أخشى أن بعضكم على استعداد للقيام بذلك - حسن، أطلق أسلافنا مثلا رائعا يشير إلى الأسباب البعيدة والمباشرة عندما قالوا: إذا أردت أن تعرف كنه جريمة القتل، فعليك بمعرفة الحداد الذي صنع أداة الجريمة». ضحك بصوت عال «مثل رائع. أليس كذلك؟

ولكن الغرض منه هو توسيع أفق تفكيرنا وليس إرشاد الشرطة إلى حل غموض الجريمة». ضحك.

«عندما يسير موظفوكم السمان ومستخدموكم المدنيون في المؤسسات العامة في مسيرات عيد العمال في الأول من مايو وهم يرتدون فانيلات أصغر من حجم المعتاد، ويعتمرون أغطية رأس مثل طلبة المدارس - ضحك - نعم، ويطلقون شعارات تنتمي إلى تاريخ ونضال شعوب أخرى، فهم بالكاد يعون أنهم فيما يخص مسألة النضال الحقيقي لأفريقيا اليوم فإنهم ينتمون إلى فئة المضطهِدين وليس إلى المضطهَدين. - تصفيق حاد - لأنهم هم أنفسهم الرفاق المسؤولون عن تخريب الأمة عن طريق الخداع وعدم الإنتاج، وهذا ما يرسخ من أن المكاسب التي تأتي من الحياة المعاصرة ستكون إلى الأبد بعيدة عن أحلام ضحايا الاستغلال في القرى النائية». أصوات مختلطة.

«أسمع بعضكم يصيح معترضا! أحب ذلك! فدعوني أدلل على قولي. أنا لا ألقي بأي تهم بدون أدلة» بعض صيحات، أطلق النار!

«طبعا سأطلق النار! لنأخذ هيئة كهرباء كانجان كمثال من عديد الأمثلة. ماذا نرى؟ إنها تتبع عن قصد أساليب ملتوية لتحصيل المستحقات لتغطية ما يقومون به من غش هائل؛ توصيلات غير قانونية تتم أو يسكت عنها من قبل منتسبي الشركة؛ سرقة للعدادات ومرتع للعديد من الجرائم الصغيرة والكبيرة ومنها: استعدادهم في آخر النهار لحرق كافة سجلات الحسابات وإدارات المراجعة إذا علموا أن هناك لجنة مراجعة وتدقيق»... ضحك عال «هذا ليس مضحكا كما تعرفون»... لا تعرهم اهتماما! صاح شاب

من الصف الأمامي وهو ينظر شذرا إلى جيرانه المقهقهين «أن نلقي بتبعات ذلك كله على الإمبريالية والرأسمالية العالمية كما يريدنا الراديكاليون الذين يسيرون على الموضة، لهو رياء مطلق وعين التدجيل ... فهو مثل إلقاء القبض على حداد القرية كلما قام أحدهم بقتل جاره بالساطور»... ضحك عال، وتصفيق، اشترك فيه حتى الشاب الغاضب في الصف الأمامي «هل أستمر؟ كلا! كل ما أقول أن هؤلاء الناس ليسوا عمالا مهما شطح الخيال. أقول لكم إنهم طفيليون، ولن أسمح بأن أسلم زمام أمري إلى ديموقراطية ديكتاتورية الطفيليين. مستحيل! ... والآن ماذا عن الطلبة؟ يجب أن أتوخى الحذر هنا لأنني أرغب في العودة إلى بيتي سالما الليلة»... انفجار لموجة الضحك «على كل، فالحقيقية لا يمكن حجبها! وأقول بكل أسف، وفقا لرأيي المتواضع، إن الطلبة هم زبدة الطفيلية». ضحك مضاعف «ألم يقم الطلبة الذين يؤدون الخدمة الوطنية منذ أيام بهدم مبنى لرعاية الأمومة والطفولة كان قد شيد من قبل الفلاحين؟ لماذا؟ كانوا يحتجون على تكليفهم بالخدمة في مكان ناء في الريف لا يوجد به كهرباء أو أنابيب مياه. ألم تقرأوا عن ذلك؟» انطفأ الضحك فجأة «ربما بإمكان أحدكم أن يبين لي قضية واحدة في هذه البلاد ارتفع فيها الطلبة، بصفتهم إحدى الطبقات، عن المستوى الوطني العام المنخفض للغاية. القبلية؟ التطرف الديني؟ وحتى بيع الأصوات الانتخابية. ألا تقومون ببيع وشراء أصواتكم الانتخابية، وتعرقلون وتخطفون خصومكم كما كان يفعل السياسيون؟» بدأ التصفيق في العودة للحياة وإن يكن أقل قوة بكثير. «هل أنتم - كما يجب أن تكونوا - أكثر كفاءة من كثير

من الرجال والنساء في بلادنا الذين لا يتمتعون بمثل حظكم عندما بدّدنا عليكم ما نملك من إمكانات تعليمية ضئيلة؟ استغرق منا الوقت ساعة لنبدأ هذه المحاضرة لأننا لم نجد ميكروفونا صالحا ... وصلت إلى هذه المنصة فوق طبقة من اللب الذي كان يتفجر تحت قدمي. إذن ما الذي نتحدث عنه؟ ألا تقومون باستغلال جماعات ضغط قبلية للحصول على مستوى أقل من متطلبات دخول الجامعة بدلا من النضال لتتساووا، أو حتى تتفوقوا على أي طالب من أي مكان؟ نعم. فأنتم تفضلون وجود جدران للتعريفة الأكاديمية بحيث تحتمون خلفها وتقومون بأعمال متوسطة المقدرة. والان تطلبون مني أن أسلم حياتي لديموقراطية دكتاتورية متوسطة المقدرة؟ مستحيل! ... والآن، لا تسيئوا فهمي. فلا رغبة لدي لأن أقلل من دوركم في وضع هذه البلاد في نهاية المطاف على طريق الإصلاح. ولكنكم لن تتمكنوا من القيام بذلك إلا إذا بدأتم بتطهير أنفسكم وأن تقوموا بدور نظيف. وكبداية، يجب أن تتعلموا محاسبة زعمائكم من الطلبة لينهضوا بواجباتهم بمسؤولية؛ بعد قيامكم بهذا الأمر فقط، تكون لديكم السلطة الأخلاقية لإلقاء محاضرات على قيادتكم الوطنية... لابد من أن تنموا في أنفسكم عادة الشك وألا تقبلوا بأي من المعتقدات الخرافية التي يقول بها الأطباء السحرة أو أساتذة الجامعة. أرى الكثير من ترديد الأقوال مثل الببغاوات، والكثير من الترديد بدون فهم لشعارات راديكالية منمقة ... عندما تخلصون أنفسكم من هذه الأشياء فستتضاعف مقدرتكم على تقديم المساعدة لهذه الأمة وعلى قيادتها مرات».

تصفيق غير عادي. هل ذلك مفاجأة؟

استمرت الأسئلة صعبة وسريعة، وفي النهاية اضطر الرئيس للنهوض ولأن يقول: «كفى! فقد بلغت الساعة حوالى منتصف الليل. شكر السيد أوسودي على هذه المحاضرة البالغة الإثارة، وعلى الأجوبة عن الأسئلة التي لم تخل من الإثارة أيضا، وأثنى على مساهمة المحاضر في التقدم الثقافي والسياسي في مجالي الصحافة والأدب، وأبدى أمله في حل سريع لأي سوء تفاهم نتج عنه إيقافه عن العمل». تصفيق استحساني. ولكنه يرغب في المرور سريعا بقضيتين. اعتراض طفيف من القاعة، ووعد بألا يطيل عليهم، وهو يثير هاتين القضيتين باعتباره متخصصا في سوسيولوجيا الأدب، وفي سياق الحديث عن الوضوح والتطور الأيديولوجي للكاتب. أولا لا بد من أن يعترف بأنه يجد أن مفهوم السيد أوسودي للنضال مغرق في الفردانية ويتسم بروح المغامرة. بعض التصفيق. والأمر الثاني، هو أن يقول مرة أخرى بصفة عامة أن على الكتاب في العالم الثالث ألا يتوقفوا عند مرحلة تدوين القضايا الاجتماعية بل عليهم أن يتحملوا مسؤولية أكبر وهي تقديم الحلول أيضا. تصفيق مدوٍّ.

«الكتاب لا يصفون حلولا.» صاح «آيكم» «ولكنهم يسببون الصداع!».

ضحك هستيري

«بهذه الملاحظة، نقول لك شكرا يا سيد أوسودي لهذا المساء بالغ الإمتاع».

الجزء الثالث عشر

أحد الأسئلة الكثيرة التي طرحت على «آيكم»، واضطر إلى الإجابة عن بعضها بإسهاب وعلى البعض الآخر باقتضاب، كان يتعلق بإشاعة قوية تقول إن مصرف كانجان المركزي يزمع استكمال خطط لوضع صورة الرئيس على العملة الوطنية. فهل من صحة لهذه الأخبار، وإذا كانت كذلك، فما رأي المحاضر المحترم في مثل ذلك الاحتمال؟

«نعم لقد سمعت بذلك مثلما سمع الجميع. وأن تكون هناك نية في ذلك الأمر أو لا، فلا علم لدي. كل ما يمكنني قوله إنني آمل أن تكون الإشاعة عارية عن الصحة. أما موقفي فهو في غاية الوضوح، خاصة الآن، حيث لا يجب أن أقلق لكوني رئيسا لتحرير الجازيت. موقفي هو إن أي رئيس يكون من الحماقة ليضع رأسه على العملة، يجب أن يعرف أنه يحرض الناس على نزعه، وأعني الرأس هنا».

هذا التصريح الذي صُفق له كثيرا في القاعة، سيكون له صدى أكثر دويا في أنحاء البلاد في صباح اليوم الذي تلاه عندما خرجت الجازيت الوطنية تحمل عنوانا بأكبر نمط حروف يمكن كتابته، ويقول: رئيس التحرير السابق يدعو إلى قتل رئيس الدولة!.

هناك (لو) واحدة من كثير في تاريخ كانجان المعاصر تقول: ماذا كان سيصير إليه مصير آيكم لو أنه لم يشارك في تلك الأمسية في الجامعة؟ أولئك الذين يجزمون أن المحاضرة كانت حاسمة في تحديد مصيره هم في الحقيقة يستخفون بمقدرة

الميجور جونسون (سامسونايت) أوساي مدير «م ب و» الذي لا يعرف الكلل. لأنه كان يتحرك ويطبق دون شفقة على عدد من الجبهات البديلة، ويأتي أكثرها إزعاجا من جهة ذلك الغريب المثير للجدل، مدير الإدارة في مستشفى

باسا المركزي، السيد جون كنت والمكنى بماد ميدكو. لأكثر من سنة الآن كان الميجور ثاقب الذهن والبصيرة يضع السيد كنت تحت مراقبة لصيقة ولكن سرية. نتيجة لهذا العمل فإن ما تراكم من معلومات لدى الميجور خلال تلك الفترة كان من الأهمية القصوى بحيث يكفي بحد ذاته، حتى لو أن تلك المحاضرة لم تقم. وفي جميع الأحوال فإن ذلك لا يعني التقليل من شأن الثغرة التي قدمتها المحاضرة لأنها مكنت من القيام بحركة درامية بالكماشة، وأصبحت عملية القتل السريع سهلة ومحتومة.

أحضر السيد كنت بكل هدوء للتحقيق معه وأودع الحبس الانفرادي في سرية لمدة أربعة أيام في سجن باسا للمجرمين الخطرين، وأطلق سراحه تحت مراقبة لصيقة ثم أبعد عن البلاد خلال ثمان وأربعين ساعة. إعلان مقتضب في الراديو والتلفزيون عن ترحيله بسبب نشاطاته ضد أمن الدولة والصادر عن مجلس إدارة بحوث الدولة، بينما كان السيد كنت في الجو، كان هو أول وآخر تلميح تحصل عليه كانجان عن هذا الحدث غير المتوقع.

قليلون فقط كانوا يستطيعون أن يربطوا، في البداية، بين هذا الحدث وايقاف محرر صحيفة الجازيت الوطنية الذي أذيع من قبل رغم أن صدور التصريحين بفاصل قصير جدا

بينهما، ترك في أذهان البعض الانطباع أن الهدوء المضطرب الذي ساد خلال الاثني عشر شهرا الماضية، ربما يكون في طريقه السريع للانتهاء.

وبعد ذلك بعدة ساعات كان هناك إعلان خاص آخر. وقد صدر هذه المرة عن المجلس الأعلى للجيش (وهو هيئة لا أحد يذكر أنها أصدرت أي إعلان لسنوات عدة) وجاء فيه ببساطة إعلانه للأمة أنه وفي اجتماع استثنائي للمجلس الأعلى للجيش، فقد تقرر ترقية الميجور جونسون أوساي مدير مركز البحوث الوطني إلى رتبة كولونيل. انتهى الإعلان الخاص.

قال كريس في نفسه عند سماعه هذه الأخبار الأخيرة، إنه ملتزم بالفعل بالوعد الذي قطعه بأن يقوم بالإجراءات بطريقة دستورية.

لا بأس أن تسخر بييترس من أسلوبه الصباحي في استقاء الأخبار ولكن لم يشر عليه أحد حتى هذه اللحظة بطريقة أفضل لمعرفة ما يجري، ليس في العالم الخارجي - الذي يعرف دائما كيف يتروى - ولكن هنا في كانجان. ولذلك، وبدلا من الإنصات لأخبار السابعة من محطة «بي بي سي»، كما جرت العادة، فقد نهض مبكرا في صباح اليوم التالي واستمع إلى أخبار السادسة. وبالفعل فقد كان خبر السيد كنت قد أذيع عالميا.

وبأذن ملتصقة براديو الترانزستور الصغير شرع يطلب هاتف «آيكم». لقد فشل في الاتصال به ليلة البارحة عندما انتشرت أخبار «أم أم» لأول مرة. أنبأه خادم البيت بأنه خرج منذ العشية مع تلك الفتاة... والآن جرس الهاتف يرن ولا من مجيب. كان آيكم معروفا بحبه للنوم حتى ساعة متأخرة،

وبالتأكيد يكره أن يزعجه أحد في الصباح المبكر، ولكن كريس فكر بأنه في الظروف الراهنة فإنه ربما على الأقل سيرد على الهاتف... كلا. لا بأس إذا.

اتصل كريس ببييترس بعد ذلك وقد أجابت في البداية متأثرة بالنعاس، ولكن عند معرفة المتحدثة وموضوع الحديث تنبّهت على الفور.

«حاولي العثور على محطة «بي بي سي» فيحتمل أن يكون لديهم قصة أكثر تفصيلا في الأخبار الأفريقية بعد النشرة العالمية».

«ولكن كيف للمرء أن يعثر على «بي بي سي»؟ تعرف أنني لم أتمكن من ذلك قط. وكل ما أجده هو ذلك الشيء المزعج باللغة الإنجليزية المميزة من صوت أميركا. أعتقد أن مذياعي قد صنعته «سي آي إيه»...».

بعد قليل أعادت بييترس الاتصال، وكان صوتها مكتئبا جدا، لتعلن ثانية فشلها في الحصول على شيء.

«لا عليك يا عزيزتي، تعالي إلي في البيت، فقد تمكنت من تسجيل صوت «أم أم» أثناء البث، وحاليا أحاول الاتصال «بآيكم». مقدرته على النوم خلال هذه العواصف قد بدأت تقلقني... أراك لاحقا».

عندما وصلت بييترس عند الساعة الثامنة إلا ربعا، كان كريس قد أحس بجسامة الموقف، وكان يجري الاتصالات بهياج شديد لأماكن عديدة في باسا دون نتيجة. هرع إليها في الخارج بمجرد توقف سيارتها. ««آيكم» ليس في شقته، رغم أنه نام فيها ليلة البارحة...».

«ربما غادرها مبكرا».

«سـيـارته فـي المرآب و... لـنذهـب ونـرى بأنفـسنـا. هل يمكنك القيادة؟»

«بالتأكيد». ولاحظت أنه يرتعش.

كان الباب الرئيس مغلقا ولهذا اتجها إلى الخلف وعبر المطبخ الذي يحتفظ صبي الخدمة بمفتاح احتياطي له. كانت الشقة في حالة يرثى لها. الكتب والملابس والأوراق مبعثرة في أنحاء غرف الجلوس والنوم

وكذلك الغرفة الإضافية، وبجانب السرير ترتمي ساعة إيقاظ بين قطع زجاجها المحطم.

طفق الصبي يعيد عليهما ما قاله لكريس على الهاتف منذ قليل عندما سُمع طرق على الباب، ثم دخلت امرأة في حالة من الريبة وتبعها رجل. كانا من جيرة «آيكم» في الشقة المجاورة، وقد تعرف الرجل وهو موظف في الدولة علي الفور إلى شخصية وزير الإعلام.

«صباح الخير، يا سيدي». قال الرجل. ويبدو أن عثوره على الوزير هناك قد رفع معنوياته وأودى ببعض الرهبة الكئيبة التي دخل بها «أجنس، هذا هو السيد أوريكو وزير الإعلام. سيد أوريكو، سيدي، هذه زوجتي أجنس».

«صباح الخير، يا سيدي». قالت وقد أضاء وجهها بصورة ملحوظة.

«أشكرك. هل لاحظت شيئا على جارك منذ البارحة؟».

نظر الرجل صوب بييترس متسائلا، ثم جال بنظره في الغرفة وإلى الأبواب المشرعة.

لا يوجد أحد سوانا. أنت تعرف من أكون، وهذه بييترس أوكوه، السكرتيرة المساعدة لوزير المالية. لسنا من الشرطة أو الأمن، نحن فقط أصدقاء للسيد أوسودي، فهل رأيت شيئا؟

سعدت بمعرفتك يا سيدتي... كنت أغط في نومي عندما أيقظتني أجنس وأعلمتني بوجود سيارتي جيب في الخارج...».

«الخاصة بالجيش؟»

وعليه ذهبت إلى النافذة لأنظر وكانت محقة. كانت هناك سيارتا جيب في الفناء، وفي هذا الوقت كان هناك أشخاص يطرقون باب جارنا بعنف، ثم بعد مضي بعض الوقت سمعنا الباب يفتح».

«هل أعلنوا عن شخصياتهم؟ هل قالوا من يكونون؟».

«أعتقد أنهم بينوا تبعيتهم لمركز البحوث الوطني».

«نعم. هذا ما قالوه. وسمعنا صوته يقول إنه قادم قبل أن يفتح الباب».

«وماذا؟».

«لم نكن متأكدين من أنهم كانوا جنودا. تعرف أن اللصوص المسلحون يدّعون أحيانا أنهم عسكريون. ولهذا تملكنا الخوف ولم نجرؤ على الخروج».

ذلك مفهوم. ومتى حدث ذلك بالضبط؟».

«حضروا حوالي الواحدة والربع، وغادروا المكان صحبة جارنا عند الثانية والنصف».

«وكم كان عددهم؟».

«كثير، بعضهم دخل الشقة والبعض الآخر بقي خارجها. قال زوجي إن عددهم يربو على العشرة ولكني لم أحصهم».

«هل سجلت أرقام أي من السيارات؟».

«حاولت ولكنهم أوقفوها تحت الشجرة، ولذلك لم يمكنني ضوء الحراسة الموجود هناك من رؤية الأرقام بوضوح».

«هل أسيئت معاملته؟ بإمكانك الحديث من دون خوف».

«إلا إذا حدث ذلك في الداخل، أما في الخارج فقد تصرفوا بهدوء».

«إذن لم يحدث هناك في الخارج أي صراع أو دفع أو ما شابه ذلك».

«كلا. لم أر شيئا من ذلك».

«ولكن يدي جارنا كانتا مقيدتين. قالت الزوجة: «وكان وجهه...».

«لم نتمكن من رؤية شيء يا سيدي. فكما قلت لك كان المكان مظلما...».

«قلت وجهه؟» سأل كريس، وقد استدار بالكامل نحو المرأة.

«لم نتبين بالضبط إذا كان وجهه متورما فقد كان المكان مظلما. ولذلك لا نعرف إن كان وجهه متورما أو أن ذلك بفعل الظلام».

«نشكركما كثيرا، فقد قدمتما لنا أول معلومات ذات مصداقية. ولا يجب أن ينشغل بالكما فلن نشير إليكما بأي طريقة».

«أشكرك يا سيدي. أشكرك يا سيدتي، فهذا ما عليه بلادنا الآن. الله وحده يمكن أن يحمي الشخص».

عندما تلقى كريس - عبر مكالمة من أحد الأصدقاء - خبر إبعاد «أم أم» عند الساعة السادسة مساء، كان في اليوم السابق قد حاول الاتصال «آيكم»، ولكن يبدو أنه كان قد خرج مع إليوا. ولذلك فإن آخر مرة تبادلا فيها الحديث كانت في صباح قصة قتل رئيس الدولة. كان يكتم غيظه، قدر الإمكان، وهو يحاول

معرفة ما قاله «آيكم» بالضبط في تلك المحاضرة. توقع ما يشبه الانفجار من الطرف الآخر كإجابة عن استفساره، ولكنه سر لأن «آيكم» كان منزعجا بشدة لأن ما قاله قد شُوه بأسلوب فظيع، وكان حينها يكتب رسالة بهذا المعنى إلى محرر الصحيفة، حتى إنه أشار إلى احتمال قيامه برفع دعوى قضائية.

يقف كريس الآن وسط الخراب في الشقة غير قادر على فعل شيء. بدا وكأن ذهنه قد حجز في ممر البلادة الخامل، مرتعشا يدور من باب مغلق لآخر وقد سيطر عليه الذعر.

«أتساءل إذا كان قد بعث بتلك الرسالة».

«أي رسالة؟».

«رسالة موجهة إلى محرر الجازيت، فمن المهم أن ينشروا إنكاره».

«أتعتقد أنهم سيفعلون؟ مع وجود ذلك الكريه الذي يلعق شفتيه. على كل اتصل به واسأله لماذا لم ينشر الرسالة فقد كان بالنسبة لك مثل كلب البودل...».

«لا بد أن نجد إليوا. من يعرف فربما كانت هناك علامات لهذا في الصباح».

«كيف؟».

«في الحقيقة لا أعرف، ولكنها كانت هنا حتى الساعة السادسة».

«هؤلاء الأشخاص أتوا في الواحدة والربع صباحا، ومع ذلك أوافق أنه يجب إخبار إليوا في جميع الأحوال. بالمناسبة هل تعرف محل سكناها. لا؟ ولا أنا. ربما يعرف صبي الخدمة مكانها».

لم يكن الصبي يعرف أين تسكن، أو أين تعمل.

«لنر... أعتقد أنها أخبرتني أنها تعمل بائعة في متجر هندي أو لبناني لبيع الأقمشة ربما، ولكن في أي منها؟ أظن أن بإمكاننا محاولة الاتصال بكل المتاجر الموجودة في دليل الهاتف. ولكن إليوا من؟ حتى هذا لا نعرفه، أليس كذلك؟ أووه، أنا على ثقة أنها ستسمع النبأ بطريقة ما وتعود إلى هنا».

غادرا الشقة لتلتحق بييترس بعملها. نصحها كريس ألا تقوم بأي استفسارات عن المسألة من مكتبها وأن تترك الأمر برمته له.

قضى الصباح بأكمله يتحدث في الهاتف. كانت حالة الخمول الذهني التي سببتها رؤية الدمار في شقة ««آيكم»» قد غادرته الآن بالكامل. وأثناء ذلك بدأ الصفاء يعود إلى عقله حول ما يجب أن يقوم به. لم يكن الميجور أوساي موجودا ليرد على مكالمته، وليس بإمكان أي شخص آخر في المركز أن يساعده فيما طلبه من معلومات.

لم يقم السكرتير الأول للرئيس بتوصيله به هاتفيا، ولكنه وعد بالاتصال به حالما يمكن للرئيس أن يحادثه: «ما هو موضوع الحديث؟ أووه، ولكن تلك المسألة ليست من اختصاص الرئيس، وعليك أن تتحدث مع مدير «م ب و»».

ثم اتصل بالنائب العام الذي أفاد بأنه لا يعلم شيئا عن الأمر.

«ولكن أليس من واجبك أن تعلم؟».

«نعم ولا. إذا كان الأمر يتعلق بأمن الدولة بشكل كامل، فقد يكون الأمر مخادعا... سأعرفه في نهاية المطاف بالطبع، أنت تعرف أن...».

البروفيسور أوكنج لم يعلم إلا الآن، والسكرتير الأول لمجلس الوزراء قد علم لتوه عن طريق النائب العام.

حسن إذن لا فائدة من الاستمرار في البحث عن الحي بين الأموات! ولهذا غير من أسلوبه، من الواضح أن الميجور سامسونايت أوساي وزعيمه ينتهجان أسلوب التكتم، لذلك فعليه أن يباشر بنشر خبر عملية الاختطاف بصورة ضخمة. كان يعرف أن باستطاعته الاعتماد على بعض مراسلي الوكالات الأجنبية في باسا، وعلى صحفهم وإذاعاتهم. لا يوجد على جبهة الوطن مصادر مماثلة للاعتماد عليها ولكن توجد القابلية الهائلة لتلك الشبكة الضخمة المسماة بصوت الإشاعة، مصدر يأس الطغاة والمشبوهين في المناصب العليا. وقبل حلول المساء بدأت المنظومتان، الخارجية والمحلية، في العمل لصالح المخطوف.

وفي أخبار الساعة السادسة بث على الهواء بيان خاص آخر من مدير مجلس البحوث الوطني:

«في تأديته لواجباته في الحفاظ على أمن وحرية البلاد وجميع المواطنين الملتزمين بالقانون أماط مركز البحوث الوطني لدولة كانجان اللثام عن مؤامرة من قبل عناصر غير وطنية في كانجان، تعمل بالتنسيق مع مغامرين أجانب معينين لزعزعة استقرار حكومة هذه البلاد.

هذه المؤامرة الدنيئة قد دبّرت من قبل السيد «آيكم وأوسودي»، الذي كان حتى وقت قريب رئيسا لتحرير صحيفة الجازيت الوطنية المملوكة للدولة.

وقد كشفت التحريات، التي أجريت من قبل ضباط كبار في «م ب و»، أن السيد أوسودي متورط في هذه المؤامرة من ثلاث نواح:

(١) كان حلقة الوصل الرئيسة بين المتآمرين في كانجان وأعوانهم الأجانب.

(٢) كان المنسق الرئيس بين المتآمرين في باسا وزمرة من الشيوخ الناقمين عديمي الوطنية في مقاطعة أبازون.

(٣) تحت ستار إلقاء محاضرة عامة في جامعة باسا في ٢٦ سبتمبر، أفصح السيد أوسودي بصورة أوضح عن هدف المتآمرين عندما حرض الطلبة على الكراهية للحكومة والتمرد ضدها وضد حياة فخامة الرئيس وأمن وسلامة الدولة.

في الساعات الأولى من صباح اليوم، نفذت مجموعة من ضباط الأمن اعتقال السيد أوسودي في مقر إقامته الرسمية في منطقة المساكن الحكومية في شارع «كنجسواي» رقم ٢٢ وكانوا في طريقهم لنقله في سيارة عسكرية إلى مقر «م ب و»، عندما انتزع سلاحا من أحد مرافقيه. وأثناء الصراع الذي حدث بعد ذلك بين السيد أوسودي وحرّاسه في السيارة المتحركة، تلقى السيد أوسودي رصاصة، وكانت إصابته قاتلة.

قام فخامته بتكليف لجنة تحقيق على مستوى رفيع للبحث في الحادث برئاسة رئيس أركان الجيش الميجور - جنرال أحمد لانجو، مع تعليمات ببدء التحقيقات فورا وإعلامه بالنتيجة خلال أربعة عشر يوما.

في الوقت نفسه تستمر الإجراءات لإماطة اللثام عن كل جوانب المؤامرة، ولتقدم للعدالة أي شخص أو أشخاص، مهما كان

مـركـزهـم، من المتـورطين في هذه المؤامـرة الخـائنة لإراقـة الدمـاء وزرع الفـوضى، ولتـحـويل وجـهـة بـلادنا الحـبـيب والعظيـمـة عن مـسـارها المخـتـار على طريق التـقـدم المنهجي. فليـحـيا فـخـامـة الرئيس! ولتحيا دولة كانجان.

توقيع الكولونيل: جونسون أوساي

مدير مركز البحوث الوطني

انتهى البيان وسيتم إعادته عند الساعة السابعة».

ألقى كـريس ببعض الأغـراض فـي حـقـيبـة سـفـره وهـو مـتـوتـر الأعـصـاب. بينمـا كـان ينتظر وصـول بييـتـرس. بمجـرد وصـولهـا خـرج يحمل الحقيبة، وأغلق البـاب الرئيس وراءه للمـرة الأخيـرة، كما تبين لاحقا.

لم يكن لقـرار المغـادرة في بادئ الأمـر عـلاقـة بخـشـيـتـه على سـلامـتـه، علـى رغم أن هذا العـامل سيظل يلوح بظلاله وينمـو مع مرور كل يوم. الحق يقال إن القـضـيـة التي تسـيطـر على فكره الآن، وتجلت له بكل وضوح بمجرد سـمـاع البيـان من الراديو، هي كيفيـة الرد على تلك الكذبة الخسيسة. ليس غدا بل الآن! فربما سيفوت الأوان غدا.

بمجــرد وصــولـه إلى مكان اخـتــبـائه الأول، اتصل هـاتفــيـا بمراسلين أجنبيين وطلب منهمـا مقـابلتـه عند السـاعـة الثـامنة مسـاء. ثم انتقل إلى الغرفـة الخلفية حيث جهز له سـرير رحلات وطاولة وبدأ في كـتـابة بيـانه. والغـريب في الأمـر أن ذهنه كـان صـافـيا ومـتوقـدا ولم تغب عنه أدق التـفـاصـيل. بعد أن بدأ بعدة دقـائق، خـرج ثانيـة إلى غـرفـة المعيـشـة، حيث كـان مـضـيـفـه مع

بييترس يجريان اتصالات هاتفية، وطلب منهما أن يتيقنا من معرفة الناس أن «آيكم» لم يُصَب فقط، وإنما قُتل. كان متأكدا ان كتبة بيان الحكومة قد تعمدوا اختيار جملة يخطئ الناس في فهم معناها بسهولة، وذلك لغرض امتصاص الصدمة عن طريق اذاعة الخبر كاملا على مراحل. وقد رأت بييترس أن النظرية قليلة البراعة ولكنها لم تناقشها.

عند عودتها إلى بيتها بعد الحادية عشر مساء بقليل، وجدت في انتظارها إليوا التي فشلت في العثور عليها طوال اليوم، وكانت شديدة الاضطراب. وكما قال كريس، فقد أساءت فهم البيان بالكامل! لعدة لحظات قلبت في رأسها فكرة تركها في جهالتها حتى الصباح، ولكنها أيقنت مباشرة أنها إذا فعلت ذلك ولم تخبرها بالحقيقة فليس ذلك بسبب مراعاة لإليوا، ولكن الأكثر احتمالا هو خوفها من التعامل مع تلك المهمة الفظيعة لوحدها. المستقبل الذي تراه يتكشف أمامهما بكل قسوة يتطلب أيضا من الآن فصاعدا التحلي بالشجاعة القاسية، وليس الحساسية، سواء منها أو من أمثال إليوا.

غريبة هي طرق التعبير عن الانفعالات العميقة. فقد أثبتت إليوا أنها أقوى الاثنتين صلابة! أطلقت صرخة حادة استمر صداها يتردد في رأس بييترس مثل صوت رصاصة تطلق لوداع رفيق سقط في الميدان بينما جلست إليوا صامتة وهادئة.

كانت بييترس نفسها هي التي أطلقت العنان لدموع ندية قد حبستها طوال المساء أثناء قيامها بالاتصالات المحمومة في مقر القيادة السري لكريس.

بحلول وقت متأخر من عشية اليوم التالي كان واضحا أن مركز البحوث الوطني للدولة قد شرع في البحث عن كريس. إحدى الخطوات الحكيمة التي اتخذها كريس كانت الطلب من بييترس أن تعود إلى شقتها وتباشر عملها في الصباح كالعادة وأن لا تحاول رؤيته حتى إشعار آخر. قبل انتهاء العمل بقليل طلبت منها سكرتيرتها أن تستقبل مكالمة من مدير مركز البحوث الوطني، فرفعت السماعة ببطء مقصود أعطاها الوقت للتحكم في نبرة صوتها وفي ردة فعلها، عندما تكلمت كانت باردة، ولا مبالية ولكن غير عدائية.

«الكولونيل جونسون أوساي يتحدث معك».

«نعم. هل هناك شيء أستطيع أن أفعله لأجلك أيها الكولونيل؟».

«حسن. نعم... فلدي رسالة مهمة من فخامته إلى سيادة الوزير أوريكو... بحثت عنه في الوزارة عدة مرات ولم يتواجد في مكتبه، وحاولت الاتصال ببيته ولم أجد جوابا. أتساءل إن... إررم إن كنت تعرفين... إررم مكان وجوده، الأمر يخص...».

«كلا. لا أعرفُ».

«فهمت. عذرا...».

«لا عليك أيها الكولونيل، مع السلامة».

في هذا الوقت أجرى كريس - بالإضافة إلى المراسلين الأجانب - اتصالات مفيدة مع بعض المفكرين أصحاب الرأي. وبالذات شجعه لقاؤه مع رئيس اتحاد طلاب جامعة باسا، والذي لأسباب أمنية لم يقابله في مخبئه الحالي وإنما في مكان آخر من

المنطقة السكنية لموظفي الدولة. لكن وكما تبين له، فلم تكن تلك الاحتياطات ضرورية، فقد أثارت قصة قتل رئيس الدولة الواردة في الجازيت سخط اتحاد الطلبة الشديد، مما دفع الطلبة إلى الاستيلاء بصورة مستمرة على أعداد الصحيفة من البائعين في الحرم الجامعي وإحراقها علنا في وسط ميدان الحرية. كما أرسل الاتحاد رسالة غاضبة طويلة إلى رئيس التحرير يطلبون فيها الاعتذار عن الإهانة التي لحقت بهم وبضيفهم المحاضر.

سلمه كريس البيان الذي أعده وراقبه وهو يقرأه... سرعان ما بدأت الورقة ترتعش بين يديه وعندما أعادها إليه وضع إحدى يديه على عينيه. حاول الحديث ولكن كلماته حبست في البداية نتيجة الحركة العنيفة في تفاحة آدم في رقبته.

تمكن أخيرا من الحديث قائلا: «أحتاج إلى نسخة منه. هل يمكنني نسخه وإعادته إليك؟».

«هذه نسختك» قال له كريس وهو يعيده إليه «إذا كنت تريدها».

«أشكرك، يا سيدي. سننسخ منها ألفين في هذه الليلة ليتمكن كل طالب من الحصول على نسخة في بداية صباح الغد. لقد قررت هذه الحكومة الانتحار».

«حسن، أيها الشاب». قال كريس وهو ينهض، مقدما له يده للمصافحة علامة على انتهاء المقابلة «أرجو أن تكون على حق، وأنا شخصيا آمل ذلك، ولكن يجب ألا نعول كثيرا على الشر ليساعدنا بهذه السهولة... أنا سعيد أننا حصلنا على هذه الفرصة للحديث».

«أشكرك يا سيدي. وبإمكانك الاعتماد علينا».

«هذه البلاد هي التي تعتمد عليكم. فخذ حذرك الآن».

آخر زوار كريس في تلك الليلة كان سائقي الأجرة. استغرق الوقت من إليوا طوال الصباح ونصف فترة العشية لتعثر على أحدهما، وترتب لكليهما لقاء مع كريس في المكان نفسه.

في صباح اليوم الثالث قامت محطة «بي بي سي»، التي كانت قد بثت في السابق خبر موت «آيكم»، بإذاعة لقاء أجراه مراسلها مع كريس - الذي وُصف بأنه أحد أعضاء حكومة كانجان، وصديق حميم للشاعر الموهوب والمحبوب «آيكم» أوسودي، الذي أدى إعلان موته أثناء احتجازه من قبل الشرطة إلى دخول الحكومة العسكرية لهذه الدولة المضطربة في غرب أفريقيا في محنة عميقة - وبصوت مشحون بالانفعال ولكنه ثابت دون أن تشوبه الحدة، وصف كريس الرواية الرسمية لموت آيكم بأنها «تزوير واضح». وكيف هو متأكد من ذلك؟ لأن «آيكم» قد أخرج من شقته مغلول اليدين، ولهذا لا يمكنه أن ينتزع سلاحا من سجانيه. إذن أنت تؤكد أنه قد قتل؟. أقول إنه لا توجد ذرة من الشك أن «آيكم أوسودي» قد قتل بوحشية وببرودة دم من قبل رجال الأمن لهذه البلاد.

رُحّل المراسل عن البلاد في اليوم الذي يليه. ولكن اتحاد الطلبة في ذلك الوقت كان قد تبنى القصة، وأخذ يطالب بالتحقيق في الأمر والطرد الفوري للكولونيل أوساي من منصبه، ومقاضاته لارتكابه جريمة قتل.

أرسلت حمولة سيارتين من الشرطة المتحركة للقبض على رئيس وسكرتير اتحاد الطلبة، ولكنهم لم يقوموا بعمل متقن،

حيث مكنهما الطلبة من التسلل. كأن هذا العمل لم يكن خطرا بما يكفي، فقد أخذ طلبة آخرون بالسخرية المهينة منهم، ووصفوهم بالبُلهاء. عادة فان مضايقة قوات الشرطة المتحركة للكانجان هي أسوأ من تحدي كلب جائع من فصيلة الألزاسي. جن جنونهم، ولكن لأسباب لم يستطع أحد شرحها، لم يشهروا أسلحتهم، ربما يكون الاقتحام الدموي المماثل الذي جرى منذ عامين قد ترك آثاره... ربما بسبب هذا الصبر الذي يستغرق دهورا ويكاد يصل إلى حد القداسة، حتى صخرة الغباء يمكن أن تحدث فيها الندوب جراء قطرات الماء المستمرة التي تسقط عليها من السقف! هووا بعصيهم وهراوتهم على ضحاياهم الفارين أمامهم مطاردين إياهم في القاعات، والمكتبة، وبيت العبادة، وعنابر الإقامة. في مقر إقامة الإناث الذي وصل بعض المهاجمين إليه في البداية بمحض الصدفة بفعل المطاردة العمياء، احتشدوا في النهاية جميعا وشرعوا في انتقام مفرط ومخيف، جامعين بين صراع جنسي غارق في القدم وصراع الطبقات المعاصر.

بينما صرخت سيارات الإسعاف فيما بعد لتجميع المصابين ونقلهم للمستشفى، أذيع بيان في الراديو يعلن إغلاق الجامعة إلى أجل غير مسمى، ويأمر كافة الطلبة بمغادرة الحي الجامعي قبل حلول الساعة السادسة من المساء نفسه.

ذهب الممثل السامي البريطاني في باسا إلى مقر وزارة الخارجية للاحتجاج على إبعاد اثنين من البريطانيين، ولكن بدلا من ذلك فقد قدمت له عينة من رسالة قيل أن قوات الأمن عثرت

عليها، ونُصح بالعودة إلى مقر إقامته وانتظار استدعائه من طرف وزارة الخارجية.

الرسالة، وهي مظروف بريد جوي أزرق، كانت معنونة إلى السيد جون كنت وموقعة باسم دك. كتب في الفقرة التي أشير إليها بالخط الأحمر:

«سعدت على الأخص بمقابلة ذلك الشاعر، الذي أظنه رئيسا لتحرير الصحيفة الحكومية اليومية. إنه شخص رائع. ومدهش للغاية على ضوء ما لدينا من أفكار مسبقة عن الديكتاتوريات الأفريقية أن تسنح لنا الفرصة للجلوس وسماع الآراء الخيانية تقال بكل بساطة وكأن يوصف الديكتاتور المحلي بالحماقة والتهريج! وأن يصدر ذلك عن عضو مهم في حكومته. إن ما يحتاجه رئيسا تحرير كل من التايمز والجارديان هو قضاء عطلة في باسا! أما أنا فسأكتب حول الموضوع مقالة قصيرة لصحيفة التلغراف».

لم يعد بإمكان كريس التحرك بحرية من مقر اختباء للآخر بسبب الأعداد الكبيرة من نقاط التفتيش التي أقامها الجيش والشرطة في كافة أنحاء المدينة. بينما كانت بييترس تقود سيارتها أمام بيته المهجور شاهدت سيارة جيب متمركزة في الفناء الأمامي يتحلق حولها عدد من أفراد شرطة قمع المظاهرات. استمرت في طريقها إلى مركز المدينة وتركت سيارتها أمام الكاتدرائية الرومانية الكاثوليكية ثم عادت إلى الشارع وأجرت مكالمة من هاتف عمومي.

أوت إلى سريرها مبكرا في تلك الليلة ولكن النوم جافاها إلا على هيئة ومضات قصيرة متقطعة. في المرة الثالثة أو الرابعة

التي استيقظت فيها خيل إليها أنها سمعت أصواتا آتية من ناحية غرفة النوم الاحتياطية. نهضت من سريرها ومشت على رؤوس أصابعها إلى هناك وأمكنها مباشرة أن ترى من خلال الباب في ذلك الضوء الخافت المنعكس من النور الخارجي إليوا جالسة في سريرها.

«إليوا! لا يمكن أن تستمري على هذا المنوال». قالت وهي تشعل أضواء السقف في نفس الوقت.

كانت بييترس قد قررت أن تهتم بها لعدة أيام وقد قامت بنقل مكتبها بجوار الحائط لتفسح المكان لوضع سرير لها. تحدثت إليها طويلا في ذلك المساء وأعطتها خمسة ملليجرامات من الفاليوم المهدئ، ثم تركتها نائمة قبل أن تأوي إلى فراشها هي الأخرى. ها هي تجلس الآن على سريرها ووجهها عبارة عن مرآة من الخراب. لقد أخافت نظرتها الشاردة بييترس بالفعل فلم تكن تحمل مجرد حزن، بل أكثر من ذلك. يظهر عليها بشكل واضح الآن شيء من الطفلة المرتعبة - الضياع، والارتباك، والذعر.

«لا يمكنك الاستمرار هكذا. وإذا لم يكن لديك نية في إنقاذ نفسك، فعلى الأقل يجب أن تحافظي على هذا الذي تحملينه في بطنك. هل تسمعينني؟ ليس هذا بوقت للبكاء فما حصل قد حصل. الشيء الوحيد الذي يمكننا عمله الآن أن نكون أقوياء، بحيث نستطيع أن نخوض المعركة ونحن مستعدون تماما عندما يحين الوقت لذلك، امسحي عيونك ولا تنزعجي. عمت مساء».

انفجرت إليوا في نوبة بكاء حادة فجلست بييترس بجانبها وأمالت برأسها على صدرها بإحدى يديها وأخذت تربت على

كتفها بالأخرى. وأخيرا، عندما تمكنت من تهدئتها، انتزعت نفسها من حضنها ببطء وأمالتها بلطف على المخدة، ثم اتجهت إلى الحائط لتطفئ الأضواء، وعادت بعدها لتجلس على حافة السرير.

«هل يمكنك النوم بجانبي؟» قالت إليوا بصوت غسلته الدموع. استجابت لها بييترس واستلقت بجانبها على السرير في صمت. وبعد برهة استدارت نحوها ببطء ثم رفعت رأس إليوا ليستكن برفق على انعقاف ذراعها وأخذت تربت من جديد بوتيرة ثابتة علي كتفها. شرع باب الذكريات ورأت نفسها طفلة تربت على دميتها الوحيدة، شكل خشبي بدون يدين وهيكل يابس منتصب يرتدي قناعا على هيئة روح بتول. أخذ صدر إليوا متناسق التكوين يعلو ويهبط في تشنجات كطفل انتهى لتوه من نوبة بكاء. أخيرا ومن سماع تنفسها المنتظم أمكن لبييترس أن تعرف أنها قد أخلدت إلى النوم الذي قطعته أحيانا بدايات لكوابيس مفاجئة، ولكنها لم توقظها لحسن الحظ. حقا فهذه الفتاة المسكينة تحتاج إلى النوم، وسرعان ما غلبها النعاس هي الأخرى.

من وسط أحلامها الغامضة غير المحددة، أحست بأضواء السيارة في البداية، ثم بالصرير الحاد لتوقف الإطارات على الممر المغطى بالحصى. قفزت على قدميها. وأمكنها، من خلال الكوة الزجاجية، رؤية ثلاث سيارات جيب لا يمكن أن تخطئها العين في الليل، لشكل أضوائها الأمامية المتقاربة الذي يعطيها مظهرا شريرا. هرعت إلى غرفة نومها وقلبها يدق بعنف ثم قفزت في بنطال جينز التقطته من الدولاب. وربطت الحزام وبحثت مجددا والتقطت بنطالا آخر. كانت إليوا تقف بجانبها الآن.

«ارتدي هذا بسرعة».

بعد ذلك التقطت اثنين من أثواب الخروج.

عدة طرقات عنيفة على الباب الخارجي.

«الآنسة أوكوه، نحن من أمن الدولة. افتحي فورا!».

ارتدت ثوبها الخارجي، وساعدت إليوا في فعل الشيء نفسه ثم أشارت إليها بيدها ورأسها أن تبقي في الغرفة الاحتياطية.

«يا آنسة أوكوه، هذا آخر إنذار لك. افتحي الباب الآن فنحن من أمن الدولة».

«أنا قادمة».

«أسرعي إذن».

التقطت مجموعة المفاتيح من الخزانة وشرعت في فتح الباب الحديدي. كانت يداها ترتعشان بحيث لم تتمكن من وضع المفتاح في فتحة القفل. فانتزعت منها إليوا المفاتيح وأدارت القفل ثم فتحت الشباك الحديدي الثقيل. أدت حركة إليوا هذه إلى استعادة فورية لهدوء بييترس التي انتزعت منها المفاتيح مجددا هامسة لها «اذهبي إلى الداخل!» ولكن إليوا تجاهلت أوامرها، وأدارت أكرة القفل الموجود في الباب المصنوع من الزجاج والحديد اللامع. فجأة نزع الباب بقوة من قبضتها وانفتح للخارج، ثم اقتحم المكان جندي ضخم الجثة دافعا بالمرأتين بقوة إلى جانبيه الأيمن والأيسر كأنه يؤدي حركة السباحة على الصدر، وقد أدى ذلك بإليوا، وهي الخفيفة كما عود القصب، إلى السقوط أرضا على مؤخرتها.

«على رسلك يا رقيب!» صدرت تلك الجملة عن الضابط الذي دخل هو الآخر بطريقة أقل درامية وتبعه ثلاثة آخرون وظل البقية عند الباب.

«الآنسة أوكوه؟».

«نعم».

«آسف لإزعاجك في هذا الوقت. ولكن لدي تعليمات بتفتيش شقتك. هل يمكنني البدء؟».

«هل تبحثون عن شيء معين؟».

«أي سؤال أحمق هذا؟».

«سأهتم بالحديث أيها الرقيب وعليك التزام الصمت! نعم يا آنسة أوكوه، هناك أشياء معينة نبحث عنها ولكن ليس من عادتنا مناقشة ذلك في البداية. وبالمناسبة أنصح أي شخص موجود في الشقة الآن أن يخرج إلينا فجميع المنافذ محروسة وكل من يحاول الهرب سيطلق عليه الرصاص، هل هذا واضح؟ والآن سنبدأ». ثم بحركات صامتة منه نشر رجاله في اتجاهات مختلفة في الشقة. مثل قائد عسكري يوجه رجاله في الميدان. شرع بعد ذلك يتحرك من قطاع لآخر مشرفا على سير العمليات، كل ذلك وبييترس تتبعه من مكان لآخر عن قرب.

أخذ الرقيب ذو العينين الحمراوين، الذي كلف بتفتيش غرفة بييترس في القيام بعمله بعنف. نزع أغطية السرير ورمي بها على الأرض وأخذ يطؤها بقدميه بهيجان شديد كلما انتقل من قطعة إلى أخرى، وكان من حسن حظ بييترس أنها لم تتعود إغلاق حقائبها أو أي شيء آخر أبدا، ولهذا لم يجد الرقيب فرصة

للتنفيس عن غضبه، وكل ما فعله أنه بعثر الملابس في أرجاء المكان. دخل الضابط وطلب إليه أن يقوم بعمله بهدوء، ثم التقط الملابس بنفسه وألقى بها على السرير. وبينما أدار الضابط ظهره عنه رأت بييترس في عيني الرقيب ومضة تخرج من أعماق الكراهية والاحتقار.

«اسمحي لي بالسؤال يا آنسة أوكوه. من تكون هذه الشابة؟».

«إنها إليوا... صديقتي».

«صديقتك؟ هذا مثير، وماذا تعمل؟»

«ما قصدك؟».

«أقصد هل لديها عمل؟».

«نعم، تعمل بائعة في متجر لبناني».

«هل تقطن معك في العادة؟».

«كلا. إنها في زيارة فقط».

«فهمت».

قلبت إليوا عينيها بينهما وهما يتجادلان حولها مثل بائع ومشتر يزمع شراء حيوان غبي أحضر لتوه إلى السوق.

حلت التطورات الغريبة التي تجري من حولها مكان حزنها بشكل مؤقت. وقد بدت مضحكة وهي ترتدي سروال الجينز والرداء كبير الحجم. لم تمش مع الضابط وبييترس ولكنها اتخذت لها مكانا على كرسي طاولة الأكل في غرفة المعيشة.

نظر لقلق بييترس بسقطتها على الأرض، فقد كانت تسألها عن حالها كلما مرت بغرفة المعيشة، وتجيبها إليوا في كل مرة بأنها على ما يرام. ربما كان الفاليوم الذي تناولته هو الذي يجعلها هادئة.

كان الجندي المكلف في غرفة إليوا يفتش في بعض الكتب والأوراق الموجودة على الطاولة عندما دخل الضابط وبييترس في أثره الغرفة ثانية.

«هل تبحثون عن الكتب أيضا؟».

«نبحث عن أي شيء...». أجابها الضابط نيابة عن الجندي. وكما يقول مثل معروف عند قومي كان أبي يردده دوما: الرجل الذي يفقد حصانا سيبحث عنه في كل الأمكنة، بما فيها السطوح».

بحث لأكثر من ساعة في أرجاء المكان عن حصانه المفقود، ثم اعتذر عن إقلاق بييترس في نومها، وأدى التحية العسكرية ثم غادر المكان. ما هذه الأحجية؟ هل يمكن بالفعل وجود شاب دمث الخلق هكذا في قوات الأمن أو في شرطة وجيش كانجان بأكمله؟ أم كان ذلك هو قمة الشيطنة - أيكون وجه مفيستوفيلس (أحد الشياطين السبعة) في ثوب الناسك، مقلدا حركاته؟ من الأفضل أن تتوقع الأسوأ.

الجزء الرابع عشر

بينما كانت ترتدي ملابس العمل والنعاس يغالبها، رن جرس الهاتف الموضوع بجانب سريرها. انتفضت والتقطت السماعة بعد الرنة الثانية لتسمع صوتا يقول: «الآنسة أوكوه؟».

«نعم، من المتكلم؟» كان قلبها ينبض بقوة وسماعة الهاتف غير مستقرة في يدها تتحرك للأعلى والأسفل على أذنها. صمت في الجهة الأخرى، فهل ذهب يا ترى؟... ثم: «ليس مهما من أكون. أعرف أين يتواجد الحصان، ولكن لا أريد العثور عليه. أبلغيه بالتحرك من مكانه قبل الليلة». ثم أغلق سماعة الهاتف.

أم أنه قد أسكت؟ وقفت ثابتة كالحجر والسماعة في يدها لا تزال تهتز بجانب أذنها، مؤملة عودة الصوت؟ ترى هل التقطت مكالمتها؟ أعادت السماعة ببطء وسقطت على سريرها المهمل بإعياء ثقيل.

أجعله يتحرك من مكانه؟ هل هو فخ؟ لإغرائه بالتحرك في شوارع مملوءة بالجنود؟ من يكون هذا الشخص بالضبط؟ هل من المعقول أن يكون صادقا؟ من بحق الآلهة يمكنها أن تسأل؟ وبدأت دموع الشعور بالوحدة تتجمع في عينيها. نهضت من مكانها، مسحت عينيها، ونفضت أنفها ثم تسللت على رؤوس أصابعها إلي غرفة إليوا. كانت ترقد في روعة طفل، لاهية ربما في حلم لم تسمع فيه الأخبار السيئة بعد. أو أن ما حدث هنا لم يحدث في الحلم بعد. تسللت إلى

الخارج مرة أخرى تاركة إياها تختطف ما تستطيعه من القوة من أحلامها التي تنقذها مؤقتا فقط. أخذت حقيبة يدها وذهبت بمفردها للبحث عن هاتف آمن.

في مكتبها، فيما بعد، أمضت نهارا قلقا متسائلة إذا كان عدد الحوادث الممكن حدوثها للنقلة الواحدة قد حدثت بالفعل، وأي منها الذي نُفّذ. لا يلزم إلا واحدة فقط... أسوأ شيء هو الجلوس في هذا المكان دون حراك وتوقيع تلك الرسائل السخيفة، وعدم معرفة ما الذي يجري مثل ما يقولونه عن طلقات الرصاص، إذن هل يجب عليها أن تجازف وتقوم بمكالمة سريعة من مكتب آخر فقط لتعرف، حتى دون التفوه بكلمة واحدة، ما إذا كان مضيفه الذي أصبح في العمل عندما بثت هي الرسالة، قد وصلته وسيعود لترتيب النقل. مرة أخرى هل كان ذلك الضابط صادقا؟ هل يمكن وجود شخص حقيقي في هذه المياه التي تعج بأسماك القرش؟ وما هي لعبته إذن؟ أوه يا إلهي! ولكن لم لا تتسلل إلى أحد تلك المكاتب الموجودة على طول الممر وتطلب الرقم لترى من سيرد على الهاتف؟ ولكن سيجن كريس بسبب ذلك، لقد كان مصرا لأبعد الحدود على عدم قيامها بذلك... وإذا قامت بطلب الرقم ولم تتحدث، فبإمكان ذلك أن يحدث ذعرا على الجانب الآخر ومن ثم قد يقوده إلى اتخاذ إجراء خاطئ... أووه، يا إلهي! تركت مكتبها في تمام الثالثة والنصف كما طائر قد أطلق لتوه من القفص، أصر كريس ألا تترك مكتبها قبل موعد انتهاء

العمل، لأن تحركاتها ستلفت إليها الأنظار حسب قوله، اللعنة على دقته! لم تتجه إلى البيت مباشرة ولكنها تظاهرت بالذهاب للتسوق، واتجهت من مكان وقوف السيارات المزدحم بالناس إلى مكان آخر غير المتاجر.

عندما عادت إلى الموقف ظهرت على مشيتها حيوية ظاهرة أفصحت عن كل أخبارها. قررت أن تُكرم نفسها بقنينة عطر بلو جراس، فاتجهت صوب المتاجر وبدلا من قنينة وحادة اشترت اثنتين، الأخرى لإليوا، ثم اشترت رغيف خبز وبعض الاحتياجات الأخرى واتجهت إلى بيتها بمرح. عند الموقف وضعت مشترياتها على السيارة وفتحت حقيبة يدها لتخرج المفاتيح. بحثت في جيب ثم الآخر. بدأ قلبها المضطرب بالخفقان بقوة. قالت لنفسها أن تبقى هادئة وأن تأخذ نفسا عميقا ثم تبحث في حقيبة يدها بدقة. فعلت ذلك، وذهبت إلى حد إفراغ محتويات حقيبتها على مقدمة السيارة، لكن الحزمة الصغيرة لم تكن هناك. هرعت بسرعة تقارب الجري مسافة المائة ياردة إلى الهاتف العمومي. حيث كان هناك رجل يجري مكالمة. طرقت الباب الزجاجي وحاولت فتحه فقطع الرجل حديثه ليحتج.

«آسفة، ولكنني أبحث عن مفاتيح سيارتي».

«لا توجد مفاتيح سيارة هنا». قال وهو يجذب الباب من يدها ليغلقه بإحكام ثم يواصل حديثه بعد أن أطلق فحيحا أطول مما يصدره الرجال في العادة. رجعت إلى سيارتها وهي مكتئبة بعد أن عاودت تتبّع خطواتها بيأس متزايد في

أماكن توقفها داخل المحلات التجارية المختلفة ونقاط دفع النقود حيث كانت قد أخرجت محفظتها من حقيبة يدها وقامت بالدفع. الجميع، وبخاصة بائعات العطور، تذكروها، ولكن لم يتذكر أحد حزمة مفاتيحها.

أحست بكم هائل من التعب. تغير أسلوب اضطهاد الشمس المعهود فجأة إلى إجراء انتقامي خاص ضدها، للثأر منها، ربما لما أظهرته للتو من طاقة عصبية بدلا من الاستكانة المطلوبة من الأعلى. بضبابية وما يشبه الحركة البطيئة، شاهدت حولها المئات من الأكثر حكمة منها في موقف السيارات، ممن أذعنوا فعاشوا في نعيم.

استدارت دون سبب ونظرت داخل السيارة فوقعت عينيها على المفاتيح تتدلى من قفل الاشعال، فاستخفها الطرب! بإمكانها الآن العودة إلى البيت، وحتى إذا لم تعثر على مفاتيحها الاحتياطية - وقد أصبحت الفكرة مصدر خوف رئيس منذ بدأت تأخذ الاستراتيجيات بعين الاعتبار - فبإمكانها إحضار ميكانيكي، بل وحتى لص سيارات، ليفتح لها قفل باب السيارة عنوة أو يكسر الزجاج لتتمكن من السير بها.

غادرت المكان وهي تبتسم للبحث عن سيارة أجرة. هل مصدر سعادتها عثورها على المفاتيح أم شيء أعمق من ذلك؟ هل هي ردة فعل للأزمة التي تجد نفسها متورطة فيها مع أصدقائها؟ مهما كان الأمر، فقد تبادلت حديثا مع سائق الأجرة وسرعان ما علمت أشياء لم تعلمها من قبل حول موت «آيكم»، وعن وزير الإعلام المختفي، وعن الاجتماع المزمع

عقده غدا لاتحاد سائقي سيارات الأجرة لكي يدلوا برأيهم حول تلك القصة السخيفة المتعلقة بموت «آيكم».

«إذا كان لديك مكان تودين الذهاب إليه، فافعلي ذلك اليوم فلن تعثري على سيارة غدا».

ما أن وصلت إلى شقتها حتى كانت الألفة التي نمت بينها وبين السائق قد أصبحت من المتانة بحيث أنه لم يتذمر مطلقا عندما استغرقت وقتا طويلا في العثور على مفاتيحها الاحتياطية. وقد وضع زجاجة البيرة التي قدمتها له لتمضية الوقت في جيب السيارة ليتناولها في وقت راحته ووعدها بإحضار الزجاجة الفارغة غدا وهو في طريقه لحضور الاجتماع.

«لا تشغل بالك بهذا الأمر». قالت له بييترس.

«ولماذا لا أشغل بالي؟ سأكون عندئذ مثل القرد الذي يتحدثون عنه: أن تعطيه الماء فلا مشكلة في ذلك ولكن أن تسترد منه إناء الشرب فتلك هي المشكلة!».

انطلقت بييترس في الضحك وهي تركب السيارة في رحلة العودة إلى موقف السيارات، وحتى الذي أطلق الدعابة اضطر للضحك عليها.

جرت الإغارة على مقر اختباء كريس الأخير حسب ما قطع لها من وعد عند منتصف الليل. كانت بييترس قد استعدت للخروج مبكرا، ولكنها اضطرت لانتظار حركة السير الملائمة في الشوارع قبل أن تغامر بالخروج وتجري مكالمتها له. وقد كانت المحادثة مختصرة وبدون تفاصيل أو ذكر أسماء.

«هل من زوار؟».

«نعم، أتوا في الثانية عشرة».

«هل توجد مشاكل؟».

«لا، حتى الآن».

«حتى الآن؟».

«حسن، لا شيء في الحقيقة. لا شيء البتة».

«شكرا لله».

صوت إغلاق السماعة!

دخلت شقتها بكل هدوء من خلال باب المطبخ - كما تفعل أحياناً. كانت إليوا تجلس إلى الطاولة تغمس كسر الخبز في كوب من «الأوفالتين»، بينما وقفت أجاثا تراقبها متكئة على مدخل الباب بين المطبخ وغرفة الأكل.

«لماذا تقومين بمراقبتها، وأي نوع من الإفطار هذا؟ بدون بيض... أو زبدة...».

«ولكنها لم تطلب مني بيضا أو زبدة».

«لم تطلب منك؟».

«لا تقلقي بشأني يا بي بي، فهذا يكفيني».

«أنت فتاة غبية يا أجاثا، وشريرة أيضا... اغربي عن وجهي!».

شقت طريقها إلى المطبخ مروراً بأجاثا، كسرت ثلاث بيضات وخفقتها لتصنع منها أومليت، وبينما وضعتها فوق الموقد لتنضج، أخرجت بقية لوازم الإفطار من الثلاجة ووضعتها على الطاولة... مارجرين، عسل، مربى، عصير

برتقـال، وحليب. ثم جلسـت وأصـرت أن تأكل إليـوا البـيض وتشرب عصير البرتقال. لقد وقفت على خدمتها فعليا، ليس فـقط لأن حـزنهـا يؤهلهـا لذلك ولكن لأنهـا أرادت أن تكون خدمتها لإليوا توبيخـا لأجاثا التي ظلت واقفة لا تحاول إخفاء تبرمها من خدمة امـرأة تشعر إزاءها فـي وضوح تام، - ظهـر اعـتراضهـا واضحـا على وجهها، ومن الطريقـة التي تزم بها شفتيها - بأنها ليست أفضل من خادمة.

بعد انحسـار موجـة الغضب الأولى وجدت بيـيـترس نفسـهـا تشـعـر للمـرة الأولى تجـاه هذه الفـتـاة المسكينة، الجـافـة، المنافـقة، غـريبـة الأطوار بمشـاعـر لم تفكر من قبـل بمنحـهـا إياها ... الشفـقة. نعم، فكرت أن أجاثا تستحق الشـفـقة، هذه الفـتـاة التـي رقصت وهذت بفكرة الخـلاص، كل يوم سـبت من الفـجر وحتى الغـروب، والتي قـامت بتوزيع المنشورات المتعلقـة بذلك (تسللت مـرة إلى حـيث يوجـد كـريس بمـجـرد خـروج بيـيـتـرس وسلمت له إحـداهـا). نعم، أجـاثا هذه التـي كـانت تتـعـامل بحـرية مع تلك الـدعـايات التي تقـطر بفكرة إنقـاذ دم المسيح، ومع ذلك، لا يوجـد لديهـا قطرة واحـدة من الإحـسـان في دمها الذي يفتقر إلى الحيوية.

بينمـا هي تشـرب قـوتهـا وتمضـع لقـيـمـات من الخـبـز والأومليت لمجـرد إبقـاء صـحبـة لإليوا والتـأكد من تغـذيتـهـا التـي هي بحـاجـة إليـهـا، تسـاءلت لماذا تصـر أجـاثا، علـى التصرف بهذه الوحشية تجاه الفتاة، كون المرء يعمل خادما، فليس ذلك بالأمـر المـمـتع وبيـيـتـرس تعـرف ذلك ولم تقـلل

إطلاقا من شأن هذه القضية، أو أن تحقر، بوعي منها ،أي امرأة لمجرد كونها خادمة وأن تدعو الله ليشملها برعايته. لقد كانت من الحساسية والذكاء لتعي هذا الأمر جيدا، ولم يعمل تحصيلها الثقافي إلا على صقل إدراكها للحقائق الموجودة أمامها: ففي عملية سحب القرعة المضحكة حيث توزع أقدار البشر في المجتمعات الأفريقية لفترة ما بعد الاستقلال، حينما يبدأ شخصان في الصباح حياتهما - حتى ولو كانا توأمين متطابقين - ثم بكل بساطة يجدان نفسيهما في المساء وقد أصبح أحدهما رئيسا للبلاد يرمي بفضلاته على رؤوس العباد، والثاني مثل خادم الليل يحمل فضلات الناس في دلاء فوق رأسه. ولهذا كيف يمكن لفتاة ذكية وعطوفة مثل بييترس تدرك كل تلك الحقائق. كيف لها أن تحتقر فتاة أخرى أقل حظا منها، وأن لا ترى في المسألة إلا مجرد حظ أعمى؟

ولكن للمسألة جوانب أكثر من ذلك. لا بد من أن أنظر إلى إليوا؛ ألا تتساوى مع أجاثا في كونها غير محظوظة في حفل توزيع اليانصيب النزوي؟ فهي نصف أمية، وبائعة في متجر يملكه تاجر هندي، وتقطن مع أمها البائعة المتجولة في غرفة واحدة في عمق أحياء باسا الفقيرة. لماذا لم يطلّها الفساد؟ لماذا تشع دفئا وجاذبية وثقة واحتراما للنفس؟ لماذا بدا أمرا طبيعيا أن تسكنها الغرفة الاحتياطية وليس في الركن المخصص للخدم مثل أجاثا؟ صحيح أنها فتاة «آيكم»، ولكن هل ذلك كل شيء؟ وكيف اختارها «آيكم» في البداية لتكون

فتاته من بين الملايين من سيئات الحظ مثيلاتها؟ هناك شيء ما فيها، لم يفلح حتى حظها السيئ في انتزاعه منها. إنه الشيء الذي جذب «آيكم». وهو الشيء الذي يميزها.

«آيكم»! نعم «آيكم»، المثير،المغيظ،الحبوب! لقد تورط في عمق هذه الأحداث الغريبة ولم يكن له إلا أن يفعل ذلك. تذكرت زيارته الأخيرة لها في شقتها هذه. رغم أنها رأته مرتين بعدها إلا أن آخر مرة رأته فيها كانت في منزل كريس عندما شاهدوا سوية أخبار إيقافه عن العمل. لقد عمل كل من موته وذكرى زيارته الأخيرة لها هنا في شقتها على الهيمنة على إحساسها به، وألقى بكل الذكريات القديمة واللاحقة في الظل.

ربما كان الإشعاع الروحي القوي لهذه الأحاسيس المنبثقة هو الذي منح إليوا - التي تبين أنها تحمل أثرا حيا من «آيكم» في جوفها - ذلك النور الجديد الذي تبثه حولها، والذي لم يكن مجرد انعكاس لحزن معتاد قد تجده في أي وقت وفي أي مكان في كانجان، ولكنه لمسة مميزة تكاد تكون ربانية قادرة على تحويل فتاة نصف أمية، وإن تكن جذابة وذات طبيعة سمحة، إلى شيء يستحق التبجيل والتوقير. لكن الأولى بالملاحظة هو الشكل الذي توجد عليه أحاسيسها الآن، انحسر تيار غضبها على أجاثا المزدراة التي وضعت نفسها، بقصد حتى هذه اللحظة، خارج مساحة عطف بييترس بتصرفاتها الجافة كما الغبار، وتظاهرها بالتقوى في لقاءات البعث الجدي الدينية، مصطدمة بها من بين كل

الناس، طابعة في ذهنها صورة جديدة لها، وفي الخلفية صوت الراوي معلنا في موعظته: الأمر متروك لكن أيتها النساء لتخبرننا ماذا يجب أن يتم، وبالطبع فما أجاثا إلا واحدة منكن.

هل تعرفون شيئا؟ ربما يمكن القول إن أجاثا، مقارنة بمثيلاتها، بالغة الوضوح والغرور وانعدام اللطف والتذمر، وبرفضها العنيد لمحاولات استرضائها قد تكون تؤدي خدمة للقضية أثمن مما تبديه إليوا من قبل. أثمن لأنها تحافظ على بقاء ذكرى الاضطهاد جاهزة ومصقولة على الدوام. ما رأيكم في ذلك؟

كان من عادة أجاثا البكاء لساعات إن أبدت لها بييترس أي إشارة تذمر، وكان من عادة بييترس أن تتجاهلها تماما. أما اليوم، فبعد أن وضعت الأطباق المستعملة في حوض الغسيل، التفتت بييترس إلى حيث تجلس أجاثا على طاولة المطبخ، دافنة وجهها بين راحتيها، ووضعت يدها على كتفها الذي كان يعلو ويهبط. رفعت أجاثا رأسها فورا وأخذت تحدق في سيدتها غير مصدقة.

«أعتذر منك يا أجاثا».

في البداية تحول عدم التصديق إلى صدمة، ثم ترك مكانه لابتسامات مشرقة من عينيها النديتين. تحولت نبرة الصوت إلى نبرة متساهلة وغير متحفظة. مكالمتان في يوم واحد! كانت مكالمة الصباح مخصصة لمنحها العلامة القصوى على تحريكها للحصان، لكن، إذا كان الحصان لا يزال مقيما

في باسا، يتم التأكيد عليها أن المدينة ليست محيطا آمنا له، ولذلك من الأفضل أن تفكر في العدو به سريعا خارجها.

«لست أنا من يجب أن تقلقي بشأنه، يمكنني أن أعدك بألا أعثر على أي حصان أبدا. إنما الآخرون ... فهم أكثر كفاءة مني في العثور على الأحصنة».

كان ارتباك بييترس كاملا في نهاية هذا الخليط العجيب من الجمل المميتة التي لا تخلو من نزوة. وجدت نفسها تنطق بالكلمات «هل أنت صادق؟» وقد كان لوقع هذه الكلمات على أذنها نفس وقع المحادثة الغريبة التي كانت سببا في السؤال. لم يعط جوابا... ربما كان في طريقه لغلق سماعة الهاتف ولم يسمع سؤالها، أو ربما قد سمعه ولم يشأ أن يضع نفسه في موقع الضعيف الذي يتعرض للمساءلة، إذا كان الأمر كذلك فلا بأس، لا يجب على المرء أن يتفحص فم الحصان المُهدى إليه، فالرجل لم يكن مخبرا خاصا قد استأجرته، وعليه فقد كان يمارس حقوقه بوضعه شروطا نظير مساعدته التطوعية.

هل قالت مساعدة؟ إذن فهي تفترض الآن أنه في صفها، وتقبل ذلك كأمر مسلم به. عليك بالحذر فلا يزال الوقت مبكرا يا بييترس. حذار. كيف يعبر قومها عن مثل تلك الحالة؟» ... «لا تستخف بالنهار الذي لا تزال منه ساعة قبل موعد حلول الظلام».

اتصل ثانية في المساء ليجيب عن السؤال.

«سألتني إن كنت صادقا؟ إذا كنت تعنين بذلك سؤالي عن ركوبي للخيول أو ممارسة لعبة البولو، فالإجابة هي لا

مشددة. ولكن إن كنت تودين معرفة هل أحب الخيول، فنعم. أنا مغرم بالخيول».

صوت إغلاق السماعة!

إذن فقد سمع السؤال. وكان فقط في حاجة إلى الوقت، نهار بأكمله، للخروج بإجابة ذكية. لا بأس، ففي الحقيقة لا يمكنها التذمر... على رغم أنها يجب أن تعترف بأنها منزعجة بعض الشيء من نبرة اللعب التي بدأت تتسلل إلى أسلوب حديثه. لكن مرة أخرى، لم لا؟ لماذا يجب أن يُقيّم هذا المحسن غير التقليدي وفقا لرصانتها وحس الجدية لديها؟ هل نسيت أنه على رغم كونه لطيفا معها في موقف ما إلا أنه لا يزال جلادا رسميا؟ وما الذي سيكون أكثر عفوية من رجل في مثل مهنته ليملك حس دعابة غير اعتيادي؟ في الحقيقة ما هي إلا دعابة المقصلة!

شيئان إضافيان حدثا ذلك اليوم عمّقا إحساس بييترس بالقلق. فقد خرجت الجازيت الوطنية في ذلك اليوم بقصة غريبة: «تقول بعض التقارير غير الرسمية أن كريستوفر أوريكو، وزير الإعلام الذي لم يشاهد في مكتبه أو في محل إقامته خلال الأسبوع الماضي، قد غادر البلاد على متن طائرة لخطوط أجنبية متجهة إلى لندن، وكان متخفيا في زي رجل دين يرتدي لحية مستعارة».

ما الذي ينوونه الآن؟ أهي ستارة دخان يأملون من وراءها تصفية ضحيتهم الثانية بطريقة أكثر تنظيما من الأولى؟

عند السادسة مساء أصدرت الشرطة بلاغا تعلن فيه أن السيد كريستوفر أوريكو، وزير الإعلام مطلوب من الجهات الأمنية لعلاقته بالمحاولة الانقلابية الأخيرة، وتطالب كل من لديه معلومات حول مكان تواجده الاتصال بأقرب مركز للشرطة، وحذرت المواطنين من أن إخفاء أي معلومات عن أي مشارك في الانقلاب هو بنفس خطورة الامتناع عن الإبلاغ عن محاولة الانقلاب أو المشاركة فيها، وأن عقوبة كل منهما الموت.

لم يشكل البلاغ مفاجأة تامة لبييترس، ولكن المفاجأة هي أن تسمع تلك الاتهامات السخيفة تذاع وقد امتلأت خلفية الشاشة بصورة شخصية غير جذابة لكريس، يعلم الله وحده من أين أتوا بها، وفيها يحملق كريس نحوك من الشاشة، مما يجعل البرودة تسري في دورتك الدموية حتى من غير لسعة الموت المشؤومة في النهاية.

بعد سماعها للإعلان جلست مع إليوا في صمت مثقل بالتدبر. كانت أجاثا التي يبدو أنها أنصتت للخبر من المطبخ قد جاءت واتكأت على المدخل في صمت. ثم رن الهاتف كما عند اشارة معينة ليكسر الصمت الدراماتيكي، انتصبت إليوا في جلستها ورفعت رأسها عاليا كما يفعل أيل يشتمّ خطرا فتنتصب أذناه في انتظار الحفيف الذي يؤكد ذلك. لكنها لم تسمع أي صوت خفي أو تشاهد أي حركة خاطفة ولهذا استرخت في جلستها من جديد. ملامح بييترس نبرتها وكلماتها الهادئة مع الطرف الآخر بددت جو الرهبة الذي

صاحب المكالمات الهاتفية في المدة الأخيرة. كانت المكالمة بالفعل عن البيان الصادر، ولكن مهما يكن الشخص الذي على الطرف الآخر من الخط فمن الواضح أنه كان يبدي اهتماما صادقا. وعندما أعادت السماعة كانت أجاثا وإليوا تتبادلان نقاشا هادئا حول الموضوع.

«لا تشغلي بالك كثيرا يا سيدتي». قالت أجاثا «لو بحثوا عنه من هنا وحتى أريحا في فلسطين فلن يعثروا له على أثر، بعون الله».

«آمين!» ردت عليها أجاثا «هذا ما نقوله».

الجزء الخامس عشر

في هذا الوقت كان كريس يحيك خطة لنشاط محموم بقدر ما يتيحه له مخبأه المحدود. لو كان بإمكان بييترس أن تتصل به مباشرة في تلك الأيام القليلة التي شهدت تحوله السريع إلى طريدة ثمينة، فربما كانت ستتعلم أن تصبح أقل اندهاشا من التصرفات الغريبة لصياده. لأنه حتى في هروبه العجول، فقد أبقى كريس لنفسه مجالا لتصعيد دراما المطاردة. تلك الرفاهية الظاهرية لم تجعل من مخبئه الضيق مكانا أكثر إمتاعا فقط، ولكن ذهبت به الحال بعيدا لأن يتوهم أنه قد تحول إلى صياد بدلا من طريدة، وأنه قد أصبح هو العنكبوت الذي يسيطر على شبكة معقدة من الشراك، وليس الذبابة المنحوسة التي تطير في مجال ما تظنه حرا، لكنه في الوقت ذاته يزداد ضيقا بشكل لا يدرك بالحس إلى أن يقع الارتطام المميت بالشرك. هل يعد ذلك جانبا ضروريا في سيكولوجية المطاردة الحامية حتى إلى درجة خداع الغاية منها، من دون ذكر مأزق الطريدة في اتخاذه المظهر الليبرالي لممارسة الرياضة واللعب المتكافئ؟

اعتمدت شبكة كريس على معونة الأصدقاء الذين قاموا بإيوائه في الغرف الاحتياطية، وفي أماكن إقامة الخدم، بل وفي حالة معينة مثقلة بالدراما أدخلوه من خلال إحدى ألواح السقف غير محكمة الربط وأبقوه في ذلك المكان المظلم الساخن. لعبة «الغميضة» هذه أعطت كل من له علاقة بالأمر شعورا تآمريا لطيفا بأنهم جزء من عمل يعترفون بأنه على قدر كبير من

الخطورة، لكنه أقل من أن يسبب إزعاجا للدولة بشكل مؤثر. على أي حال، فبعد بيان الشرطة الذي يؤكد عقوبة الموت لكل شيء ويشمل ذلك هذا النوع من اللعب، تبادل كريس ومضيفه الحالي حديثا جادا حول إمكان أن يتملك الخوف شخصا أو آخر من الذين شاركوا في هذا الأمر حتى الآن، فيقومون سرا بالإبلاغ عنه طمعا في النجاة بأنفسهم. لذلك أصبحت مسألة مغادرته باسا أمرا ملحا للغاية. لكنها ستكون عملية شائكة ولا توجد أي فرصة للقيام بها في خطوة واحدة بالنظر إلى قصر الوقت المتبقي له. ولهذا فقد تقرر أن يقوم هو ومرافقه الرئيسي إيمانويل بخطوة أولية للخروج من منطقة السكن الحكومية والتوجه إلى المنطقة الشعبية في شمال باسا برفقة ورعاية سائق الأجرة برايموه.

كان إيمانويل أوبيتي وهو رئيس اتحاد الطلبة الذي قام ذات عشية، بعد زيارتين لكريس، بإحضار حقيبته وببساطة قرر البقاء.

«لماذا أتيت إلي؟» وجه كريس إليه هذا السؤال، ليس في اليوم الأول ولا في اليوم الثاني ولكن في اليوم الثالث بينما كانا يتناولان إفطارا سريعا من عجين الذرة ونبتة موز الجنة.

«من أجل الحماية»، رد إيمانويل الذي بدأ يكشف عن جانب في نفسه يتسم بالهزل. تبادل كريس مع مضيفه النظرات وضحكا.

«هل لدى قومك مثل عن رجل يبحث عن شيء في حقيبة رجل يبحث بدوره عن شيء؟»

ضحك إيمانويل بدوره قائلا إنه ليس لديهم مثل هذا المثل، ولكن انتظر... لديهم شيء مشابه، حول عزق حفرة جديدة من أجل الحصول على تراب لردم حفرة سابقة.

«هذا الفتى شيء مختلف». قال كريس لصديقه، ولم يزعج الشاب بعد ذلك بسؤاله عن أسباب وجوده معه.

كان إيمانويل بدوره هاربا مطلوبا من الشرطة، ولكن بالنظر إلى أن أهميته تعتبر بدرجة متوسطة حسب تقديرات شرطة كانجان، فلم يعامل بطريقة معاملة الأشخاص المهمين ذاتها، ولم تنشر له صورة ارتجالية في التلفزيون. فظهور عضو مشاغب من اتحاد الطلبة ليس بالأمر الجديد لشرطة كانجان، وهم ليسوا بصدد إعطاء أهمية للأمر أكثر مما يستحقه.

«الآن سأخبرك عن السبب الحقيقي لالتحاقي بك». قال إيمانويل في وقت متأخر من ذلك اليوم. فرد كريس: «السبب الذي أبديته هذا الصباح يبدو كافيا بالنسبة لي، ولكن ما أسبابك هذه المرة؟»

«حسنا، لأن رجال الشرطة أغبياء لدرجة أنهم سيبحثون عني في كل الأمكنة عدا المكان الذي تتواجد فيه أنت».

«ها أنت مرة أخرى تبخس رجال أمن الدولة قدرهم، وهذا خطير جدا كما تعرف. من الأفضل أن تقدر عدوك أكثر مما يجب عن أن تبخسه قدره. خذ مثلا قصة تعرض «آيكم» إلى إطلاقة الرصاصة المميتة، فكل من يأت بمثل هذه القصة لا يمكن أن يكون غبيا بالكامل».

«لا أعتقد أنهم فكروا في القصة يا سيدي. لقد وردت بمحض الصدفة».

لا يعادل رأي إيمانويل في غباء الشرطة والجيش إلا تقديره المحزن لصحافيي كانجان. في الحقيقة فهو يعطي أفضلية لرجال

الأمن عليهم. ومن حسن حظه أن قصة هروب كريس إلى لندن، التي تمكن من تسريبها إلى الجازيت الوطنية، قد جاءت كمثال لا يرد على صحة رأيه. كان قد ضحك هو وكريس مع مضيفهما طويلا عند إذاعة تلك الأخبار، مما اضطر كريس للاعتراف - خجلا بصفته محررا سابقا للصحيفة - أن هذه الرواية قد وضعت مهنة الصحافة في كانجان في وضع حرج للغاية.

«طبعا ما كان ذلك ليحدث لو كان «آيكم» أو أنت في رئاسة التحرير». نطقها إيمانويل بنبرة لا تخلو من غموض مشاغب.

«أشكرك يا إيمانول، فهذه شهامة منك».

«كلا، فأنا أعني كل كلمة تفوهت بها يا سيدي». ويبدو أنه كان جادا هذه المرة.

لكن كريس وجد بعض الصعوبة في إبعاد المسألة عن تفكيره، فبعد وقت طويل من انقضاء جو المرح، الذي سببه نجاح إيمانويل الباهر، كان لا يزال يردد في نفسه: «مكالمة هاتفية واحدة! من ضابط كبير في الجمارك لم يشأ أن يفصح عن نفسه لأسباب معروفة! شيء لا يصدق!».

لم تكن ملابس كريس التي ارتداها للتخفي خلال تنقله الأول بالغرابة نفسها التي كانت عليها ملابس القسس التي استعملها إيمانويل. فقد ارتدى ملابس برايموه اليومية ومعها طاقية مماثلة، ثم وضع بضع لطخات سوداء على وجهه ورقبته وذراعيه لتغيير سحنته المشعة أكثر من اللازم مقارنة بملابسه الجديدة، ومع ما يتظاهر القيام به من مناداة على بضاعته كبائع لقطع غيار الدراجات النارية. العناية بتطويل لحيته طوال أسبوع كامل تحسبا

اعتبرت نجاحا متواضعا، خصوصا عندما اقترح مضيفه وهو نصف جاد بأن لحية الأب المبجل في رواية ايمانويل الناجحة، ربما تكون قد جعلت البوليس يركزون اهتمامهم على ذقون الناس في الأيام القادمة.

عند حضور برايموه لاصطحاب كريس في تلك الرحلة الحرجة إلى شمال باسا، كان معه راكبان يجلسان في الكرسي الخلفي لسيارته العتيقة. كان في تقديره أن عليه اجتياز ثمانية أو تسعة حواجز طرق. ألقى كريس التحية على الغريبين في الخلف وجلس في الكرسي الأمامي بجانب السائق. وقبل شروع برايموه في الحركة مد يده إلى الخزانة الأمامية غير المرتبة وأخرج ثلاثا من ثمار الكولا وقدمها لكريس.

«لتأكلها خلال الطريق، كل من يراك سيظن أنك لم تتناول إفطارا».

انخرط الرجلان في المقعد الخلفي في ضحكة طويلة، ولأنه لا يعرف إذا كان من طبيعة هؤلاء الناس الضحك بهذه الطريقة أو أنهما يخفيان وراءها معنى ماكرا، فقد ألقى صوب برايموه نظرة متسائلة، حتى وهو يمد يده لتقبل الهدية.

«هذان الاثنان معنا فلا تقلق».

تسلم كريس ثمار الكولا التي قدمت له وشكر برايموه، ثم قدم إحداها للجالسين في الخلف، وكأنه يقصد تهدئتهما، ووضع اثنتين في جيبه. قال في نفسه بعد أن رأى المكان الذي استخرجت منه أنه يلزم غسلهما قبل أن يتمكن من أكلهما.

كان إيمانويل قد غادر مسرعا مطلقا وداعا خاطفا، واختفى مرة أخرى خلف البيت الرئيس المؤدي إلى مقر إقامة الخدم. كان

الاتفاق قد تم على نقله بصورة منفصلة ليلحق بكريس فيما بعد.

عبروا الحواجز الثلاثة الأولى بدون مشاكل تذكر. وبدا على رجال الشرطة والجنود التعب وكانوا يشيرون للسيارات بالمرور بغير اهتمام. كان كريس على ثقة بأن قصة إيمانويل، التي نشرت في الجازيت، هي المسؤولة عن هذا التراخي لدى رجال الأمن.

هذا الفتى إيمانويل شيء مختلف! لماذا لم نستفد من مثل هؤلاء الشباب من قبل؟ وإذا لم يكن هناك بد من قول الحقيقة! لماذا لم نعرف حتى بوجودهم؟ نحن، من هم نحن؟ الثلاثي الذي اعتقد أنه يملك كانجان، كما قالت بي بي بفظاظة ذات يوم؟ ثلاث زجاجات خضر، سقطت إحداها بالصدفة، والأخرى تتأرجح، ستسقط، ستسقط، فسقطت! ثم تتحول نحن إلى أنا، ثم تتحول أنا إلى نحن الفخمة.

أخذ مرور السيارات في التباطؤ عند انحراف الطريق قبل جسر «ثري كراوري» مباشرة. لا بد أنه حاجز آخر. كم هم أغبياء رجال الشرطة هؤلاء، يختارون الطرق المؤدية إلى الجسر لتتعطل حركة المرور! أخيرا تمكن برايموه من اجتياز الزاوية ليجد نفسه في مواجهة الحاجز! لم يكن حاجزا اعتياديا وإنما عملية تفتيش رئيسة ومشتركة بين الجيش والشرطة. على جانبي الطريق تواجدت سيارتي جيب عسكريتين وثلاث سيارات دوريات الشرطة وأضواءها تومض أعلاها. بإمكانهم رؤية الركاب، في السيارات التي أمامهم، وهم يؤمرون بالنزول.

ارتبك برايموه وشرع في القيام بحركة دوران ليعود من حيث أتى، وقد كان ذلك خطأ فادحا بالنظر لوجود سيارات الدورية

الجاهزة لتعقب الفارين! صاح فيه الرجل الذي يركب خلفه بأن يعود إلى مكانه على الفور وقد أذعن برايموه للأمر مباشرة. ولكن يبدو أن فعلته الرعناء قد لفتت إليه الأنظار.

أخرج يا أوجا بسرعة! سنستعمل أقدامنا.

خلال لحظة كان كريس خارج السيارة وكذلك الرجل الذي كان يتحدث إليه، ولحسن الحظ كانا على الجانب المرصوف من الطريق.

«لنذهب بسرعة!»

بينما هما يسيران بنشاط مبتعدين عن سيارتهما في طريقهما إلى الجسر، كان الجندي الذي لاحظ حركة برايموه المشبوهة يسير نحوهما بسرعة. كان كريس يرمقه بطرف عينه حتى وصل بمحاذاتهما، ثم توقف.

«أنتما هناك. توقفا!» صرخ فيهما الجندي. توقف كريس ورفيقه على الرصيف واستدارا نحوه. كان يقف على الطريق. وجهه مشوه بثلاث علامات على كل جانب. واقترن إصداره للأمر بإنزاله سلاحه الأوتوماتيكي من فوق كتفه. لم يكن يفصله عن كريس ورفيقه إلا مقدار عرض سيارة.

«أين تذهبان؟»

«إلى سوق ثري كراوري».

«ماذا لديكما في هذه الحقيبة. هيا احضراها إلي».

سار رفيق كريس على الحاجز الاسمنتي الذي يفصل بين سيارتين وفتح حقيبته المتسخة التي يستعملها للسوق ليتحقق منها الجندي.

«وأنت يا من تقف هناك. تعال هنا، ما اسمك؟»

«سابستيان». أجابه كريس مستعيرا اسم نادله في إلهام فوري.

«سبستيان من؟»

لم يكن يعرف. ولكن لحسن الحظ فقد تفطن بسرعة أن ذلك ليس بذي أهمية.

«سابستيان أوجو».

«ما هو عملك؟»

«يبيع قطع الغيار».

«أنا لا أسألك. أم أنك قد استعرت فمه؟»

«أبيع قطع غيار الدراجات النارية». قال كريس.

«وكيف تبيع قطع الغيار وتسير على قدميك؟»

«لقد تعطل محرك دراجته».

«اصمت أيها الثرثار، فأنا لم أسألك!»

لكنه نجح في إبعاد النار المضطرمة بعيدا عن كريس، وأعطاه مهلة قليلة للراحة، في الوقت نفسه الذي بدأ فيه يذوي وترتعش ركبتاه قليلا. يده اليمنى التي كانت تتدلى ثقيلة ومعطلة بجانبه عادت إلى الحياة من جديد وتسللت إلى جيب سرواله لتجد إحدى ثمرتي الكولا وتخرجها. وقعت عينا الجندي على الثمرة فازداد بريقهما. شطر كريس الثمرة إلى قسمين وقدم له القسم الأكثر ثم وضع القسم الآخر في فمه. أخذ الجندي الهدية بلهفة ومضغها بشراهة مصحوبة بضجيج.

«أشكرك يا أخي». قال، وهو يركز نظره عليه ويحدق فيه بعينين نصف مغمضتين، بما يبدو وكأنه يحاول تنشيط ذاكرته.

«ما أنا إلا رجل مسكين يا أخي لم أتناول شيئا هذا الصباح، فالأوجا الكبير يكلفنا نحن المساكين بالعمل في الشمس وينسانا.

لماذا؟ لأن معدته مملوءة بالحليب والكورنفلكس، والأومليت».
استمر في تحديقه المركز في كريس ثم نقر على جبهته «أعتقد بأنني قد رأيتك من قبل، منذ زمن طويل».
«ربما قد اشتريت منه شيئا ما لإصلاح عربتك؟» تدخل رفيق كريس.
«أية عربة؟ هل قلت لك إنني أملك عربة؟»
«لا تقلق بشأن ذلك، فلا حال يدوم. ستحصل على عربة. خذ مثلا محدثك هذا. هل تظن أن لدي عربة؟ أنا لا أملك حتى دراجة هوائية عادية، ولكن لدى اصرارا قويا بأنني يوما ما سأتخطى الدراجة الهوائية، والدراجة النارية، لأحطّ في سيارة! وأن يفتح لي أحدهم الباب ويقول لي تفضل يا سيدي!، وأن تنتفخ بطني مثل امرأة في بداية حملها، وأن أجلس في المقعد الخلفي المخصص للمالك، أضع سيجارة في فمي وليس ثمرة كولا، ثم أقول للسائق، هيا تحرك!. ليكن لديك إيمان قوي بذلك، وستجري الأمور كما تحب».
ظهرت على الجندي الآن ابتسامة محملة بتوق كئيب، ثم حطت بغرابة على وجهه المشوه بالمشارط.
سارا على الجسر بمهل، منتظرين اجتياز برايموه وراكبه لحنتهما. عادت الثقة إلى كريس إلى درجة أن نوعا من الجذل كان يمكن أن يميز مشيته، حتى أنه اقترح على رفيقه أن اجتيازهم لحواجز التفتيش سيرا على الأقدام يبدو له أفضل رهان لديهم من الآن فصاعدا.
«أتظن أنك لن تنسى مهنتك مجددا؟» سأل رفيقه مشاكسا «عندما ستفقد لسانك في المرة القادمة، سيتملكني الخوف ثم

أبدأ في الصلاة وأقول أرجو ألا ينسى هذا الرجل ويقدم نفسه بصفته وزير للإعلام!»

«أنا وزير؟ إطلاقا. ما أنا إلا بائع قطع غيار صغيرة. أصلية ومن تايوان أيضا!»

«إهي! تتحدث لي هكذا. ألن يرتج لسانك مرة أخرى؟ كما ترى يا أوجا فليس هناك صعوبة في أن تكون شخصية كبيرة، ولكن أن تكون رجلا بسيطا فليس ذلك بالأمر الهين أيضا. لن تكون هناك مشكلة. أليس كذلك؟»

«أستطيع رؤية ذلك الآن. لم أكن أعرف من قبل أنك تحتاج إلى الالتحاق بمدرسة خاصة لتبدو مثل البسطاء».

أعجب رفيقه بما سمع وأخذته ضحكة طويلة. «صحيح ما تقول يا أوجا. مدرسة خاصة تمنح الشهادة الابتدائية للبسطاء».

استمرا في سيرهما بمرح يتناقشان حول نجاحهما الأخير بصوت خفيض، وتساءل كريس عن سبب إيقاف الجندي لهما في المقام الأول. هل رآهما عندما غادرا السيارة؟

«إطلاقا!» رد رفيقه «هل أخبرك لماذا أوقفنا؟ بسبب الطريقة التي كنت تسير بها وكأنك تخشى أن تدوس على نمل الطريق. ثم تضيف إلى ذلك بأن تنظر إليه بطرف عينك. في المرة القادمة سر على الطريق بوجه صارم وكأن أباك هو الذي يملكه!».

«أشكرك. لا بد من أن أتذكر ذلك... أن تنجح مثل رجل بسيط، فذلك ليس بالأمر الهين».

السادس عشر

بدأت الرحلة إلى الشمال بعد هذا التاريخ بخمسة أيام. وكان اختيار أبازون ملاذا لهم قد جاء كأمر طبيعي. على مستوى العواطف المحضة فقد كانت المقاطعة هي الموطن الأصلي «لآيكم»، وعلى رغم أنه لم يقض فيها وقتا طويلا في السنين الأخيرة، إلا أنها ظلت تشكل، في تناقض غريب، دعامة مهمة لأفضل إلهاماته. لذلك فذهاب كريس وإيمانويل إلى المقاطعة في هذا الوقت بعد موته يعتبر نوعا من الحج بالنسبة إليهما.

زيادة على ما سبق، فهي مقاطعة تكنّ نفورا عاما وغير محدد للنظام، وبإمكان المرء أن يصفها بأنها مكان مثالي لحرب العصابات - طبعا ليس بالمعنى الحرفي لاقتراح التخطيط للكفاح المسلح، الذي يعد أمرا استثنائيا بعيد المنال الآن، ولكن بالنسبة إلى المعنى الضيق، لكن المهم - فأهمية مكان ما، كما يقول عنوان لإحدى الملصقات العامة، هو حيث تستطيع ضمان الحفاظ على سرية أسرارك.

وقد تبين أخيرا أن «أينا»، زوجة برايموه، كانت مواطنة من جنوب أبازون وقد تطوع زوجها شخصيا لاصطحاب اللاجئ المتميز وتسليمه إلى أقربائها، من أجل الحفاظ عليه.

كل هذه المزايا لأبازون كان يجب أن تقيّم مقابل النقيصة المهمة كون أبازون هي المكان المحتمل أن يبقي فيه النظام عينا مفتوحة، خاصة بعد موت «آيكم» وانفجار أزمة جديدة مزعجة حول رفض الحكومة تسليم جثته إلى ذويه، تحت الذريعة المثيرة للغضب، بأن التحقيقات لا تزال مستمرة في ظروف وفاته.

كانت الليلة التي سبقت الرحلة بالغة الإثارة. فبناء على إصرار بييترس على وداع كريس، أحضرها صديق لبرايموه، يملك سيارة أجرة، وسلك طرقا ملتوية للوصول إلى المكان. ارتدت لهذه الرحلة ملابس طويلة مهملة أخرجتها من حقيبة جلدية حمراء، تحتفظ فيها بأشياء متفرقة في انتظار قدوم من يجمع الملابس القديمة لمنظمة جيش الخلاص الخيرية. جاءت إليوا معها. وكان من المقرر أن تكون الزيارة قصيرة، تستقل بعدها الفتاتان سيارة أجرة إلى بيت أم إليوا على بعد كيلومترين لقضاء الليلة عندها، تجنبا لرحلة العودة بالليل إلى شقتها في منطقة المساكن الحكومية والتي قد تلفت إليها الأنظار.

لكن التوتر والأحداث المربكة في الأيام والليالي الأخيرة، التي احتملتها بييترس لوحدها بكل جرأة، أصبحت تشكل فجأة حملا ثقيلا على كاهلها في هذا اللقاء المضني. لماذا يجب أن تقبل بدور الممثلة التي تقابل حبيبها الشاب الذي يظهر في نافذة قطار آخر يسرع، في الجهة المعاكسة، متجها إلى نفق مظلم مختلف؟ لهذا ثارت بتصميم يائس على أساس هاجس قوي بأنها وكريس قد وصلا الليلة إلى مفترق طرق، سيظهر بعده النهار. نهار غير متوقع، نهار لا مثيل له، يحفل سوقه ببضائع مكومة في سلة طويلة تحملها فوق رأسها، وسيبقى ما تحتويه مخفيا حتى اللحظات الأخيرة وهي تقترب من بوابات الفجر.

لهذا تملكها إحساس بالجبن هذه المرة فاختارت بييترس التعلق بخيط يشدها لما عرفته من أيام سابقة، وأن تغزل أطوالا لا حد لها من الساعات والدقائق الناعمة لهذا اللقاء الأخير.

«سأبقى هنا حتى الصباح» أعلنت لهم من عمق عزمها المشابه للصخر، بينما اختلس برايموه نظرة من خلال الباب - للمرة الثانية - مستفسرا عن تعليمات حول طلب سيارة الأجرة، تبادل الجميع النظرات ولكن لم يجرؤ أحد على الاعتراض. على العكس، فقد اتخذت ترتيبات جديدة على عجل، نوقشت وأقرت بناء على موقف بييترس الطارئ، بينما جلست هي بدون حراك كملكة فوق عرشها، ذراعاها متشابكتان فوق صدرها ومحدقة أمامها بثبات على نقطة في منتصف المسافة.

استمعت للنقاش الدائر عن بعد وعرفت بنتائجه: ستصحب إليوا إيمانويل إلى بيت أمها في سيارة أجرة، وسيأخذ برايموه الأطفال الخمسة ليناموا في بيت الجيران.

«لا لا لا لا!» صاح كريس فجأة وكأنه قد أفاق من حلم يقظة لتوه، ضاربا بقدميه بقوة على الأرضية المغطاة ببساط من المشمع. حطت كل الأنظار عليه، ولكنه استمر في هز رأسه لوهلة إضافية، قبل أن يقول بحزم واضح إنه لا يجب نقل الأطفال. أما التفكير الذي قاد كريس لردة الفعل الحادة هذه فقد كان على النحو التالي: وصلت إلى هذه المكان ولم أفلح في إقناع برايموه بعدم التخلي عن فراش الزوجية والذهاب للنوم في مكان لا يعلمه إلا الله، وسأكون ملعونا لو سمحت بأن ينتزع الأطفال من مكان نومهم على الأرض من أجل بييترس.

انحنى فوقها وشرح لها هذه الأفكار في همس مثير، كان رد فعلها فوريا. لقد تركز تفكيرها بالكامل على تحول كريس من صوت لا صلة له بالأمور إلي إنسان من لحم ودم، ولم يترك لها هذا التصرف مجالا للتفكير في أمور مثل أسرة النوم أو الأرضيات وما الثمن ولصالح من.

بدورها كان حديثها لصالح الأطفال. وذهبت إلى أبعد من ذلك لتقول وكأنها تكفّر بإخلاص عن تفكيرها السابق، أنه فيما يتعلق بها فإن الكرسي الذي تجلس عليه الآن هو كل ما تحتاج إليه هذه الليلة.

فيما بعد، اضطر كريس للمناداة عليها عدة مرات قبل أن تقبل بمغادرة الكرسي. تخطت الأطفال النائمين، وعلقت المنديل الذي تربط به رأسها على مسمار مغروز في الحائط وتقدمت نحو الفراش. كانت لا تزال تعاني من الإحساس بالخجل من طيشها الذي أبدته في عدم مراعاة مشاعر الآخرين، لكن كيف كان لها أن تعرف أن مجرد إطاعتها لدافع البقاء قريبا من كريس في هذه الليلة - قبل رحلته صوب المجهول - سيعني حرمان عائلة فقيرة من مأواها؟ لماذا لم يقم أحد بإخبارها؟ أم أن عليها، كما يقول قومها، أن تشم أصابعها لتعرف؟ ثم، من الذي كان يجب عليه إعلامها؟ برايموه مثلا؟: انظري يا آنسة، أنا وزوجتي نخرج في العادة لنقضي الليلة مفترشين الأرض عند جيران لنا، بينما ينام أطفالنا على الأرض هنا، ولهذا لا يمكنك البقاء. أو كريس؟ أجل، كريس رجل الإعلام هو من كان يجب أن يُعلِمها. ليس بعد ما جرى ولكن قبله. لكن حتى هو كيف له أن يعرف بتلك النزوة التي تغلي بداخلها وتنطلق من خلال تصريحها؟ إنها غلطتها. على رغم أنها لم تفكر في الأمر بوعي منها إلا أنها لا بد من أن تكون افترضت - في قطاع مهمل من عقلها - أن واحدا أو أكثر من تلك الأبواب - التي تفضي إلى الممرات الطويلة كريهة الرائحة، التي تخترق وسط هذا المجمع السكني - يمكن أن يفضي إلى غرف أخرى تستعمل من قبل برايموه وعائلته. لماذا افترضت ذلك؟ مؤكد أن الجميع يعرفون أن عائلات كثيرة من فقراء المدينة تعيش في غرفة

واحدة خالية من النوافذ. هل تخيلت حينها أن هذه المعلومة ستظل بالنسبة إليها مجرد إشاعة، وأن حظها لن يسعفها بمقابلة عائلة بهذه الوضعية، أو حتى بمشاركتها لمواردها الشحيحة لليلة واحدة؟

ناداها كريس ثانية من السرير المتواري خلف ستارتين من القطن الرخيص المطبوع والمعلقتين على حبل شُدَّ من حائط إلى آخر برخاوة، تجعل المرء يود لو ينهض ليسحب الحبل ثم يلفه حول المسمار المربوط به بشدة.

تحسست خطواتها بحذر ما بين الأجساد الصغيرة النائمة، في فوضى على فرش من القش فوق الأرض، إلى أن وصلت إلى السرير. كانت قد أحضرت بيجامة نوم معها في حقيبتها، ولكنها تركت الحقيبة مقفلة بجانب الكرسي. جلست الآن على السرير ونزعت قميصها وعلقته على حبل الستارة المرخى، ثم أرخت تنورتها من حول وسطها لتربطها فوق صدرها واستلقت بجانبه على السرير.

أعاق مضاجعتهما تلك الليلة عدد من المنغصات، فاثنان على الأقل من الأطفال المضطجعين على الأرض خلف ستارة القطيفة - وهما فتى وفتاة - قد يملكان معرفة مكتسبة من الشارع ليفهما أن شيئا ما يحدث وماهية ذلك الشيء.

كان للغرفة باب واحد يقود إلى الممر المركزي الطويل، وكان مقفلا من الداخل. وكانت هناك أيضا لوحة صغيرة تعمل كأنها كوة للمكان تقع فوق السرير مباشرة وتفضي إلي مجرى ضخم مسدود لتصريف الفضلات. ولهذا كان من الضروري أن تظل مقفلة كل الوقت لمنع دخول الروائح والبعوض، لكن لا يزال يتسرب ما يكفي من كل منهما إلى الغرفة. فبمجرد أن انطفأ المصباح الوحيد في الغرفة حتى بدأ

البعوض في الطنين عند الآذان وهو أسوأ من قيامه باللسع الفعلي. وقد يرى البعض أنه أسوأ حتى من لسعات البق الذي جاء في أثر البعوض في هذا الهجوم الليلي الطويل على هؤلاء المتطفلين ذوي الجلود الناعمة القادمين من منطقة المساكن الحكومية. قالت بييترس في نفسها، لا غرو أن كريس كان يبدو مُضنى ومنهكا بالكامل.

لكن على رغم أن هذه الملهيات المحدقة قد قامت، بلا شك، بتخريب طقوس تلك الليلة الأخيرة، لتحولها إلى دراما طويلة، فإنها كانت قد قرّبت هذين المقاتلين في قوانين الحب والصداقة والحنان والموت كلا منهما إلى الآخر كان هناك شيء أعمق من إزعاجات الحرارة والحشرات وهو الآن يلقي بيده الكابحة على كتفي المحتفل الرئيسي.

منذ أن دخلت عليه بييترس ذلك المساء، لاحظ كريس أنها تحمل معها هالة قوية من بييترس الأخرى، التي طالما وصفها على سبيل المزاح بأنها صورة ملائكية، ثم بعد ذلك وهو مستلق على السرير يطلب منها الالتحاق به، ويراقبها بما يمكن أن يتيحه ظلام الغرفة الخفيف بعد أن نهضت أخيرا عن كرسيها. لقد فوجئ بأسلوب حركتها المغلفة بالفخامة، كأنما هي روح العذراء المقنعة. تدخل إلى الحلبة في قمة أناقتها، منتصبة القامة، مليئة بالازدراء، لم يُسلب بسحر رقصها بعد.

لم تصده عنها، ولكنها لم تقدم أيضا أكثر من المتطلبات الضرورية لطقوسها .أما هو فقد تفهم الوضع تماما. ثم قاد بعد ذلك مجهودا لإلهاء عقليهما بقصص الخرافة من أيام الطفولة. البعوضة التي حاول كريس، من دون فائدة، اقتناصها بقميص قديم له أحضره

للسرير لهذا الغرض، استمرت في الطنين عند الآذان بصوت عال في عملية انتقام واضح للطريقة التي تم بها الاستغناء عن ردائها.

«ترى ما حجة البق في اللسع دون حتى تكليف نفسه إعطاء إنذار أو لا؟» سألته بييترس «حجته أن الإنسان حاول ذات مرة القضاء عليه عن طريق دلق الماء الفائر عليه مع كل صغاره التي فقست لتوها. كانت الصغار على وشك التوقف عن المقاومة ولكنه قال لهم لا تستسلموا فكل ما هو ساخن الآن سيبرد يوما ما».

«وعاشوا ليقوموا بلسعنا في هذه الليلة».

«تماما».

«أتساءل ما الذي كانت ستقوله لهم بعد رشة جيدة بالمبيد الحشري؟» وقد ذكرها ذلك بسؤال كريس عن سبب عدم شرائه لعلبة مبيد حشري عند مجيئه إلى هذا المكان.

«فكرت بذلك بالفعل في الليلة الأولى لتواجدي هنا، ولكنني عدلت عنه في الصباح».

«ماذا؟».

«لقد خرج إيمانويل برأي مفاده: بما أن المبيد دواء ليس بإمكان مضيفنا توفيره، لهذا قد يكون من الأفضل عدم إدخاله إلى بيته. ولقد فاجأني بوجهة النظر هذه، ثم سلمني النقود التي أعطيته لشراء علبة المبيد من محطة الوقود».

صمتت بييترس لبعض الوقت ثم قالت «يا له من شخصية، إيمانويلك هذا! ومع ذلك فأنا سعيدة لأنني لن أقضي خمس ليال أخرى في هذا المكان».

قوطع حديثهما الهادئ بفوضى عارمة على الأرض. تبين أن أحد الأولاد قد تبول على أخيه. الاحتجاج كان يغلفه طابع النعاس في

البداية وسرعان ما تطور إلى اتهامات مباشرة وفوضى شاملة شرع فيها أحدهم في البكاء مناديا على أمه. تك..! سُمع صوت مفتاح إشعال النور وامتلأت الغرفة بنور المصباح الوحيد المتدلي من السقف. ظل كريس وبييترس صامتين كأنهما زوج من الفئران قطعت عليهما سُبل الوصول إلى جحرهما الواقع خلف الأواني والمعدات في غرفة مزدحمة.

«اش ش ش !» لا بد أن ذلك صدر عن أكبر الأولاد الثلاثة أو كبرى الفتاتين واستعيدت السيطرة على الأمور حيث لم يسمعا شيئا بعد ذلك. ربما كانوا يتحدثون بالإشارات أو بعيونهم ويشيرون بلا شك صوب السرير وشاغليه المميزين. سُمع صوت مفتاح النور مرة أخرى وعاد الظلام يسود من جديد، تخللته بعض الهمسات لفترة، ثم ساد الصمت.

قرار كريس ورفيقته للانتقال شمالا بواسطة الحافلة بدلا من سيارة برايموه كان قرارا حكيما، لأن الحافلة ستجذب انتباها أقل مما تجذبه سيارة برايموه رغم قدمها. كانت الحافلة التي استعملوها في التنقل من جيل جديد من الحافلات معروفة حتى عند الأميين باسم «لوكسوريوس»، وقد أطلق عليها ذلك الاسم لأن بناءها قد تم في المصنع ولما تحتويه من مقاعد منجدة. لم يسبق لكريس أن ركب حافلة لوكسوريوس من قبل، وفي الحقيقة يرجع آخر عهده بركوب الحافلات في كانجان لسنوات عديدة قبل سفره للدراسة في بريطانيا. ففي تلك الأيام كانت الحافلات لا تزال تصنع بطريقة بدائية، بالأيدي من قبل صناع بارعين غير هيّابين من الحدادين واللحامين الذين يطرقون أي لوح معدني تقع عليه أيديهم إلى حاوية

تسير على عجلات، ثم يأتون بخطاط ليكتب كلمة حافلة بحروف مزخرفة على كافة جوانبها.

قبل الصعود إلى لوكسوريوس دار كريس حولها متفقدا كأنه يهم بشرائها. لقد شعر بفخر غريب لها التطور الذي طرأ على الحافلات دون أن تفقد خصوصيتها الأصلية. لقد ظلت زخرفة الحروف هي نفسها رغم حالة الازدهار العامة التي طرأت. ربما كان الخطاطون منذ أيام طفولته لا يزالون هم الذين يقومون بالعمل نفسه، والأكثر احتمالا أنهم قد أثروا في أجيال من المتدربين وأورثوهم خطوطهم المتميزة. وذلك اللحام على قارعة الطريق، صاحب الخيال الواسع، والذي كان أول من صنع الحافلات البدائية، قد يكون هو الذي يشغل الآن منصب مدير الشركة التي تملك أسطولا من حافلات لوكسوريوس! وإذا لم يظهر أي تقدم على مجريات شؤون الدولة على مستوى القمة فقد تحقق بعض التقدم بالقرب من القاعدة، ولو أنه يبدو غير منظم وبالتالي لم يُدرك بالكامل.

طوّر خطاطو الإشارات أسلوبهم من مجرد كتابة كلمة حافلة القصيرة إلي تدوين مقولات كاملة مهتدين بذلك الناسك المجهول الذي يعمل بجد على ضوء الشموع، فينسخ صلاة الشكر من الكتاب المقدس كما فعلها مرات عدة من قبل، بعدها سيطرت عليه فجأة حالة وجد إلهي فأخذ في استكمال السورة من عنده: «لك الملك، ولك القوة والمجد، إلى أبد الآبدين، آمين!

لأن خطاطي كانجان لم يمارسوا عملهم في الظلام في أديرة مقدسة ومنعزلة ولكن في أماكن مفتوحة للجميع تحت الشمس الملتهبة، وبأسلوب مغايرلما يتبعه الناسك، فقد حاولوا استحضار

الماضي في أعمالهم، كما سعوا لاختراع المستقبل. نقشت على هيكل لوكسوريوس الأزرق ثلاث مقولات مختلفة بالألوان الثلاثة، الأحمر والأصفر والأبيض، واحدة في الخلف والثانية على الجانبين، والثالثة وهي الأهم فقد كتبت علي الجزء العلوي من مقدمة الحافلة. سجل كريس ملاحظته حول تلك النقوش في ذاكرته، وهو الذي أذعن الآن بالكامل لحالته الراهنة كمنظم واع لأساليب كانجان.

كتبت المقولة التي على الجزء الخلفي من الحافلة بلغة باسا المحلية، وهي مفرطة في الإيجاز، ولهذا من الصعب إن لم يكن المستحيل، ترجمتها، ونصها: «إيفي أونيي ميتالو» أي الإنسان وما يعمل - وعلى الجانبين كتبت المقولات بالإنجليزية: «حافلة القديسين»، أما في المقدمة فقد أعلنوا، بالإنجليزية أيضا، أخيرا - أو ربما أولا - ملاك الرحمة.

اتخذ كريس مقعدا في منتصف الحافلة بجوار النافذة، أما برايموه فقد حجز له مقعدا خلف السائق، بينما جلس إيمانويل في كرسي على الممر في الخلف يتبادل حديثا مع فتاة جذابة للغاية تركت ملامحها المثيرة انطباعا لدى كريس لم يتمكن من إزالته بسرعة عندما رآها عند شباك التذاكر قبل قليل.

تلك الشعارات الثلاثة بدأت الآن تداعب ذهن كريس وتمرنه. ربما جاءت هذه الشعارات في الوقت المناسب كدواء مضاد للقلق. بعد ما كاد أن يتحول إلى كارثة عند جسر ثري كراوري، اقتنع بأن ملامح وجهه في حالات التوتر تفضح ما يعتمل في داخله، وأخذ على عاتقه صقل وتهذيب تصرفاته إلى ما يأمل أن يكون في المستقبل رزانة متوازنة تخدمه بحصافة أكثر.

لكن إجراء تمارين الشهيق العميق وأنواع أخرى من تمارين الاسترخاء أمام المرآة شيء، وأن تتمكن من البقاء هادئا إذا ما قام فريق من رجال الأمن القساة بالصعود إلى الحافلة الآن فذلك شيء آخر. وكإعادة صياغة لنصيحة حكيمة سمعها مؤخرا، فكيف يمكنه إعطاء العالم في مثل هذه الظروف الطارئة الانطباع بأن هذه الحافلة الغريبة التي يجلس فيها الآن بعصبية، هي في الحقيقة ملك لوالده؟ في تناقض عجيب، يستطيع برايموه، الذي لا يملك شيئا يمكنه الحديث عنه، ومن الطريقة التي يجلس بها هنا، أن يحسبه المرء أنه الابن الحقيقي لمالك «أيفي أونيي ميتالو»، أو «ملائكة الرحمة»، أو «كل القديسين».

بنظرة خاطفة ألقاها على الجزء الخلفي من الحافلة، رأى كريس إيمانويل الذي لا يملك شيئا هو الآخر، ليس في هذه اللحظة على الأقل وهو مسترخ إلى حد ما هو أيضا، ليس إلى الدرجة التي عليها برايموه بالطبع، لكن أكثر حتى الآن من المخلص، الذي لا يجب أن تنسوا أنه واحد من الترويكا الحاكمة التي تملك كانجان نفسها! فتبسم بمرارة. لا بد أن تراقب فتاتك بييترس هذه بصورة لصيقة!

لو كان معه كتاب لدفن فيه أفكاره ولهرب بوجهه الذي يفشي أسراره. لكن أن تجد رجلا يقرأ كتابا في حافلة كانجانية ليهرب من المراقبة فلا بد من أن يكون قد فقد عقله. فإن كل ما لديه للقراءة في حقيبته عدد من القصائد غير المؤذية وغير الممهورة بالتوقيع كان قد التقطها من بين أوراق مبعثرة في منزل «آيكم».

لذلك انشغل تفكيره بتلك الزخارف والزينة على لوكسوريوس، فالخطوط والمقالات المسيحية والمشابهة للمسيحية لم تسبب أية

مشكلة ولم تحدث رعبا. ولكن الأمر ليس كذلك لمقولة «أيفي أونيي ميتالو»، فهي مقولة غير واضحة وفي غموضها نوع من التهديد. الإنسان وما يعمل... يتبعه؟ أم يعود ليأخذ حقه؟ هل هذا كل شيء؟ كلا. ما هذا إلا جزء من المسألة، قال في نفسه، وما ذلك في الحقيقة إلا الجانب الأقل إيذاء. يبدو أن المضمون الحقيقي لهذه المقولة الغامضة هو أنها تقلب الأمور رأسا على عقب، فمهما كان ما نراه يتبع الإنسان، ومهما كان القدر المحتوم القادم للانتقام منه، لا يمكنه إلا أن يكون هو نفسه ما اقترفه ذلك الإنسان بطريقة أو بأخرى، أو في حياة سابقة إن لم يكن في هذه الحياة. نعم فذلك هو الأمر! تبين إذن أن تلك الكلمات الثلاث المغلفة بلغة قديمة ومحفوظة خلف الحافلة أنها فترة الافتتاحية لمجاوبة صوتية غنائية همجية تقدم شرحا بدائيا وقاتلا للمعاناة. المذنب يتألم، والمتألم مذنب. أما بالنسبة للصالحين ذوي الأيدي النظيفة (بمن فيهم مالك اللوكسوريوس من غير شك) فسيعيشون في نعيم دائم.

بعد وقفة ذهنية قصيرة شرع كريس في الابتسام ثانية ليس بسبب تلك الأفكار اللاهوتية الفظيعة التي أماط اللثام عنها، ولكن للحصافة العنيدة لمالك لوكسوريوس، الذي كان من رجاحة العقل أن يحيط ملكيته الثمينة بحماية تأمينية باستعمال مقولات من كل العقائد التي يعرفها بحيث إذا لم تفي إحداها بالغرض، يمكن استغلال الأخرى. لقد ذهب أبعد من ذلك المتشائم الذي يربط سرواله بحزام بالإضافة إلى زوج من الحمالات، ثم يلف فوق كل ذلك حزاما مرصعا بأحجبة وتمائم في جُرب من الجلد!

الجزء السابع عشر

طريق الشمال الكبير

ذلك النوع من الناس البورجوازيين المحليين والدبلوماسيين الأجانب، الذين يقتربون منك على جنب أثناء حفلات الكوكتيل ليقولوا أن باسا ليست بكانجان، أنفسهم هم الذين يتصرفون على أساس أنها كذلك. لماذا؟ لأنهم مثل بقية الأكابر لم يسافروا خارج باسا على طريق الشمال الكبير قط. لو أنهم قاموا بذلك، ولو لمرة واحدة، لآمنوا وكفوا عن الثرثرة! لكنهم دائما يقدمون الأعذار على أن الرحلة خطيرة جدا، مليئة بالعرق، وفوق كل ذلك فهي تستغرق الكثير من وقتهم وهم المشغولون جدا.

الآن، وبينما ترتطم القوة الدامغة للحقيقة البسيطة المحقرة دوما، بحواس كريس الخمس، أم هي ست حواس؟ في الوقت نفسه الذي تقوم فيه حشود من الحشرات الطائرة بالتجمع حول مصابيح الشوارع بعد هطول الأمطار الأولى، يأخذ الإدراك في التسرب من خلال كل فتحات مسام جلده إلى أعماق كينونته، مكملا عملية التحول الذي قد بدأ بالفعل للرجل الذي كانه.

تساءل في نفسه، ما الذي سيحدث الآن لو أن دواليب الحظ تدور ثانية لتعيده إلى شبح حياته السابقة ... إلى حفلات الكوكتيل نفسها، وإلى تلك الطقوس الجوفاء التي، وبكل إنصاف له، كان دائم الاشمئزاز منها لما فيها من ابتذال، وربما أكثر لما تسببه له من ألم جسماني؟ لأنه ضعيف السمع إلى درجة ما كان الحديث المتراكم لمائة من الناس أو يزيدون يتسبب في محاصرة حاسة السمع لديه، ولا يجد عندها مفرا

من التنقل دونما هدف من مجموعة شفاه متحركة إلى مجموعة أخرى، لا يسمع شيئا مما يجري، ومبتسما بغباء. ما الذي سيفعله لو - لا سمح الله - وجد نفسه مرة أخرى في وسط غرفة التعذيب تلك؟ سيصلي من أجل أن يتحصل على الشجاعة ليقول لكل زوج من الشفاه وكل طقم أسنان قبل أن ينتقل إلى الذي يليه:«نعم، ولكن هل تعلم أنه على الرغم من أنك تقول ذلك إلا أنه حقيقة بالفعل؟» وربما سيكافأ على شجاعته تلك بالمتعة النادرة وهي مشاهدة - باعتبار عدم إمكان سماعه - أبله أجوف بعد الآخر يقفل فمه لبضع ثوان في حيرة كاملة،لأن شفاهه العاملة مثل المكابس لا يمكن إلا أن تقول «كيف يمكن ذلك؟». طبعا فقد كانت بييترس محقة تماما في عدم المشاركة في تلك الحفلات، ولكنها في الوقت نفسه لم تكن سيئة الطالع لتكون وزيرا للإعلام. كلا، فباسا، فعلا ليست هي كانجان. وبإمكان كريس من مقعده الاستراتيجي المجاور أن يشهد على صحة ذلك!

غابات الجنوب صعبة الاختراق - التي بدت الطريق السريع العظيم الذي تشقها وكأنه - مجرد ممر ضيق، أخذت تخلي مكانها بتذمر في البداية، ولكن برضى أكبر مع مرور الوقت لوضعية نمو أقل تميزا، وبعد مائتي كيلو متر إلى الشمال تركت مكانها بالكامل، بصورة تكاد لا تصدق، لمناطق خالية شاسعة تتناثر فيها أشجار وحشائش معيقة للنمو. ارتفعت معنويات المسافر طرديا مع التلاشي التدريجي لتلك الغابات، مما يسهل مهمة العين في أن تجوب أنحاء المكان بحرية وتخوض فيه بدون عوائق، لتلتقط بانوراما عريضة لفراغ يمتد إلى أفق تبدو فيه الأشجار الصغيرة فوق التلال البعيدة كالحدائق اليابانية الصغيرة على خلفية سماوات صافية.

حتى الطريق الإسفلتي الذي تسرع فوقه لوكسوريوس باتجاه الشمال، روى قصته عن دولتين مختلفتين في البداية كان مرصوفا بكثافة مريحة، وبالتدريج تدهور إلى مجرد طلاء أسود، وضعته لمسات الفرشاة بشح فوق الصخور المسامية الحمراء ثم، مع استمرار التقدم، أخذ في الانقشاع ليبين أكثر فأكثر الطبقة البنية تحت السطح، مجبرا لوكسوريوس الجميلة الأنيقة على المسير في تعرج من جانب إلى آخر لتجنب أعمق الحفر والمطبات. لكن كريس رحب بغياب الراحة للمردود الذي ستجره وراءها، حيث ستخفف من تهور حافلة اللوكسوريوس التي كانت تقوم بالمشاكسة، مستهزئة بسلامة ركابها ومعاملة كل سيارة أصغر منها حجما تقابلها على الطريق بعجرفة حيث تدفع بها للخروج عن الطريق، وكأن حق المرور لا يعدو كونه مسألة لها علاقة بالحجم. أسر كريس في نفسه أن للطرق المخربة والتنقلات غير المريحة فوائدها أيضا.

كان السبب في رفع معنوياته، والذي مكنه من الانغماس بكل نوع من الخيال البصري والذهني، يعود إلى حقيقة عظيمة ومبهجة. فمنذ أن غادرت لوكسوريوس وسط باسا المزدحم واتجهت إلى داخل أنفاق الغابة التي أوصلتها في نهاية المطاف إلى الريف المفتوح، تحولت الحواجز الأمنية بطريقة درامية نحو الأفضل. لبعض الوقت كانت تلك الحواجز تظهر بعد فواصل متقاربة من المسافات، وكانت القوات المتواجدة في كل منها متقاربة كذلك إلى حد ما، ولكن مهمة الحواجز قد تغيرت الآن، فهم بالكاد يدققون في الركاب وجل همهم هو في طلب المنافع الخاصة من مسيّري الحافلات والحصول عليها. حتى أنه، وفي حالة معينة، عندما أمر شرطي جامد

القسمات الركاب بالترجل اتضح أن ذلك ليس أكثر من حيلة لطلب أشياء أكثر من السائق، أما الركاب القلائل الذين ترجلوا فعلا، ومن بينهم برايموه، فقد طلب منهم بابتسامة العودة إلى مقاعدهم. وهكذا فلم يكن سحر الريف وحده - رغم دوره في ذلك - هو الذي مكن عقل كريس المشوش في المدة الأخيرة من التحليق بعيدا فوق ذلك الاتساع الفسيح للأرض المغطاة بالعشب بوديانها وانبساطها ومرتفعاتها، مزادنة بكل نوع من الشجر يمكن تخيله وبكل درجات اللون الأخضر. لقد أصبح هذا الهروب من وجه الخطر يأخذ ألوان وشكل النزهة.

استجابت المدن والقرى الواقعة على طريق الشمال الكبير بأساليب مناسبة لعملية النقص المتدرج في أحجام المباني كلما ابتعد المرء عن منطقة هطل الأمطار واتجه صوب مناطق الجفاف. فالبنايات الضخمة لمحدثي النعمة على الساحل قد تركت مكانها لمنازل أقل مهابة، ولكنها لا تزال تمتاز بأسقف حديدية إسمنتية، بالطريقة نفسها التي أخلت بها الغابات الضخمة المليئة بأشجار الأيروكو والماهوقني وأنواع أخرى من أشجار الأخشاب الصلبة مكانها لشجيرات مزهرة مثل هيب الغابة.

بينما ترنحت الحافلة من أحد جانبي الطريق إلى الآخر لتفادي النتوءات البارزة، لاحظ كريس بشكل متزايد أن تلك الأسقف الحديدية نفسها قد حملت الآن على أكتاف الجدران الطينية المكسوة بطبقة من الإسمنت، ولكن مع التوغل أكثر لاحظ أن ذلك المظهر قد أخذ يختفي أيضا، ولم يكن يكسو الجدران سوى الطين الأحمر. استمر المرور على التجمعات السكنية الآخذة في التدني

من حيث المستوى إلى أن بدأت تظهر أمام كرسي المراقبة الذي يعتليه كريس حشود بسيطة الشكل من أكواخ القش الدائرية.

كانت نقاط التفتيش المقامة من قبل الجيش والشرطة تجيء وتروح دون انقطاع، وقد تخلوا الآن عن تظاهرهم بالنظر داخل الحافلة من خلال الباب الأمامي، وصاروا يأخذون نقودهم من مشغلي الحافلة على المكشوف بما يبدو أنه جو فكاهي من كلا الطرفين. لكن السائق ورفيقه لم يتوانيا عن التذمر وشتم هؤلاء الأشخاص بعد ذلك مباشرة.

«فلتلتهم النيران شعر رأس أمك!» كان سباب السائق ذات ذات مرة بمجرد أن ابتعد عن الشرطي الذي يبدو أنه قد تشاكس معه.

سارت الحافلة ما يزيد قليلا عن خمس ساعات قبل توقفها في أجباتا بلدة السوق الصاخبة المغبرة الشهيرة، وهي تعد كبيرة ومفرطة النشاط بالنسبة إلى هذا الجزء من البلاد كما أنها مكان سقاية الماء الرئيسي المفضل من قبل المسافرين الموسميين على طريق الشمال الكبير. كان المسافرون مسرورين للهروب من الحرارة الراكدة المتجمعة داخل الحافلة إلى هبّات الحرارة الساخنة في الهواء الطلق. أثناء ترجلهم من الحافلة أخذوا بهز أرجلهم للتخلص من التقلصات في مفاصلهم، ثم راحوا يبحثون عما يمكن أن يجدوه من خصوصية يوفرها ذلك المكان غير المغطى المملوء بالرمال لقضاء حاجتهم. جرت العادة أن يخوض ملاك المطاعم والأكشاك المختلفة معارك متواصلة مع كل دفعة جديدة من المسافرين وخاصة النساء اللواتي يوجهن أنظارهن إلى فناءات مطاعمهم كمكان لقضاء الحاجة على رغم كل العلامات الصريحة التي تقول ممنوع التبول هنا. أما أغلبية الرجال وهم الذين

يملكون الجرأة، بحكم التقليد واعتياد السفر، فلم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن مكان محدد مثلما تفعل دجاجة في بحثها عن مكان تبيض فيه، لكنهم بكل بساطة اختاروا شاحنة كبيرة متوقفة واقتربوا منها بمسافة ثم أراحوا أنفسهم فوق إحدى إطاراتها.

الهم الثاني، الطعام كان موجودا بوفرة. عدد كبير من الأكواخ الصغيرة التي تحمل أسماء كبيرة وتتنافس على كسب الزبائن برفعها يافطات مثل: لدينا لحم ماعز هنا! لدينا شوربة إيجوسي! لحوم طرائد الغابة! تعالوا هنا للرز! بطاطس مهروسة جيدا!

تواجدت كلمة يجب كتابتها، بخط مائل أو مختلف، كصفة لتلك الأماكن على أغلب لوحات الإعلان وكانت تكتب في كل مرة بشكل مختلف، وقد اختار كريس ورفيقاه مطعما محترما جدا لغير ما سبب سوى أن ستارة المدخل الصفراء كانت نظيفة إلى حد ما. كان الثلاثة قد تصرفوا أثناء تواجدهم في الحافلة بحذر شديد، وتعاملوا كأنهم غرباء عن بعضهم بالكامل، لكن المائة والخمسين كيلومترا الأخيرة تقريبا أثبتت أنهم ليسوا في حاجة إلى هذا المستوى من الحذر، ولذلك جلسوا الآن بجرأة على إحدى الطاولات وطلبوا لهم طعاما، أرزا لكريس، بطاطس مقلية ولحم ماعز لإيمانويل، ثم حساء الكاري وطبيخ لحم الطرائد لبرايموه.

ومع ذلك لم يتحدثوا كثيرا فيما بينهم، ويمكن لأي كان أن يظن بسهولة أنهم ركاب يعرفون بعضهم بدرجة بسيطة، أو أنهم قد تعرفوا على بعضهم خلال الرحلة.

أحضرت النادلة وعاء بلاستيكيا لغسل أيديهم وصينية بها مسحوق صابون. كان واضحا أن الماء الذي في الوعاء لم يستبدل

منذ أمد بعيد وقد تكون بفعل ذلك خط زيتي في الوعاء فوق حد المياه الضبابية المظهر.

كريس، الذي قدم له الماء اولا نظر تلقائيا إلى راحتيه أولا ثم إلى الماء وهز رأسه. وكذلك فعل إيمانويل، أما برايموه الذي كان أكثرهم جرأة فقد طلب من الفتاة أن تغير الماء، وأدى ذلك إلى حضور صاحبة المطعم ذات العيون الباسمة التي كانت تراقب الموقف عن بعد.

«تغير الماء؟» أخذت في الضحك: « أنتم من الجنوب! هل تعرفون كم ندفع الآن لصفيحة مياه واحدة؟ ندفع مانيلا وخمسين!»

«رلم تحضر ناقلات المياه اليوم». تدخلت النادلة التي لا تزال تحمل وعاء المياه القذرة.

«كلا. لم تحضر المياه بعد« قالت صاحبة المطعم «أما الذين تراهم هناك فيبيعون مياه الأمس بسعر مانيلتين». وأشارت من خلال النافذة صوب رجل يحمل فوق رأسه عصا متينة متأرجحة، وقد ربط إلى كلا نهايتيها علبة صفيح بسعة أربعة جالونات. وتواجد بالقرب منه اثنان أو ثلاثة مثله يناورون بخبرة بحمولتهم الثقيلة والمهمة بين الجموع.

على بعد عدة كيلومترات إلى الشمال من أجباثا كان هناك جسر طويل نسبيا فوق نهر أدركه الجفاف بالكامل وتواجدت خلفه يافطة ضخمة تقول مرحبا بكم في جنوب أبازون. قال كريس في نفسه: من العجيب أن حدود المقاطعات التي رسمها الإنجليز بشكل اعتباطي، لخمسين سنة خلت أو تزيد، أحيانا تطابق الواقع تماما. خلف ذلك النهر الجاف لم يكن هناك ولا ياردة واحدة من التحول التدريجي، فأنت قد تدخل مباشرة إلى أرض مقفرة، بعد أن حولتها سنتان من غياب الأمطار إلى صحراء جرداء.

التيار الذي يتسرب إلى الحافلة يبدو كأنه صادر من جوف موقد مشتعل. والشيء الأخضر الوحيد في المكان هو شجيرات الصبار الهائلة ذات الأشواك الناتئة التي يُستظل بها حول تلك الأكواخ المقفرة، وبين الفينة والأخرى تظهر في الحقول الجرداء أشجار الباوباب الاستوائية عريضة الجذع ذات المظهر الغريب بحق، حتى أن المرء ليصدق بسهولة قصة الأفيال الباحثة عن الماء والتي كانت لا تزال تتجول في هذه المناطق وتقوم باختراق لحاء الشجرة اليابس بخراطيمها لتمتص العصائر المخزنة فيها بفعل سنين من المطر الغزير المتجمع بالقرب من الساق.

عند حدود المقاطعة عانى كريس مجددا من القلق العميق لما فوجئ بتواجد اعداد أكبر من أي تجمع صادفوه، منذ مغادرتهم باسا، من الجنود والشرطة. ولكنهم لم يهتموا على الإطلاق بالركاب، ولاهم عطلوا السائق الذي ترجل وعبر الطريق للحديث مع أحدهم، وبعد عودته إلى الحافلة ليستأنف القيادة حياهم بيده، وهو ما بدا لكريس أنه وداع ودي جدا. ولكن ما أن تخطى الحاجز حتى انفجر في نوبة عالية غير منضبطة من التذمر من طمعهم، وفي نهايتها أطلق دعوته للعنة لكي يحترق شعر أمهاتهم.

قوات الأمن! أمن من ولماذا؟ربما وضعوا هناك ليمنعوا الصحراء الجائعة من أن تأخذ وعاء الاستجداء إلى داخل حدود الجنوب الآمنة. بينما الحافلة تخترق أعماق المنطقة المقفرة، أخذ كريس حقيبته وأخرج منها قصيدة «آيكم» غير الموقعة «عمود النار: ترنيمة للشمس» وبدأ يقرأها ببطء وبرؤية جديدة متمتما بالكلمات مثل طالب علم مبهور في فصل لمحو الأمية. ربما كانت مشاهدته لكثبان

النمل في الطبيعة المحترقة هي ما بين له، بتفاصيل لم يجربها من قبل، كيف أن الدقة اللاذعة لعين الشاعر لم تؤسس على الخيال بل الحقائق، وأن يعرف أن هذا المكان ليس هو أبازون بعد، وأن المركز الرئيس للمأساة سيكون بعد مسيرة يوم على الأقل! حيث يتحول التراب إلى رماد. اجتازت الحافلة رجلا يمتطي حمارا، وكان وجهه صورة معبرة عن جثة ماتت في موسم رياح الهارمتان الساخنة.

الآن يعيد الزمن نفسه من جديد في أرض الحكايات. ربما ليس بنفس السوء كما في المرات الأولى، حتى الآن. ولكن قد تنتهي الأمور بسهولة إلى الأسوأ. لماذا؟ لأن اليوم لا يمكن لأحد أن ينهض ويسير جنوبا مهتديا بضوء النجوم، تاركا خلفه صغارا معاقين في برية السافانا، وأن يصل بتكتم إلى قرية صغيرة ويقضي على قاطنيها ويحتل أرضهم ويقول: فعلت ذلك لأن الموت حدق من خلال عيني.

بدلا من ذلك أرسلوا وفدا من كبار السن إلى الحكومة التي تمتلك البطاطس في هذه الأيام، وتمسك بالسكين أيضا، من أجل طلب المساعدة منهم.

بعد أجباتا خلا العديد من مقاعد الحافلة. وانتقل برايموه إلى الخلف ليجلس أمام كريس الذي التحق به إيمانويل بعد أن هجرته الفتاة لتجالس إحدى رفيقاتها الممرضات.

«لم يعد الشباب كسابق عهدهم». قال كريس «أتعني أنك تركت تلك الفتاة تفلت من بين أصابعك خلال رحلة بالحافلة؟»

«فعلت مابوسعي ولكنها رفضت الطعم ... هل تلومها وهي ترى هذه الأسمال البالية التي أرتديها؟» وقام بحركة ازدراء ساخرة بيده

اليسرى، معبرا عن وضعية الذي يرتدي ملابس قديمة غير مناسبة «يالي من متشرد! وفوق ذلك كله كان يجب أن تسمع نوعية اللهجة التي كنت أرطن بها».

«أنت فتى مسكين، وأنا في غاية الأسف على كل هذه المتاعب». خاطبه كريس وعيناه تومضان.

«لا بد أن أعترف بأنني شعرت عند حد معين بالإحباط الشديد وبدأت في سؤالها إن كانت قد سمعت عن رئيس معين لاتحاد الطلبة في حالة هروب».

«لم تفعل ذلك؟».

«كلا. ولكن كدت أفعل، فليس من السهل فقدان فتاة مثلها».

«وبسبب مظاهر غير حقيقية!»

«تخيل!»

«متأسف».

«في الحقيقة هي إحدى أكثر الفتيات الخجولات اللاتي قابلتهن في حياتي، وعليه لا أظن أن ملابسي وحدها هي السبب».

«ولا أظن ذلك أيضا، فجودة معدنك ستشع مخترقة أي أسمال».

«أشكرك! كانت المشكلة الحقيقية هي إقناعها بأن تفتح فمها، كانت تتحدث بمعدل كلمة في الساعة، ولم تكن أكثر من لا أو نعم».

«وكيف عرفت أنها طالبة تمريض؟»

«لم يتطلب ذلك مجهودا عنيفا»

«ماذا كان اسمها؟»

«أداما، وأبوها يعمل ضابطا في الجمارك في أقصى الشمال».

«كثير من المعلومات، من مجرد كلمات نعم، ولا».

ضحكا ثم ران عليهما الصمت وكأنما قد تلقيا إشارة. فقد توصلا بصورة مستقلة إلى استنتاج أنه على الرغم من أن الأمور قد سارت على ما يرام حتى الآن إلا أنهما لا يجب أن يستحثا حظهم أكثر من اللازم بالحديث والضحك كثيرا. خلال حلم اليقظة الذي أعقب ذلك، وبينما هو يمعن النظر في المنظر الذي أمامه، تفطن كريس لوجود كثبان النمل.

عندما انتهى من قراءة النص الشعري المنثور واستعاد قراءة المقاطع الأخيرة قال بهدوء لإيمانويل: «لا بد أن تقرأ هذا» وسلمه الأوراق.

برايموه هو أول من لفت انتباههم إلى جمع كبير من الناس على مسافة نصف كيلومتر تقريبا أمامهم على الطريق. وفي وقت واحد بدا وكأن كل من في الحافلة قد تفطن إلى المشهد غير المعتاد والبالغ الوضوح أمامهم بسبب الأرض المنبسطة الخالية من الأشجار. وقد دفع ذلك الكثير من الركاب إلى رفع أنفسهم عن مقاعدهم في وضعية نصف الوقوف ليروا المنظر الغريب بشكل أفضل. ماذا عساه أن يكون؟ حاجز تفتيش؟ أبطأ السائق حافلته إلى مستوى سرعة حذر. وبينما أخذ المشهد يقترب بدأت تظهر بعض البدل العسكرية من خلال الضباب المغبر. وتواجدت وبعض السيارات الشاحنات الواقفة على هذا الجانب، وكذلك حافلة كانت متجهة جنوبا وبدأت تظهر ببطء عربات أخرى خلفها.

كان عدد المرتدين لبدل عسكرية أقل من أولئك الذين يرتدون ملابس عادية، والمحتمل أنهم من المسافرين الذين قُطِعت رحلتهم، وأقل عددا من الفلاحين ذوي الهيئة الرثة الذين جاءوا من منطقة

الحياة القاحلة لتلك الأكواخ الدائرية التي تتكون منها قرى مبعثرة في أنحاء المنطقة. استمرت الحافلة في تقدمها نحو ذلك المشهد الغامض بزحف حذر. حادث سير؟ كلا! فهناك ما يمكن تمييزه في ذلك الرقص والوثب الذي يرونه بما لا يوحي بحزن أو غضب ولكن بنوع غريب من المرح والبهجة. والآن لم يعد هناك أي شك، فزجاجات البيرة يمكن رؤيتها في كل الأيادي وكان الرقص - لا يوجد اسم اخر لهذا النوع من النشاط - يترافق دوما مع ثني الرؤوس للخلف وإفراغ محتويات زجاجات البيرة في الأجواف دون أن يلمس السائل الشفاه.

ركنت الحافلة إلى جانب الطريق، وبدأ بعض الناس في الجري تجاهها وكأنهم مجموعة ترحيب مخمورة. لكن عملية إيقاف الحافلة والصخب المفاجئ الذي أحدثته كلمة «انقلاب» الذي كان أشبه بقنبلة يدوية ألقيت بداخلها قد تزامنا سوية، مما نتج عنه إخلاء الحافلة من الركاب وكأن حريقا قد شب بها. قام السائق بدفع الركاب جانبا لينزل قبلهم، مخالفا أخلاقيات القائد الذي هو في العادة آخر من يغادر.

اقتحم كريس الزحام باحثا عن شخص ما لديه معلومات مترابطة. أخيرا شاهد عريف الشرطة وفي لهفته اللاهثة جذبه جانبا بطريقة أقرب إلى الفظاظة. كان الرجل يحمل زجاجة بيرة في يده اليمنى وبندقية مارك فايف في اليسرى، وكان سعيدا ليستجيب.

«جاءتنا المعلومات من جهاز الراديو هناك» هكذا بدأ ... هناك كان يوجد كوخ بشع المنظر مبني من الأخشاب وبعض الصفائح المعدنية للعمل أحيانا بمثابة مأوى لطاقم حاجز التفتيش من لهيب

الشمس، وربما أيضا بمثابة نوع من الخصوصية للجدال حول صفقات الرشوة المعقودة مع السائقين، ويبدو أن جهاز الراديو هناك هو الذي بث الأخبار.

«وعليه في الوقت نفسه الذي سمعنا فيه الأخبار تصادف مرور تلك الشاحنة المعبأة بالبيرة، ولهذا قلنا إن الله قد بعث بها إلينا. قال لنا سائق الشاحنة إن البيرة ليست ملكه، بل هي ملك للحكومة ولهذا قلنا له حسن، بما أن الحكومة قد سقطت الآن فمن سيشرب البيرة؟ ولهذا فنحن - الواقفين هنا تحت الشمس - وليس لدينا حتى المياه لنشربها، قلنا إن الله هو من أرسل إلينا كمية من البيرة لنقيم حفلة الكوكتيل الخاصة بنا».

كانت ضحكته معدية، لأن الناس الذين تجمعوا حولهما هازين برؤوسهم في اتفاق مع راوي الحكاية متجرعين رشفات طويلة من البيرة في الوقت نفسه شاركوه في الضحك. حتى كريس لم يجد بدا من الضحك، ولكنه حقيقة كان بمثابة رشوة للحصول على مزيد من المعلومات، ولم يكن عن شعور حقيقي بالسرور.

«أين جهاز الراديو؟» سأله متوقعا أنهم سيذيعون بيانات أخرى في وسط المارشات العسكرية.

«لقد سرقوه، فبينما كنا على الطريق نشرب البيرة دخل أحد اللصوص وسرق الراديو، والآن فالمسألة بيني وبينهم، ألا يعرفون من أكون، قبل أن تتمكن أي عربة من مغادرة هذا المكان اليوم سأقوم بتفتيشها جيدا، واللص الأحمق الذي سرق مني جهاز الراديو، على روحه السلام حيث سيلحق بالرئيس».

«هل قالوا أي شيء عن الرئيس؟»

نظر العـريف إليـه بريبـة وسـأله «لماذا تقـوم بكل هـذا الاسـتجواب الدقيق؟ وما دخل شـخص بسيط مثلك بالرئيس، إه؟ ما هي عـلاقة النسر بالحـلاّق؟».كان واضحـا أنه مسـتمتع بالاهتمام الذي يتلقاه «على العموم فقد اختفى الرئيس. ولا أظن أنهم سيجدونه ثانية لأنهم يقولون أن أناسـا قـد دخلوا القصر واختطفوه. ولهـذا يجب أن نراقب جيـدا في حـاجـز التفتيش هذا»، ثم انفجر في ضحكة رنانة معديا بها مستمعيه الراغبين. «هذه هي بلادنا! لم أسمع بشيء مثل ذلك من قبل. رئيس بـأسـره يخـتفي! أشبـه بقـصـة العجـوز التي جـاءت من القرية لتقول إن عنزتها قد اختفت! هذه هي أفريقيا الآن!».

«ربما يجب أن تطلب من الرجل الأبيض أن يعـود ثانيـة»، سـأل واحـد من الجمع إهـي،، لقد ذهب الرجل الأبيض الآن وسلم السلطة للرئيس. والآن فقد اختفى هذا الرئيس بفعل عملية من الداخل، فماذا سنفعل الآن؟».

«نقوم بتنصيب رئيس آخر. أليس ذلك بالأمر الصعب؟» قال ثالث من الجمع.

«لا ترى صعـوبة في ذلك، إه؟ في صبـاح اليـوم الذي يليـه سيخبرونك أن الرئيس قد تسلق شجرة نخيل ولن يكون باستطاعته النزول منها ثانيـة. «قال الثاني وسط موجة ضحك عارمة. من الواضح أنه يتمتع بقدرة على الإضحاك وكان يعي ذلك.

«إذن ما الذي سنفعله الآن؟».

«اجـمعـوا لي من كل رجل وامـرأة وطفل، وحـتى من الذين لم يولدوا بعد عشرين مانيلا، وأحضروها إلى حيث سأذهب بها إلى

إنجلترا لأناقش صندوق النقد العالمي لإعادة الرجل الأبيض إلى كانجان من جديد».

تملص كريس من هذا الجمع الهائج وذهب للبحث عن إيمانويل.

«هل بإمكانك أن تستنتج شيئا معقولا من كل ذلك؟» وجه إليه السؤال عندما عثر عليه.

ليس بعد يا سيدي، عدا ما يظهر أن فخامته قد اختطف ليلة البارحة وأن رئيس أركان الجيش قد أقسم أن يعثر عليه، ولكنه في الوقت الحالي هو من استلم زمام السلطة».

«لا بد من أن نعود إلى باسا على الفور. أين برايموه؟ أخرجا أمتعتنا من الحافلة.» كانت جديته المقلقة بمثابة توبيخ لجبن إيمانويل الساخر، وذهب لتنفيذ مهمته شاعرا بنوع من العقاب.

اندمج كريس في قسم آخر من الجمهور الذي كان يتحول بسرعة إلى مجموعة من السكارى المزعجين. كان يجري تهشيم زجاجات البيرة على الطريق بعد إفراغها واحيانا وهي مملوءة وقد جرحت أكثر من قدم عارية. وكل من كان يتوسم فيه تزويده بالمعلومات يجده ثملا، وأكثر من ذلك، متذمرا من طرحه أسئلة واعية تكاد تؤدي إلى إزعاج فكري لضحاياه.

«اذهب لتحصل لك على شراب». قال له أحدهم، ويبدو من حديثه أنه كان متعودا على اصدار الأوامر من قبل.

«لقد تناولت مشروبا، عدة مشروبات. »أجابه كريس وقد بدا أرفع منه تماما دونما قصد منه.

«لو كنت قد شربت ... كما شربت أنا ... فلماذا تقف معتدلا هكذا؟ أم أن عينَّي تخونانني؟» كان رأس الرجل يتمايل من جهة إلى أخرى كما الأمهق على رغم أن سواده يلمع مثل الأبنوس.

«لست أقف منتصبا». قال كريس وقد افتتن من دون إرادة منه بهذا المخمور الذي ينطق كلماته بفصاحة تامة.

«كلا فالأمر لا يعود إلى عينيَّ ... أنت لا تقف منتصبا ... ما أقصده هو أنك لا تقف منتصبا مثل سارية العلم. هل تفهمني؟ فالصعوبة التي أواجهها هي: إذا كنت حسب قولك قد شربت بيرة بالقدر نفسه الذي شربته، فلماذا تقف منتصبا؟ أو إذا وضعنا السؤال في قالب آخر، إذا أكل كلانا من الطبق نفسه المطهو بزيت النخيل فكيف يمكن لأحدنا، أنت مثلا، أن يكون لون برازك أسود، هذا ما أود معرفته أيها السيد. شخصان تناولا طبق الحساء نفسه المطهو بزيت الـ ...»

«حسنا سنتحدث عن هذا الموضوع لاحقا».

«لاحقا؟ لماذا؟ فالتسويف هو حجة الرجل الكسول». ثم أطلق فواقاً «كما كان يقول ناظر مدرستي». فواق! «كان يحب الكلمات الطويلة، وبإمكاني أن أقول لك عن شيء آخر كان يحبه ... إنها عصاته ...».

«أشكرك! أراك لاحقا» وانتزع نفسه مبتعدا.

ارتفعت صرخة الفتاة الحادة واليائسة عاليا فوق الأصوات الفوضوية الكثيفة لمجموعة المحتفلين على الطريق. كان عريف الشرطة يجرها متجها بها إلى مجموعة متفرقة من الأكواخ الدائرية التي لا تبعد كثيرا عن الطريق والمحاطة، كما جرت العادة في هذه المناطق، بسور من شجيرات الصبار ذات الأشواك الحادة. وكان يجرجرها من رسغيها وبندقيته معلقة على كتفه. قليل من المسافرين وأغلبهم من النساء كانوا يستعطفونه ويطلقون احتجاجات جبانة. لكن معظم الرجال وجدوا المشهد مسليا للغاية.

ألقت بنفسها على مؤخرتها بيأس. لكن العريف لم يلق لها بالا واستمر يجرها على مؤخرة ما كان في السابق فستانا أزرق نظيفا فوق كتل ناتئة لاذعة ومخاطر الزجاج المهشم.

اندفع كريس إلى الأمام وأمسك بيد الرجل مصدرا له الأمر بترك الفتاة على الفور. وكأن ذلك لم يكن كافيا فأضاف: «سأكتب تقريرا عن هذه الواقعة للمفتش العم للشرطة».

إلى أي مكان ستبلغ عني؟ هل جننت؟ ألست أنت الذي كنت تسأل عن الرئيس منذ قليل؟ إذا لم تغرب عن وجهي الآن فسأفجر رأسك حتى تصل أجزاؤه إلى أريحا، أيها الأهبل».

«بل أنت هو المجنون. رجل شرطة يسرق حمولة شاحنة البيرة، ويخطف طالبة مدرسية! أنت عار على قوى الأمن».

لم يقل الشخص الآخر شيئا إضافيا. أنزل سلاحه من فوق كتفه وسحب الأقسام، وركز نظره، بينما ارتفعت أصوات مضطربة في أرجاء المكان تطلب من كريس أن يركض مبتعدا، بينما تطالب أخرى رجل الشرطة أن يضع سلاحه جانبا. وقف كريس في مكانه يحدق في وجه الرجل مباشرة، متحديا إياه أن يطلق النار. وكان ذلك ما حدث. من مسافة قريبة في صدر الرجل الواقف قبالته.

«يا صديقي. هل تعرف أنك قد أطلقت الرصاص لتوك على وزير الإعلام؟» تساءل رجل يقف على قدميه في غير ثبات وهو يهز رأسه من جهة أخرى مثل كلب الألبينو تحت شمس ساطعة.

وصل كل من إيمانويل وبرايموه إلى مكان الحادث وهما يحملان الأمتعة التي استرجعاها من الحافلة في اللحظة التي كان فيها كريس يجثو على ركبته في وضعية تضرع غريبة، ثم يميل جانبا قبل أن يستقر مستويا على

ظهره. ركع إيمانويل بجانبه وركعت الفتاة على الجانب الآخر تعبث بقميص المصاب محاولة سد حفرة كبيرة يسيل منها الدم في دفقات غزيرة.

«أرجوك يا سيدي، لا تذهب». كان إيمانويل يصيح والدموع تنهمر على وجهه. هز كريس رأسه وبدا أنه يستجمع كل قواه ليطرد الألم عن ملامح وجهه الملتوية ويرسم مشروع ابتسامة. غمغم خلال تلك الابتسامة بكلمات مثل اللحظة الأخيرة ... ثم طغى سعال عنيف على باقي الكلام. سرت ارتعاشة في كامل جسده، وسكن لا حراك.

عريف الشرطة كان قد ألقى سلاحه وجرى نحو الأرض المقفرة. انطلق برايموه في أثره عبر الأكواخ المبعثرة وبعد حوالي مائة ياردة تمكن منه وألقاه أرضا. تدحرج الاثنان مرات وارتفع الغبار حولهما. لكن برايموه لم يكن متكافئا مع الشرطي لا بالحجم ولا بالقوة ولا باليأس، المتجمهرون على الطريق رأوا الشرطي ينهض ثانية ويواصل جريه دون ما أحد يتعقبه هذه المرة نحو الغروب الأحمر.

الجزء الثامن عشر

بإلهام مفاجئ قررت بييترس أن تقيم احتفالا في بيتها لمنح اسم لابنة إليوا.

لم تكن ترغب في إقامة احتفال تقليدي، فيما عدا عملية منح الاسم لم تكن تريد أي احتفالات. بدا لها من مجرى الأمور أن مواجهة أي شيء يمثل الاحتفال، ولو من بعيد، هو شيء بعيد الاحتمال وذلك لفترة طويلة جدا.

لكن لا مفر من أن يكون للطفلة اسم، ولم يكن يبدو أن هناك خطأ في القيام بذلك بصحبة عدد من الأصدقاء، وأن يتم في موعد «سابع سوى» كما تنص عليه التقاليد. كل التفاصيل الأخرى، على أي حال، ستأتي تحت بند الإذعان لأن هذه الطفلة ولدت محرومة مثل الأغلبية بالطبع؛ ولكنها خلافا للأغلبية فلم تنعم حتى بعراب متفائل مستعد لحملها في يوم تسميتها وأن يطلق عليها اسم الفتاة التي سترفل في النعيم، أو الطفلة، التي جاءت لتأكل أو شيئا مثل ذلك، ثم بسعادة يعيدها إلى أمها لتبدأ مسيرة حياة بائسة في محاكاة ساخرة لما يوحي به اسمها. كلا، فهذه الطفلة لن تنعم بمكان مريح في منأى عن اللسعات اليومية لنمال الأرض الصغيرة. وبالفعل فهي مضطرة الآن إلى أن تستغني عن إحدى الضرورات التي قد يعتبرها حتى أفقر الناس - كأمر مسلم به - وهو الأب (حتى أب يشبه خيال المآتة قد يكون كافيا) ليحملها بين ذراعيه ويطلق عليها اسما في اليوم الثامن والعشرين لمولدها.

دعت بييترس نفس حفنة الأصدقاء أنفسهم الذين بقوا حولها مثل المشردين من جيش تعرض إلى مذبحة. كونها استطاعت الحفاظ على ما تبقى من هذه العلاقة فهو يعتبر مقياسا للتغيير الذي بدأت تمارسه قبل الحوادث العنيفة التي جرت مؤخرا؛ وأن تقوم بذلك فيما يشبه الصمت المطبق إنما يعتبر تقديرا وإجلالا واضحا لقوة القضايا، التي تمت خسارتها، وفعاليتها.

لو حدث موت كريس في زمن مضى لكانت ردة فعلها التقوقع بالكامل داخل نفسها، وأن تتصرف، كما تفعل الوحوش الضارية في أغلب الأحيان قبل موتها، بأن تختار لها موقعا مهجورا ومظلما في الغابة، حيث تداخلها الريبة من أساليب تعزية بني جنسها. لكن الأسابيع المنحوسة التي كانت نذير شؤم لأحداث نوفمبر الدموية كانت قد رمت بها في حلف دفاعي مع مجموعة صغيرة من شبه الغرباء ثبت أنها أقوى من الشفقة أو مجرد الصداقة. فمثل صلات القربى، بنيت علاقة هذه المجموعة على رباط الدم. لكنه، على أي حال، لم يكن دما يجري بأمان وغير منتهك في عروقها، لكنه دم أريق وانتهك ببساطة عادية.

على الرغم من صلابة بييترس إلا أن اداءها كان أسوأ من إليوا في استقبال الصدمة الأولى لخبر الفقيد.. ظلت ممددة لأسابيع وهي تحس بالدمار الكامل يلفها. ثم نهضت. ذات صباح ورمت وراءها بأفكارها. كان ذلك صباح اليوم التي كادت فيه إليوا أن تجهض طفلها. ومنذ ذلك اليوم كرست نفسها لرعاية تلك الفتاة خلال الأسابيع الباقية لموعد ولادتها. عندما حاولت أثناء هذه الأسابيع أن تعيد الصلة بالأسى داخل قلبها. اكتشفت فجأة أنها

أصبحت أقوى من ذي قبل وهي تقف على قدميها، وكذلك رؤيتها قد أصبحت أوضح. إنها الآن تستطيع أن تعود بخوف أقل فأقل لتعيش مظاهر الكابوس وحتى أن تعيد تقييم ردود أفعالها. وأفكارها، ومشاعرها. فهل كانت على حق مثلا في رفض الدعوة الخاصة من رئيس الدولة الجديد لحضور الجنازة الرسمية التي أمر بإقامتها لكريس؟ هل أساءت إلى واجبها في ذكراه بعدم حضورها بدرجة أكبر من تشريفها له بإظهار عدم ثقتها بأعدائه؟

بعد الانقلاب بأربع وعشرين ساعة، وقبل أن تصلها أخبار مقتل كريس، شاهدت باشمئزاز الشكل الكئيب للميجور جنرال أحمد لانجو يظهر عليهم فجأة، متعهدا للأمة بأن يجعل الضالعين في هذه الجريمة البشعة يمثلون أمام العدالة في أقرب وقت. حتى مواطنو كانجان السذج المشهورون بخروجهم للرقص في الشوارع مع كل تغيير في الحكومة، أخذوا في التساؤل أين كان يختبئ هذا الضابط المخلص خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى عندما اختطف رئيسه من القصر بواسطة (أشخاص مجهولين) ليعذب، ويطلق عليه الرصاص في رأسه، ويدفن تحت طبقة من تراب الغابة. ولكن في الوقت الذي بدأت فيه كانجان بطرح تلك الأسئلة، وردت إلى بييترس أخبار مقتل كريس وفقدت الاتصال مع كل شيء.

الذي نقل إليها الخبر هو الكابتن عبدول مداني. حضر إليها مستقلا سيارة أجرة ومرتديا الملابس المدنية. لكن ملامحه ظلت محفورة بقوة في ذاكرة بييترس خلال الأسابيع التي لعب فيها دور الصوت الغامض بحيث أنها تعرفت مباشرة على الضابط الذي

قاد حملة التفتيش على بيتها رغم لباسه المختلف والنظارات التي يرتديها. لقد قرأت ما يظهر على وجهه من اضطراب وتوقعت الكارثة قبل حتي أن يفتح فمه. قال لها إنه أراد أن يتأكد أنها لن تسمع بالخبر عبر الأثير ثم غادر علي الفور. أذيع الخبر بعد ذلك بساعة في الإذاعة الوطنية. وفي مساء اليوم نفسه عاد كل من إيمانويل وبرايموه.

في الأسابيع والأشهر التي تلت، أصبحت شقتها بمثابة بيت لكل من إيمانويل وبرايموه والفتاة المسماة أداما. وكان الكابتن يحضر أيضا بكثرة. أحيانا، وخاصة في عطلة نهاية الأسبوع، يجتمعون ليناقشوا مشكلة البلاد المتفاقمة. في البداية كانت بييترس تستمع للأصوات والجدال الذي يدور حولها وكأنه صادر من الغرفة المجاورة خلف باب مغلق. ولكنها بدأت تلتقط الكلمات بالتدريج من بين الأصوات المكتومة، ثم مقاطع من جمل، وفي النهاية حتى الدعابة التي تصدر أحيانا مجبرة إياها على إبداء ابتسامة باهتة مثل ارتعاشة بسيطة على وجهها الذي بدأ التحفظ يفارقه ببطء.

فتح الباب ببطء وتداخلت الكلمات ومقاطع الجمل لتتحول إلى محادثات حيوية وجدال يتم أغلبه بين إيمانويل وعبدول، ولكن على رغم ما يبدو على بييترس من أنها تسمع كل ما يقال إلا أنها لم تشارك في النقاش. استمرت في طرح أفكارها الخاصة حولهم بكل حرص. ومع ذلك كانت هناك مصادمات لم يكن من شأنها إلا أن تغير من سرعة واندفاع نشاطها الصامت بين الفينة والأخرى ولو بشكل قليل.

«... وما أريد أن أعرفه منك هو كيف ستساعد إراقة الدماء الأخيرة كانجان في مسيرتها التاريخية كما تسميها. دماء صاحب الفخامة السابق، ودماء ضحاياه - إن كانوا ضحاياه بالفعل...».

إذا كانوا ضحاياه بالفعل، رددت بيترس في ذهنها. الفكرة التي كانت قد زارتها هي نفسها، وإن تكن في ثوب مختلف! تفسير مأساة كريس و«آيكم» في ضوء الحسابات البشرية التافهة أو الحوادث الشخصية بدأت تنحسر في عقلها المضطرب لتحل محلها نظرية مرعبة ولكنها أكثر قبولا، ألا وهي القتل العمد. إن صورة كريس كمجرد غريب آخر رغب أن يتحدى الموت على طريق الشمال الكبرى أو «آيكم» كضحية مبكرة لدولة البوليس المتنامية لم تعد مقبولة. ألم يكونوا في الحقيقة مسافرين قد تم تتبع أثرهم، وأن رحلتهم قد بُرمِجت بعناية بواسطة تاريخ مغترب من البداية وحتى النهاية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكم مسافرا مشؤوما هم في طريق سفرهم الآن أو قد بدأوا رحلتهم للتو، وجوههم نضرة تغلفها أوهام سفر من دون ضرائب ووصول آمن أمامهم؟

ذلك هو اليوم الذي خرقت فيه صمتها الطويل وسألت الشابين «ماذا بإمكان الناس أن يفعلوا ليسترضوا تاريخا بالغ المرارة؟».

لم تكن الابتسامات التي أنارت وجوه الحاضرين، وخاصة التي ندت عن المتجادلين اللذين لا يدركهما التعب وقد توقفا فجأة عن النقاش موجهة للرد على هذا السؤال العميق وما يوحي به من أصداء صادرة من بئر التعاسة الذي لا قرار له. ولكنها كانت نهاية الاغتراب التي أدركتها الوجوه، هي عودة ملكة النطق لقسيس

شكوكي حكم عليه الإله بالبكم لفترة من الزمان لتجرئه على وضع حدود لقدرة الخالق الكلية.

لم يكن معنى ذلك أن بييترس لم تنطق أبدا بأية كلمات قبل ذلك اليوم. فقد قالت أهلا، وقدمت الضيافة أحيانا. وبالطبع داومت على عملها بعد دفن كريس بأسبوع، وفي البيت كانت تقوم بأعبائها المنزلية بمشاركة كل من إليوا وأجاثا. ولكن في كل ما تقدم فلم تستعمل إلا الكلمات التي لا تهدد بغزو أفكارها وتجرها إلى العالم الخارجي المملوء بالدنس. وقد أصبح بالإمكان الوصول إليها إنما على مراحل بطيئة، تحثها في العادة أزمة صغيرة أو أخرى في مجتمعها الصغير.

كان عبدول قد أسر إليها بأنه قد كلف (أو كلف نفسه، فلا تدري أيهما الأصح) بمراقبتها مع أصدقائها. ابتسمت له وقالت «حظا سعيدا!». بعد أسابيع قررت أنها لكي تكون منصفة، فعليها إعلام إيمانويل الذي لم يتمالك نفسه من الغضب.

«هذا الشخص عميل محرض. كيف يمكن أن نكون بهذه السذاجة؟»

«نكون؟ يالك من شخص مهذب يا إيمانويل. أرى أن الأسابيع التي قضيتها مع كريس تتآمران في أمكنة ضيقة قد تركت بصماتها عليك. لكنني لست بساذجة، والرجل يبدو صادقا».

«كيف؟».

«هي حاسة المرأة، إذا أردت».

«منذ متى؟»

«ما الذي تقصد منذ متى؟ هل تسألني منذ متى أصبحت امرأة؟ وأنا التي وصفتك لتوي بالمهذب».

لفترة من الوقت بعد ذلك أظهر إيمانويل عدم رضاه بإبقاء فمه مقفلا بتعالٍ كلما وُجِد عبدول. وقد راقبتهما بييترس من دون أن تتدخل. في النهاية كان الفضول الذي يقتل القطط هو الذي أودى بصمت إيمانويل. جاء ذلك في إطار الإشاعة المتداولة عن الكولونيل جونسون أوساي.

«هل صحيح أنه قد اختفى؟» سأل إيمانويل من دون إرادة منه. هز عبدول رأسه من دون أن يتنازل بفتح فمه. كان قد بدأ يلاحظ شكوك إيمانويل وتبنى ما اعتبرته بييترس أرقى رد فعل أن يتجاهله بكل بساطة.

«ولكن كيف لرئيس أمن البلاد بأسره أن يختفي؟ هكذا!».

«أعتقد أنك قد غادرت باسا عندما كان رئيس الدولة نفسه قد اختفى»، ثم عدل من جلسته كأنه يوجه حديثه إلى بييترس والآخرين. «بإمكاني تزويدكم ببعض الحقائق التي ظهرت حتى الآن. شوهد الكولونيل أوساي لآخر مرة عندما كان في طريقه لمقابلة رئيس الدولة ولم يشاهد بعد ذلك. هل تذكرون عيدي أمين؟ حسن، وفقا لتقارير غير مؤكدة فقد كان يخنق خصومه ثم يقطع رؤوسهم من أجل النساء ويحتفظ بعد ذلك برؤوسهم في الثلاجة كنوع من الغنيمة. لذا فقد يكون رأس الكولونيل في البراد في مكان ما».

قالت بييترس: «لا تبدو مهتما لمصير رئيسك، وهذا شيء فظيع كما تعرف».

«لو أنني أخبرتك بنصف ما أعرف عن أوساي فلن تهتمي بشأنه أنت الأخرى».

«يا لها من حياة!» قال إيمانويل «على أي حال، فالجندية مهنة لا علاقة لها بالعواطف، وأول شيء نتعلمه هو تعال هنا أيها الجندي، واذهب أيها الجندي».

لكن كل هذا الأمر قد تركوه خلفهم منذ أسابيع وأشهر، الآن أسابيع وشهور من الإعداد البطيء لطقوس الخروج التي ستجرى اليوم.

عندما اقتربت إليوا من بييترس لتهمس في أذنها بما اعتقدت أنه السبب في عدم حضور أمها حتى الآن، قررت بييترس أن تقوم بشعائر احتفال منح الاسم بنفسها وفورا. طلبت من الحاضرين التزام الهدوء وبدأت في ارتجال طقوس الاحتفال.

رفعت اللفافة الضئيلة من سريرها ثم التفتت إلى إليوا قائلة «أطلقي اسما على هذه الطفلة».

«سميها أنت».

«عظيم. لقد اختصرت الآن خطوة غير ضرورية، وعلى أي حال، اشكرك سأبدأ من جديد... هناك نبي ذُكر في العهد القديم سمى ابنه سيعود - الأثر - من جديد. لا بد من أنهم كانوا يعيشون أياما مثل أيامنا هذه. ومع ذلك فلدينا استعارة مختلفة. لدينا فكرتنا الخاصة عن الأمل الذي لا ينتهي، ولهذا سنسمي هذه الطفلة أميشينا: عسى ألا يغلق الطريق. و«آما» للاختصار».

«ولكن هذا اسم صبي».

«لا يهم».

«ويمكن أن يطلق على الفتيات أيضا».

«إنه اسم جميل. أي أنه طريق «آيكم».

«هذا صحيح، عسى ألا يغلق أبدا، عسى ألا يشيخ».

نعم. هذا صحيح!».

«عسي أن يظل مشرقا إلى الأبد! طريق «آيكم» المشرق».

«هذا اسم بديع بالفعل».

«واسم جميل أيضا».

«في مجتمعنا التقليدي». استمرت بييترس، «الأب هو الذي يسمي الطفل، ولكن الرجل الذي كان يفترض أن يقوم بذلك غائب... كفي عن النشق يا إليوا! الرجل غائب عنا ومع ذلك فأنا أعرف اليوم أنه يحوم حولنا في هذه اللحظة، يرقبنا بابتسامته الطفولية المتميزة. لقد اعتدت مناكفته، وسأقوم بذلك الآن: على كل حال فما الذي يعرفه الرجل عن الطفل ليكون هو الذي يمنحه اسما...».

«ليس أكثر من أن زوجته قد أخبرته أنه والد الطفل». قال عبدول متسببا في ضحك كثير.

«إنها الحقيقة يا أخي». قال برايموه «تقول المرأة للرجل بأنه والد الطفل ثم يبدأ الرجل في القيام بواجباته ويجيب على أساس أنه الأب».

«تماما. أعتقد أن تقاليدنا مخطئة هنا. فمن الأسلم سؤال الأم عن ابنها، وماذا يعني، وماذا يجب أن يسمى. إذا فإليوا هي من يجب أن تحضن آما وتخبرنا عنها. وكيف هو شعورها حين يقع في حبها إنسان جميل مثل «آيكم». ولكن إليوا خجلة للغاية. انظروا إليها!».

«لست خجلة بالمرة». أجابت إليوا وعيناها تبتسمان في الوقت الذي تحاول فيه أن تحبس دموعها التي تبدو مثل أشعة الشمس الساطعة من خلال رذاذ المطر «لست بخجولة، ولكنني لا أقرأ الكتب».

«هذا أمر لا علاقة له بالكتب يا أختاه».

أنت لا تقرئين الكتب ولكنك تفهمين الكثير».

«رددي ما قلته الآن» قال إيمانويل.

«أؤيد رأيها». قال الكابتن مداني.

«ذلك ليس صحيحا». قال برايموه.

«لقد أخبرتك!» قالت آينا.

قالت بييترس «جميعنا قد مر بأوقات عصيبة. ولكن أنت يا إليوا من تمكن من إنتاج مثل هذا الشيء الجميل. مخلوق حي يرفس برجليه!».

«نعم هذا صواب، بل عين الصواب». رد الكابتن.

بدأ إيمانويل مقاطعا: «ولكن الأفكار الحية...».

«لا يمكن أن تظل الأفكار بمعزل عن الناس». قالت بييترس بشكل حاسم قاطعة عليه حديثه. امتثل للحظة، حك رأسه، ثم عاد ثانية بحس المتمرد: «لا أقبل بهذا الرأي. فالأفكار التي سمعتها في محاضرة واحدة من قبل آيكم قلبت حياتي رأسا على عقب، وغيرتني من ببغاء إلى رجل».

«حقا!».

«نعم. إنها الحقيقة. وغيرت حيوات البعض من أصدقائي أيضا. لم يكن آيكم الرجل هو الذي غيرني فبالكاد كنت أعرفه. بل أفكاره المدونة على الورق، وبالذات فكرة بعينها تقول: قد نقبل وضع ضوابط لتصرفاتنا، ولكن إطلاقا ومهما كانت الظروف، لن نقبل أي ضوابط على تفكيرنا».

«أوافق». قالت بييترس في فعل مؤازرة لهذه العاطفة المشبوبة المتعالية التي لا يمكن الوقوف في وجهها. «لقد أحسست مثلك

تماما، على الرغم من معرفتي له أيضا كرجل. لك الغلبة! إذن هي الأفكار والناس مجتمعين. وسنشرب نخب كليهما».

بينما أحضرت أجاثا سفرة المشروبات وأطلقت عقيرتها بأغان خاصة بطائفتها - وهو شيء لم تشرف به هذا البيت من قبل - استلم منها إيمانويل السفرة ووضعها على الطاولة التي تتوسطهم. أحضرت آلما الأكواب وبدأت في توزيع الشراب. عندما وجدت أجاثا أن يديها قد أصبحتا طليقتين رأت أنه من الأنسب أن تصفق في توافق مع اللحن وأن تهز وسطها في رقصة بطيئة.

«الرب يهوه ليس شخصا يمكن خداعه من أي كان.

يهوه بالغ العظمة فمن يمكنه التشويش عليه؟

إذا رغب يهوه في المباركة، فمن ذا الذي يمكنه أن يصب اللعنات؟

فلنرفع اسم الرب يهوه عاليا!».

نهضت آينا عن كرسيها، فكت ربط قفطانها الخارجي (لابا) وربطته من جديد وشاركت أجاثا في رقصتها المقدسة المغرية.

«أليست آينا مسلمة؟» سألت بييترس إليوا همسا.

«ليس للمسلم تصنيف معين» ردت وقد بانت على وجهها نظرة حيرى مستفسرة عن القصد من هذا السؤال. ثم ظهر عليها فجأة وكأنها قد فهمت المشكلة التي تواجهها السائلة «أتعنين بذلك الكلام أن المسلم لا يجب أن يرقص عندما يغني المسيحي؟» سألتها بالمقابل.

«كلا. لم أقصد ذلك». ردت بييترس بتوكيد حاسم. لكنها قالت لنفسها: «ما الذي سيمنع كاهنة إله غير معروف من تحريك قدميها؟» وابتسمت لنفسها. كانت قد بدأت في تحريك

رأسها من جانب إلى آخر بالرغم من انشغال يديها في هز آما لتجلب لها النعاس.

بعد تكرار تلك الأغنية المثيرة خمس، وست مرات صاح برايموه «هيب! هيب! هيب!» وعندها قوطع نشيد المودة العالمي بصيحة «هورررراي» وبالضحك.

توقفت في تلك اللحظة سيارة أجرة عند الباب وانزلت كلا من أم إليوا وعمها. التفتت كل من إليوا وبييترس إلى بعضهما في الوقت نفسه وقالت إحداهما «ألم أخبرك!» بينما قالت الأخرى «لقد كنت على حق!».

كانت بييترس تعرف عم إليوا لما يتمتع به من سمعة بغيضة، وها هو يحاول الآن أن يثبت صحة ذلك. قبل حتى أن يجلس تماما كانت عيناه مثبتتين على سفرة الشراب، وتفاحة آدم في رقبته ترقص دون توقف مثل فقاعة الهواء في ميزان البنائين.

«إليوا. ألا تقدمين شرابا لأمك وعمك؟».

أخذت ماما زجاجة مياه معدنية، ولكن العم رفض البيرة التي قدمت له مستفسرا عن وجود «سنابس» وعندما قيل له لا يوجد «سنابس» في البيت، لم يقل أكثر من «أه؟» وهو تعبير مختصر ولكنه بليغ كقوله: يا له من احتفال بمنح اسم، بدون سنابس.

نهضت بييترس عن كرسيها، وضعت الطفلة في مهدها واتجهت إلى الخزانة لتحضر منها زجاجة ويسكي من نوع وايت هورس. تقبل عم إليوا ما قدم له من بديل بجاهزية عالية وملأ لنفسه مقدار كليتين منه قذف بهما في فمه بسرعة في إثر بعضهما بعد أن أمال رأسه إلى الخلف قليلا لاتمام العملية وقد

نفخ بشدقيه ليصبحا مثل منفاخين صغيرين قبل أن يبلع الشراب. وضع الكوب الصغير جانبا ثم طلب زجاجة بيرة.

نظرت أم إليوا بطرف عينها إلى الأخ غير الشقيق لزوجها الراحل قائلة: «من الأفضل أن نتم العمل الذي أتينا من أجله، لا أرغب أن يقوم أي كان بإسقاط حفيدتي».

أجاب العم رافعا بكأس البيرة إلى شفتيه بيدين مرتعشتين قليلا... «لن يقوم أحد بإسقاط أي شيء، فالشراب لا يجعل من قبضة الرجل ضعيفة، بل إنه يقويها». ثم أضاف بعد أن ارتشف نصف ما في الكوب «لكن بما أن زوجتي هذه منزعجة، فدعونا نتفق معها ونتصرف كما تحب. فالحكيم هو من يوافق رأي زوجته ويأكل قطعا من السمك المدخن تضعه له في حسائه، والأحمق يعارضها وما يتحصل إلا على قطع من البطاطس في حسائه».

كان رأس عبدول محنيا جهة إيمانويل الذي كان يترجم له ما يقوله هذان الزوجان العجوزان. والآن اتجهت كل الأعين إلى بييترس التي رفعت الطفلة بين ذراعيها مرة أخرى، ولكن بدلا من تسليمها للعجوز الذي وضع للمرة الثانية كأسه جانبا ليستقبل الطفلة، قالت:

«لقد منحتُ هذه الطفلة اسما، وهي تدعى أميشينا».

ظهر على العجوزين الذهول، واستفاق الرجل أولا ليسأل: «ومن منحها الاسم؟».

«نحن الحاضرين هنا». ردت بييترس.

«أنتم الحاضرون هنا» ردد العجوز «كلكم أبوها؟».

«نعم، وأمها».

أدى انفجاره في ضحكة مدوية إلى مفاجأة الجميع، وجرهم جميعا معه إلى هذه السعادة المفاجئة. عدا أم إليوا.

قال العجوز «أنتم أيها الشباب، ما ستأتون به إلى هذا العالم هو مصيبة حبلى وترضع طفلا في الوقت نفسه... أعطني قليلا من هذا الشراب الحار».

على وجه السرعة قدمت له إليوا الزجاجة والكأس الصغيرة.

«يا له من عجوز ممتع». قال عبدول.

«أنت لا تعرفه، فهل انتظرت قليلا؟».

تُركت أم إليوا المسكينة مُهملة تحمل غضب عادة وتقليد قد أهملا، ولم يشف غليلها لأنها لم تجد أحدا تنفس فيه عن غضبها. في النهاية اختارت العجوز الانتهازي الذي يبدو مثل طبيب مشعوذ قد استأجر لطرد الأرواح الشريرة، وانتهى بأن الأرواح هي التي تطارده.

«عليك أن تعيد لي زجاجتي من السنابس، والدجاجة». قالت له وسط اندهاش الجميع. للحظات حطت على ملامحه سحابة مظلمة ثم انقشعت فورا.

«بالنسبة إلى هذا الأمر، فما يتم جلبه في مناسبة احتفال تنكري لا يمكن إرجاعه للداخل مرة أخرى، فالطعام يسير في اتجاه واحد، وهو إلى الأسفل، وإذا رأيت الطعام يتجه للأعلى فستعرفين عندها أن الرجل يواجه مشاكل».

«ستعيد لي زجاجتي من السنابس، والدجاجة». كررت بعناد.

«استمعي لي يا زوجتي ودعيني أقدم إليك نصيحة. أنت مستاءة ولا أستطيع لومك، ولكن ما فائدة أن تلوي لي رقبتك

كما تفعل الدجاجة للقدّر، في حين أن عدوها الحقيقي ليس القدّر الذي ستُطبخ فيه ولا النار التي تطبخها، بل هو السكين، فمشكلتك مع هؤلاء الشباب... اجعلي ابنتك واصدقاءها يعوضونك عن زجاجة السنابس وعن الدجاجة. أما بالنسبة إلى الجزية التي وضعت أمام احتفال تنكري فقد اختفت مع ملابس التنكر في حفرة النمل». انخرط في نوبة ضحك أخرى بينما راح يدعك جنبيه اللذين يمسك بهما الآن براحتيه مثل صرة ملابس مرتخية. شاركه جميع الحاضرين في الضحك مرة أخرى عدا أم إليوا. ثم توقف عن الضحك فجأة واستدار صوب بقية الحضور «دعوني أخبركم بشيء أيها القوم. عندما جاءتني زوجتي هذه وقالت لي: رزقت ابنتنا بطفل وأريدك أن تأتي لتمنحه اسما. قلت لنفسي: ثمة خطأ ما. لم نسمع (كبوم) ليخبرنا أن جريدة النخلة قد قطعت قبل سماعنا (ووا) عندما اصطدمت بالأشجار تحتها. لم أسمع شيئا عن مهر للعروس وها أنت تحدثينني عن تسمية طفل. ولكنني لم أشأ مخالفة زوجتي لأنني أريد سمكا في حسائي... هل تعرفون لماذا أضحك هكذا؟ أضحك لأن عالمنا يا شباب قد وجد فيكم ندا لنا. نعم! لقد وضعتم العالم حيث يجب أن يجلس... كانت زوجتي هذه تجهد نفسها بحثا عن ثمار الكولا، ومسحوق التمساح، والعسل، والأوراق المرة...».

«وعن السنابس، والدجاج المنزلي».

«صحيح، وهذه أيضا، وبينما هي تعذب نفسها أراكم تجتمعون في بيت الرجل الأبيض هذا لتمنحوا الفتاة اسما مذكرا... تلك هي

الطريقة للتعامل مع هذا العالم... إذا اعتقد أحد أنني سأبدأ عراكا لأن أحدهم قد قام بالعمل الذي كان من المفترض أن أقوم به أنا، فهذا يعني أنه لا يعرفني. أنا أتعارك فقط عندما يأكل أحدهم ما يجب أن آكله أنا. ولهذا لن أتعارك بل سأقول شكرا. وأقول إن من يأكل «الفوفو» عليه أن يجهز على الحساء أيضا. لقد منحت الطفلة اسما، فما الذي يبحث عنه المرء في قاع صحن الحساء إذا لم يكن عن قطع السمك؟ حيثما تنام الطفلة فلتصح في الصباح، هل صلاتي... زوجتي، أين ثمرة الكولا، فسأكسرها بعد كل شيء».

رحب الجميع بالقرار المفاجئ لهذا الرجل الغريب الذي جاء، ربما إثر نطقه بكلمة الصلاة. لم تستطع أم إليوا الوقوف في وجه هذا التيار الذي يعمل لصالح ذلك الرجل العجوز. فتحت حقيبتها وسلمته ثمرة الكولا.

«اذهبي لغسل هذه الثمرة يا إليوا وضعيها في صحن، ثم أحضري لي ماء لغسل يدي».

دخلت إليوا وأجاثا إلى المطبخ لتنفيذ أوامره، وبعد أن غسل يديه ونشفهما بعناية بمنشفة نظيفة، تغاير تماما سترته الملطخة بالعرق والأوساخ وقد كانت في السابق مزدانة بشريط أبيض، اتخذ الآن وضعية تقديسية ثم التقط الثمرة بيده اليمنى وأمسكها بين أصابعه الأربع والإبهام بحيث استوت راحته للأعلى، إلى الإله العظيم.

«يا مالك هذا العالم! بأسمائك التي لا تحصى! يسميك رجال الدين بأنك ثلاثة في واحد وهو اسم جيد. ولكنه لا يحمل إلا ثناء بسيطا وغير كاف. أربعمائة في واحد سيكون أكثر ملاءمة في أعيننا. ولكن ليس لدينا أي خلاف مع أهل الكنيسة، فمقصدهم

جيد، وتفكيرهم على الطريق الصحيح. كل ما في الأمر أن اليد تعجز عن الرمي باستقامة رؤية العين. نحن نحيي الرجل الذي يذبح دجاجة حتى إذا أصبحت يده قوية فيمكنه ذبح معزى...».

«ما يجمعنا هنا اليوم هو هذه الطفلة التي أرسلتها لنا، فليكن طريقها في الحياة مستقيما».

«آيسى! أجاب الحاضرون».

«فلتكن لها الحياة، ولأمها كذلك».

«آيسى!».

«وما حدث لأبيها لن يتكرر ثانية».

«آيسى!».

«عندما سألت من سماها، قالوا لي نحن جميعا. فلتكن هذه الطفلة ابنة لنا جميعا».

«آيسى!».

«ونرجو جميعنا أن تتمتع بالحياة!».

«آيسى!».

«نرجو عندما يخطط هؤلاء الشباب لمستقبلهم ألا ينسوها، أو ينسوا بقية الأطفال».

«آيسى!».

«وليتذكروا أيضا، وهم يرسمون خططهم، وجود كبار في السن مثلي ومثل أم إليوا».

«آيسى!».

«لقد رأينا الكثير من المتاعب في كانجان منذ رحيل الرجل الأبيض، لأن من يرسمون الخطط يفعلون ذلك لأنفسهم فقط

ولعائلاتهم». كان عبدول يهز رأسه بقوة ثم مال قليلا ناحية مترجمه الفوري ايمانويل.

«أقول إن هناك قتالا كثيرا في كانجان، والكثير من القتل. لكن القتال لا يبدأ إلا إذا وضع أحدهم أصابعه في عيونك. من أراد أن يحرّم القتال فعليه أولا أن يمنع استفزاز دفع الأصابع في العيون».

«آيسى! آيسى!».

عبدول، وهو الغريب عن طقوس استعمال ثمار الكولا، كان قد أخذه الحماس إلى أكثر من مساندة الجوقة بالحدود المعتادة إلى التصفيق الحار.

«لم أدخل في حياتي من قبل بيتا مثل هذا، وأرجو ألا تكون هذه هي المرة الأخيرة».

«آيسى!».

«أنت مرحب بك في أي وقت». أضافت بييترس مقتفية أثر عبدول في خرق الطقوس.

إذا طاردَنا شيء فسنهرب منه، ولكن إذا طاردْنا نحن شيئا فسنظفر به».

آيسى!

«طالما كان الذي نسعى في أثره لا يخص شخصا آخر».

«آيسى»!.

«فليحيا الجميع!».

«آيسى»!.

«فلتحيا باسا!».

«آيسى!».

«فلتحيا كانجان!».

«آيسى!».

بعد أن غادر كل من أم إليوا وعمها وآينا وبرايموه في سيارة الأجرة العتيقة، استمر الاحتفال بالروح الهادئة المريحة نفسها التي أعقبت زخم الطقس الذي جرى اليوم. ولكنه أثبت أنه يوم خارق للعادة بقوته على الاحتمال، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت تتكون موجة جديدة من العاطفة كانت تتجمع بسرية تحت هدوئه الشامل.

بدأ الأمر بتموجات بسيطة في محاولة لتذكر الأحداث الماضية، فقد كان من الواضح أن إيمانويل يبدو مسرورا من نفسه، ولهذا فقد اختار أن يثني على أحد سواه، بييترس، للتطور، وللنخب المزدوج الذي كوناه، كما أطلق عليه «الأفكار والبشر». أما من جانبها، فقد كانت القائد الذي صقلت تجربته أكثر وأكثر بالتعامل بحساسية مع احتياجات رفاقها الخاصة.

«لا بد من القول إنني أقدر موقفك العاطفي تجاه الأفكار».

«ها هو نادي الإعجاب المتبادل يتأسس من جديد». صاح عبدول.

«والغيرة لن توصلنا إلى أي مكان». قالت بييترس.

«ولكن عند النظر إلى ما حدث». استمر ايمانويل غير آبه لطعم الممازحة الذي ألقي لهما «أظن أنك قد علمتني شيئا بالغ الأهمية عندما أكدت على أهمية البشر. هل تذكرين اليوم الذي أخبرتني فيه أن كريس علمني لأكون رجلا محترما».

«كانت مجرد دعابة».

«المداعبات جادة تماما». قال عبدول تشيطنا.

«نعم هي كذلك... ذلك اليوم وكذلك هذا اليوم تذكرينني بما علي من دين لكريس. لست أدري لماذا لم أفكر في الأمر من قبل، ولكن أعظم ما علمني هو رؤية الطريقة التي توفي بها».

اختفت على الفور روح الدعابة التي كانت سائدة في الجو، طوت أجنحتها وسقطت مثل صخرة، وجفت المناقشات التابعة.

«كنت راكعا إلى جواره أبكي بيأس، أما هي، وأشار برأسه نحو آدما، فكانت تحاول القيام بشيء. ثم تفوهت بشيء غبي مثل: لا تذهب، أرجوك لا تتركنا. ولا أستطيع وصف ذلك المجهود - تكادين أن تلمسيه - لطرد الألم عن وجهه ولاغتصاب ابتسامة، وليخرج بنكتة بعد ذلك كله اطلق عليها البسمة الأخيرة».

جفلت بييترس في كرسيها.

«نعم أتذكر»، قالت آدما الصامتة «البسمة الأخيرة، ولكنه لم يتم الجملة».

انطلقت بييترس مسرعة إلى غرفتها، وذهبت إليوا في أثرها. لم يُقَل أي شيء خلال فترة غيابهما، وبعد دقائق قليلة عادت إليوا.

«هل هي بخير؟» سبق عبدول الآخرين قليلا بالاستفسار.

«لا توجد مشكلة. أن تبكي قليلا فذلك ليس بالأمر السيئ. بي بي ليست مثلي عندما أخذت في البكاء يوميا مثل الطفل الذي ماتت أمه».

قالت أجاثا «السيدة قوية جدا أكثر من اللازم، وأن تكون المرأة قوية جدا فذلك ليس بالأمر المحمود».

«ذلك ليس بالأمر المحمود للرجل، أو المرأة، أمر جيد أن يبكي الإنسان قليلا... لقد حاولت منعها من البكاء كثيرا، لكنها طلبت مني تركها وحدها». قالت إليوا.

«لماذا تجلسون في الظلمة؟» قالت وهي تضيء الأنوار إثر عودتها ودخولها للغرفة التي غادرتها منذ حوالي نصف الساعة. تحدثت بسكينة تامة في صوتها. كانت أصلحت من زينتها، وحتى أنها حاولت الابتسام وهي تجلس من جديد، ثم قالت:

«أعتذر عن تصرفي».

«أنا الذي أعتذر لطرقي الموضوع هذا اليوم. فلم أكن...».

«لا لا لا يا إيمانويل. أنا سعيدة لأنك طرقت الموضوع، وفي الحقيقة أنت لا تعرف كم أنا ممتنة لك. وأستطيع أن أخبرك أنني أكثر سعادة الآن، أكثر سعادة مما كنت عليه منذ ذلك اليوم». لم تقل أكثر من ذلك ربما وعلى رغم تلك الهيئة التي تحاول الظهور بها، لم تتمكن من الاستمرار.

لملء الفراغ المؤلم، أو ربما كان بلا حول في قبضة ذلك التدفق المتراكم فقد بدأ إيمانويل من جديد.

«كما ترين فقد شاهدت في حياتي حادثتي موت فقط...».

«ضع قصتك غير المفيدة هذه داخل جيبك»، أمرته إليوا «لماذا تسبب المشاكل هكذا؟

«ألا يكفي الذي سببته حتى الآن أيها السيد؟»

«اتركي الفتى وشأنه. إيمانويل».

«إيمانويل أرجوك أكمل».

«الميتة الأولى التي حضرتها كانت أبي ثم كريس. من دون كريس لم أكن لأعرف أن بإمكان المرء أن يموت بشرف».

«ألم يمت والدك بشرف؟» تساءل عبدول.

«كلا. رغم أنه كان عجوزا بالمقارنة مع كريس، ولكنه لم يتعلم

كيف يموت. زعق بالناس، وبكى أيضا. كان خائفا إلى درجة الموت. كان يهرول من طبيب إلى آخر وعندما مر عليهم جميعا تحول إلى بيوت العبادة. كان مصابا بسرطان البروستاتا. في كل يوم يحط علينا أحد النسور من مكان ما راويا قصة عن كاهن أو كاهنة في إحدى القرى النائب فيقوم أبي بجر أمي المسكينة معه في الصباح التالي. اعترف، والخجل يملؤني، بأن وفاته قد جلبت معها ارتياحا غير لطيف... ولكن انظروا إلى كريس، فتى لا تزال الحياة بأسرها أمامه، ومع ذلك باستطاعته أن ينظر في عيني الموت، يبتسم، ويقول دعابة... كان امرا رائعا».

«أنت لا تعرف لماذا دخلت غرفتي لأبكي... لقد كانت تلك الدعابة رسالة شيفرية موجهة لي، ولنا جميعا». قالت بييترس وسط دهشة الجميع «بالمناسبة، فقد سمعتها آدما بصورة أفضل، وما كان يحاول قوله هو الخضراء الأخيرة. لقد كانت دعابة خاصة بنا. الزجاجة الخضراء الأخيرة. كانت دعابة مزعجة وبالغة المرارة. كان يضحك من نفسه، وكان ذلك هو الشيء العظيم. بالمناسبة، فبإمكان هذين الرجلين، كريس و«آيكم»، أن يضحكا من نفسيهما وغالبا ما فعلا ذلك. فهما ليسا مثل أولئك البغال المغرورين الذين انقضوا على السلطة».

«هل لك أن ترددي ما قلت!» قال إيمانويل.

«أتعرفون لماذا بكيت؟ كان كريس قد بدأ لتوه في فهم المعنى من هذه الدعابة المرة. فالزجاجات مصفوفة هناك على الجدار معلقة بخيط رفيع. ومع ذلك تنظر بغرور لهذا العالم. كان كريس يرسل

لنا رسالة لكي نحذر. هذا العالم هو للناس كافة وليس لنخبة صغيرة مهما كانت درجة موهبتها...

«وما يجعل الأمر مضحكا هو عندما تكون هذه النخبة غير موهوبة». قال عبدول.

«إنها الرسالة نفسها التي كان عم إليوا يطبلها مساء اليوم، أليس كذلك؟ ضاربا على طبله المجنون بالطبع. بالرغم من ذكاء كريس إلا أنه بالكاد بدأ يشعر بأناس مثل ذلك العجوز. هل تذكرون دعاءه؟ لم يدخل بيت رجل أبيض طوال حياته، وعسى ألا تكون المرة الأخيرة».

«وقد قلنا آيسى!» قال عبدول.

«نعم قلنا ذلك، وقد كان تعهدا منا. ومن المستحسن أن يكون أفضل من بعض العهود التي سمعناها مؤخرا».

«آيسى!»

أخيرا وصلت العواطف المشبوبة لذلك اليوم الاستثنائي إلى نهايتها. ران الصمت بالكامل على تلك المجموعة داخل البيت كما ران الظلام في الخارج. آما التي لقبتها بييترس بالفم النهم بعد أن رضعت من كل من الزجاجة ومن صدر إليوا، كانت تنام في سريرها بهدوء مثل ثمرة ببايا ناضجة على الشجرة.

لم يتكلم أو يتحرك أحد. ولم يبحث أحد عن عيون الآخرين. أما بييترس فقد جلست منتصبة على كرسيها وقد أحاطت صدرها بذراعيها.

أخيرا، وكأنها قد عادت للتو من رحلة بعيدة للذهن تحمل معها كنوزا في عينيها تمتمت، للمحتفلين بقدومها؟ لنفسها فقط؟ رائع! ثم رددتها مرة اخرى بنعومة أكثر: رائع!

أدار الباقون رؤوسهم نحوها. وحدها ظلت تحدق في شيء بعيد - طرف ثالث غير مرئي من الباقين. حضور قد وجهت له مناجاتها الهادئة؟

عندما حدث لها التغيير كان مفاجئا. نفس عميق سمع في كامل الغرفة وذوبان للهيئة التمثالية قد أخبرا عن عودتها مجددا.

«أنا عاجزة عن شكرك يا إيمانويل، لتواجدك هناك، والعودة بتلك الرسالة. وبالطبع أنت أيضا يا أدما». نظرت إلى كل منهما بالدور وقد ارتسمت ابتسامة مجهدة على محياها «الحقيقة هي الجمال بعينه، أليس كذلك. لا بد من أن تكون كذلك، أن تجعل شخصا يحتضر متألما. أن تجعله... يبتسم. يرى الحقيقة و... كيف أعبر عن ذلك؟... لا تطاق، رائعة إلى حد لا يطاق. نعم هي كذلك! مثل شاكا امبراطور كونين. رماح مهاجميه تنهال عليه، ولكنه استوعب الحقيقة في تلك اللحظة، كما قيل لنا، ومات مبتسما... أوه يا حبيبي كريس».

انحدر من عينيها خيطان من الدموع، لكنها لم تأبه لمسحهما.

«بي بي. ما هذا الذي تفعلينه الآن؟» احتجت إليوا رافعة كفين من البراءة نحو تلك القوى في الأعالي.

«حتى أنا لم أبك هكذا! ما نوع المشكلة التي ستسببينها الآن؟ أرجوك. هم م م م».

المؤلف في سطور

تشنوا أشيبي .

- ولد عام ١٩٣٠ في قرية أوجيدي ، شرقي نيجيريا .
- انخرط في العمل لدى هيئة الإذاعة النيجيرية ونشر أولى رواياته «الأشياء تتداعى» عام ١٩٥٨ وبيع منها أكثر من ثمانية ملايين نسخة وترجمت إلى أكثر من خمس وأربعون لغة .
- كتب أشيبي روايات عدة مثل «لا راحة بعد الآن» و «رجل الشعب» وكذلك القصص القصيرة منها «فتيات في حرب» وكتبا للأطفال وديوان شعر بعنوان «حذار يا أخا الروح»، بالإضافة إلى مجموعة مقالات نشرت ، وله في النقد الأدبي كتاب بعنوان «آمال ومعوقات».
- يعمل في الولايات المتحدة الأمريكية محاضرا في جامعة يارد حيث استقر فيها بعد إصابته بشلل كلي في النصف السفلي من جسمه، إثر تعرضه لحادث مروري .

المترجم في سطور

فرج الترهوني.

- من مواليد عام ١٩٤٨ .
- عمل في القوات البحرية في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ، برتبة عقيد وهو الآن متقاعد ويشتغل بترجمة المقالات والأعمال الأدبية ، كما أنه مترجم قانوني محلف.
- له علاقة حميمة بالفن التشكيلي ويمارس الرسم.

المراجع في سطور

عامر الزهير.

- حصل على بكالوريوس الفنون المسرحية من جامعة أريزونا عام ١٩٧٨، كما حصل على ماجستير إخراج وإنتاج سينمائي من جامعة لويولا بكاليفورنيا عام ١٩٨٨ .
- كاتب سيناريو ومخرج سينمائي ومنتج أيضا .
- له عدة ترجمات منها : «رحلة النهار الطويلة خلال الليل» ليوجين أونيل ومسرحية «ضحية» لماريو فراتي.

ابداعات عالمية

339

كثبان النمل في السافانا

لقد اختار الكاتب النيجيري تشنوا أشيبي الكتابة باللغة الإنجليزية، ليس حبا في المستعمر الأوروبي وإنما كردة فعل تجاه النظرة السلبية التي كانت شائعة في الأوساط الأدبية والاجتماعية في أوروبا عن الشعوب الأفريقية. و كذلك لإبراز صوت الإنسان الأفريقي والتحدث عن تجاربه، بلغة تعتبر - عالميا - الأوسع انتشارا.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أتشيبي يرمي إلى استعمال الإنجليزية كي يعبر هو عن رسالته أفضل تعبير، دون إحداث تغيير في بنية اللغة، تفقدها قيمتها كعامل للتبادل العالمي، لتيسير نقل تأملاته الفلسفية والقضايا المهمة في قارته.

ومن جملة هذه القضايا التي يتعرض لها في روايته «كثبان الرمل في السافانا» : مسألة الديكتاتورية والديموقراطية الزائفة وما يقترن بهما من قمع وإهانة لكرامة الإنسان وإهدار لثروات الأمة وتكريس لتخلفها. ودور النخبة في المجتمع من خلال "آيكم"، الكاتب والشاعر الذي يوضح دور الحكايات الشعبية الموروثة وما تمثله من تهديد لمن هم في السلطة.

وللمرأة حضور قوي في هذه الرواية ، وفشلها في الحصول على دور واضح في المجتمع ناتج عن خلل في رؤية الرئيس لبلاده. وهذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المسائل التي تخص القارة السوداء.

إن ما يصبو إليه الكاتب هو استعادة إرثه وإرث الإنسان الأفريقي وإظهار اتجاهات التغيير الإيجابي، من أجل التكيف مع الضغوط في سبيل التغيير الداخلي والتعاون الكوني. وفي الوقت نفسه يدعونا إلى التفطن إلى أشكال الرجعية وأشكال الرغبة في القوة التي تمثلها الديكتاتورية والتي تقف في وجه الإصلاح، سواء في بلده أو في أي مكان آخر في العالم.

ردمك ٧ - ٠٩٣- ٠ - ٩٩٩٠٦

ISBN 99906- 0 - 093 - 7